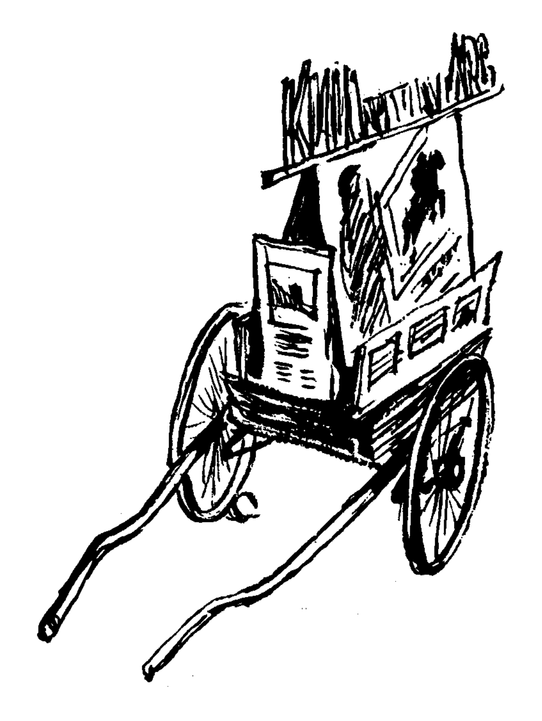

اناتولي ريباكوف
المدية



اناتولى ريباكوف

المدية



دار التقدم

موسكو

А. РЫБАКОВ

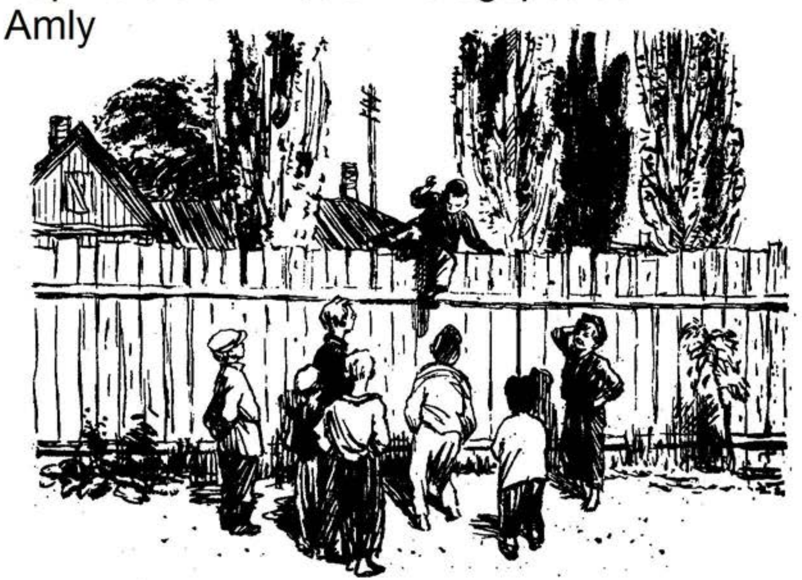
Кортик

На арабском языке

رسوم اوريست فيريسكى

طبع في الاتحاد السوفييتي

P $\frac{70803-370}{014(01)-76}$ 598—75



القسم الاول

بلدة ريفسك

الفصل الاول

اطار الدراجة الممزق

غادر ميشا الاريكة ببطء وارتدى ثيابه وانسل خارجا الى مدخل البيت .

كان الدرب العريض خاليا ما زال يغط فى نومه تدفئه اشعة شمس الصباح المبكر . وكانت علامات الاستيقاظ الاولى فى صمت هذا الهدوء البارد هى سعال وهمهمة يتصاعدان من البيت من وقت الى آخر وصياح الديكة من الفناء .

اغمض ميشا عينيه . كان يشتهى العودة الى الفراش الدافئ

منجديد ولكن تفكيره فى «النقّيفة» جعله ينفض النوم من عينيه بتصميم . وبين صرير ارضية الممر الخشبية تسلل بحذر الى غرفة الحاجات المهملة .

كان شعاع باهت ينسل من كوة صغيرة تحت السقف ليقع على دراجة عتيقة استندت الى الجدار وقد جمعت قطعها من دراجات مختلفة وعلا الصدأ «اسياخها» كما خلا اطاراها المطاطيان من الهواء وانقطع جنزيرها . تناول ميشا اطارا مطاطيا ممزقا كان معلقا فوق الدراجة ، وقد انتشرت فيه رقع تعددت الوانها ، واقتطع منــــه بالمطواة شريطين ضيقين ثم اعاد تعليقه بشكل لا يلاحظ فيه مكان القطع .

فتح الباب بحذر وهمّ بالخروج من الغرفــــة لو لا ان رأى بوليفوى فجأة يسير فى الممر عارى القدمين منفوش الشعر يرتدى قميصا للبحارة . اغلق ميشا الباب تاركا فيه فتحة صغيرة ولبد فى مكانه .

هبط بوليفوى الى الحوش واقترب من بيت مهجور للكلاب ونظر حوله بامعان .

دار فى رأس ميشا : «لماذا يتمنع عليه النوم ؟ اضف الى ذلك انه ينظر حوله بشكل غريب . . .»

كان الجميع يطلقون على بوليفوى اسم «الرفيق المفوض» . كان طويلا ضخما وبحارا سابقا ما زال يرتدى بنطالا اسود عريضا وسترة تتصاعد منها رائحة دخان التبغ . ومن تحت السترة مسدس ناغان يتدلى من الحزام . كان كل الاولاد فى بلدة ريفسك يغبطون ميشا لانه يعيش مع بوليفوى فى بيت واحد .

انذهل ميشا وقال فى نفسه : «ماذا دهاه ؟ بهذا الشكل لن اتخلص من هذه الغرفة ! ان الجدة ستنهض عما قريب» .

جلس بوليفوى على جذع شجـــرة ملقى بجانب بيت الكلاب وتفحص الحوش بعينيه مرة اخرى . امعنت عيناه الثاقبتان النظر فى الشق الذى كان ميشا يختلس منه النظر ثم انتقلتا الى نوافذ البيت .

دس يده بعد ذلك تحت بيت الكلاب وفتش هناك طويلا ، ويظهر انه وجد شيئا ، ثم انتصب واقفا وعاد ادراجه الى البيت .

صر باب غرفته وطقطق السرير تحت ثقل جسمه وهدأ كل شيء .
كان ميشا يتحرق شوقا لصنع «النقيفة» ولكن . . . عم كان بوليفوى يبحث تحت بيت الكلاب ؟ تسلل ميشـــا نحوه وتوقف مستغرقا فى التفكير .
هل ينظر ؟ ولكن لعل احدا يلاحظ ذلك ! جلس على جذع الشجرة والتفت الى نوافذ البيت . وفكر ميشا وهو يدس يده تحت بيت الكلاب : «لا ، انه امر معيب ! لا يجب ان يكون المرء فضوليا الى هذا الحد ! لا يمكن ان يكون هنا اى شيء» . لقد بدا له فقط وكان بوليفوى يبحث عن شيء ما . . . وبدأت يده تبحث تحت بيت الكلاب . طبعا ، ليس هناك شيء ! لا يوجد الا التراب والخشـــب المتعفن . ووقعت اصابع ميشا على شق . حتى ولو اخفى هنا شيء ما فانه لن ينظر اليه بل سوف يتأكد فقط مما اذا كان يوجد شيء ام لا . لمس يده فى الشق شيئا طريا يشبه الخرقة . هل يخرجه ؟ التفت ميشا نحو البيت مرة اخرى وسحب الخرقة وازال التراب عنها ثم اخرج من تحت بيت الكلاب صرة .
نفض عنها التراب وفتحها . التمع تحت ضوء الشمس نصل فولاذى لخنجر . مديـــة ! ان الضباط البحارة يحملون مثل هذه المدية . كانت دون غمد وذات ثلاث حواف حادة ، وحول قبضتها العظمية ذات اللون الاسمر الداكن التف جسم افعى من البرونز فاتحة فمها ولسانها يتلوى الى اعلى .
مدية بحارة عادية . اذن لماذا يخفيها بوليفوى عن العيان ؟ امر عجيب . وتفحص ميشا المدية مرة اخرى ولفها فى الخرقة ثم ادخلها ثانية تحت بيت الكلاب وعاد الى مدخل البيت .
وقعت العارضتان الخشبيتان اللتان توصدان البوابة وهما تصدران قرقعة عالية ، وخرجت البقرات ببطء ووقار وهى تهز باذنابها لتنضم الى القطيع المار فى الدرب . كان يسوق القطيع راع صغير يرتدى قفطانا ممزقا طويلا يصـــل الى الكعبين ، وعلى راسه قبعة من جلد الخراف . كان يصيح على الابقار من حين الى آخر ويفرقع ببراعة بسوط كان يسحبه وراءه كالافعى مثيرا الغبار به .
صنع ميشا «النقيفة» وهو جالس امام مدخل البيت ، الا ان

المدية لم تبارح تفكيره . لم يكن فيها ما يثير الاهتمام الا الافعى البرونزية ... لماذا يخفيها بوليفوى عن العيان ؟

لقد اصبحت «النقيفة» جاهزة ، وستكون احسن من تلك الموجودة عند غينكا ! وضع ميشا فيها حجرا صغيرا ونقف به العصافير التى تقفز على الطريق . طارت العصافير وحطت على سياج البيت المجاور . اراد ميشا ان ينقف مرة اخرى لو لا ان تعالى فى البيت صوت خطوات وقرقعة باب الموقد وجريان الماء من البرميل . اخفى ميشا «النقيفة» فى عبّه وتوجه الى المطبخ .

كانت الجدة فى ردائها القذر وقد انتفخت جيوبه لكثرة ما فيها من مفاتيح ، تزيح على المقعد سلالا كبيرة ملأى بالكرز . وبحول ضئيل كانت تضيق على وجهها المهموم عيناها الصغيرتان القصيرتا البصر . اطلق ميشا ليديه العنان فى السلة ، فصرخت الجدة :

– الى اين ، الى اين ؟ ! بهاتين اليدين القذرتين !

فتمتم ميشا :

– أتتباخلين ؟ انى جائع .

– اغتسل اولا .

اتجه ميشا نحو المغسلة وبلل كفيه قليلا ثم مس بهما ارنبة انفه وبعد ذلك لمس المنشفة واتجه نحو غرفة الطعام .

كان الجد جالسا فى مكانه المعتاد على رأس مائدة طويلة للطعام غطيت بمشمع رسمت عليه ورود بنية اللون . كان الجد مسنا أشيب ذا لحية قليلة الشعر وشارب يضرب لونه الى الحمرة . كان يضع النشوق فى انفه باصبعه الكبير ويعطس فى منديل اصفر . وعيناه المتألقتان التى تحيط بهما التجاعيد تبتسمان وتشعان بالطيبة . وتتصاعد من سترته رائحة خفيفة لطيفة لا يختص بها الا الجد نفسه .

لم يكن هناك شىء على المائدة بعد . واثناء انتظار طعام الافطار وضع ميشا صحنه فى وسط وردة مرسومة على المشمع وبدأ يحز بالشوكة دائرة حول الصحن .

وظهر على المشمع خدش عميق .

دخلت الجدة غرفة الطعام وهى تحمل السماور . فاخفى ميشا الخدش بمرفقيه .

سأل الجد :

– اين سيميون ؟

اجابت الجدة :

– لقد ذهب الى غرفة الحاجات المهملة . انه يفكر باصلاح الدراجة !

اجفل ميشا وسحب مرفقيه عن المائدة ناسيا موضوع الخدش الذى احدثه . اصلاح الدراجة ؟ يا للمشكلة ! ان العم سينيا لم يلمس الدراجة طوال الصيف وكأنما لم يأته عمل ذلك الا اليوم . سوف يرى الاطار الآن وستبدأ قصة لا نهاية لها .

ان العم سينيا انسان ممل ! ان الجدة تشتم فقط ، اما العم سينيا فانه يعوج شدقيه ويبدأ بالتوبيخ . واثناء ذلك ينظر الى جانب وينزع النظارة ويعيدها ويجذب الازرار المذهبة المعلقة على السترة الطلابية . وليس هو بالطالب ! فقد طرد من الجامعة منذ زمن بعيد لـ«شغبه» . انه لامر ممتع معرفة المشاغبات التى يمكن ان يحدثها شخص دقيق دائما كالعم سينيا ! كان ذا وجه شاحب جاد وشارب صغير . كان من عادته اثناء تناول الطعام ان يقرأ كتابا محولا عينيه ودون ان ينظر كان يقرب الملعقة من فمه كيفما اتفق .

اجفل ميشا مرة اخرى ، فقد سمع صوت سقوط الدراجة آتيا من غرفة الحاجات المهملة .

وعندما ظهر العم سينيا امام الباب وبيديه الاطار الممزق وثب ميشا من مكانه واندفع خارجا من البيت لا يلوى على شىء قالبا الكرسى فى طريقه .

الفصل الثانى

اولاد اوغورودنى واولاد اليكسييفسكى

اخترق الحوش بسرعة كبيرة ثم وثب فوق السياج فوجد نفسه فى درب اوغورودنى المجاور . لم يكن هناك اكثر من مئة خطوة تفصله عن اقرب زقاق يؤدى الى دربه ، درب اليكسييفسكى .

الا ان اولاد اوغورودنى الاعــــداء اللدودين لاولاد اليكسييفسكى كانوا قد لاحظوا ميشا وتراكضــــوا من جميع الجهات يصيحون ويولولون ابتهاجا بالتنكيل الذى سيقــــع باولاد اليكسييفسكى وخاصة بواحد من موسكو .

تسلق ميشا السياج بسرعة وصاح :

– ماذا ، هل امسكتم بى ؟ لقد اخفتمونى يا ابطال بعابع !

كانت هذه التسمية اكبر الاهانات لاولاد اوغورودنى ، فتطاير على ميشا اثر ذلك وابل من الحجارة . وعندما تدحرج من السياج الى الحوش كان على جبينه «نبّيرة» ، اما الحجارة فاستمرت بالتطاير لتقع بالقرب من البيت نفسه الذى خرجت منــــه الجدة فجأة . وصوصت بعينيها العمشاوين والتفتت نحو البيت ودعت احدا . لعله العم سينيا . . .

التصق ميشا بالسياج :

– توقفوا يا اولاد ! اسمعوا ماذا سأقول لكم !

اجاب احدهم من خلف السياج :

– ماذا ؟

تسلق ميشــــا السياج ونظر بحذر الى ايدى الاولاد وهو يقول :

– «حيز» لا ترموا الاحجار ! أكلكم ضد واحد ؟ فليكن ذلك بشرف ، واحد ضد واحد .

صاح بيتكا بيتوخ وهو ولد ضخم يبلغ الخامسة عشرة من عمره :

– هيا !

والقى عن نفسه سترة ممزقــــة وشمر كمى القميص عن ساعديه بروح من العداء .

وقال ميشا محذرا :

– فلنتفق ، يتعارك اثنان فقط دون تدخل من ثالث .

– حسنا ، حسنا ، انزل !

وكان العم سينيا والجدة واقفين امام المدخل . وثب ميشــا عن السياج ، فتقدم بيتوخ حالا نحوه . كان اضخم من ميشا بمرتين تقريبا .

غرز ميشا اصبعه فى ابزيمة حديدية فى حزام بيتيا قائلا :
– وما هذا ؟
كـان من المتبع ألا يكون فى الثياب اى جسم معدنى اثنـــاء العراك . نزع بيتوخ الحزام فكاد ان يقع بنطال ابيه العريض . امسكه بيده فناوله احدهم حبلا ليربط البنطال به . كان ميشـــا اثناء ذلك يدفع الاولاد قائلا : «هيا وسّعوا المكان ! . .» وفجأة وبينما كان يدفع احد الاولاد اندفع هاربا .
انطلق الاولاد خلفه بالزعيق والصفير ومن خلف الجميع كان بيتوخ يركض ماسكا بيده بنطاله الساقط وهو يكاد يبكى .
كان ميشا يندفع بكل سرعته . كان كعبا قدميه يتألقان تحت الشمس . وتعالى من خلف صـــــوت وقع اقدام ولهاث وصراخ متعقبيه . ها هو المنعطف . زقاق قصير . . . وطار مندفعـــا الى دربـــه . هب اولاد درب اليكسييفسكى لمساعدتـــه ، اما اولاد اوغورودنى فقد عادوا الى دربهم غير راغبين بالعراك .
سأل غينكا الاحمر :
– من اين انت آت ؟
التقط ميشا انفاسه ونظر الى الجميع وقال دون اكتراث :
– من اوغورودنى . تعاركت مع بيتوخ بشرف ، وعندما كدت اتغلب عليه هجم الجميع علىّ .
سأل غينكا بارتياب :
– انت وبيتوخ ؟
لمس ميشا «النبّيرة» على جبينه قائلا :
– ومن غيرى يستطيع ذلك ؟ انـــه فتى قوى ، انظر الى المصباح الذى علقه لى .
نظر الجميع باحترام الى علامة الشجاعة الزرقاء هذه .
وتابع ميشا :
– لقد ضربته انا كذلك . . . انه لن ينسى ابدا ! وانتزعت منه «النقّيفة» . – واخرج من عبه «نقيفـــة» بمطاطتين حمراوين طويلتين . – انها احسن من التى لديك .
وبعد ذلك أخفى «النقيفة» ونظر باستخفـــاف الى البنات

الصغيرات اللواتى كن يصنعن كعكات من الرمل بواسطة القوالب وسأل بسخرية :

– وماذا تفعل انت ؟ أتلعب «الطميمة» ام «الدقة» ؟ «حكرة بكرة قال لى عمى عد العشرة : واحد ، اثنين ، ثلاثة ، اربعة . . .»

ألقى غينكا خصال شعره الحمراء الى الوراء وقال :

– لم ينقصنا الا هذا ! هيا نلعب بالمطواة .

– على خمس ضربات «منقوعة» من «كعب القازان» ؟

– حسنا .

اتخذا مجلسيهما على الرصيف الخشبى وبدآ يغرزان المطواة فى الارض واحد بعد الآخر .

انهى ميشا اولا كل الخطوات فمد له غينكا يده . عوج ميشا وجهه بشكل وحشى ورفع الى اعلى اصبعين مبللين باللعاب . بدت هذه الثوانى كالساعات بالنسبة لغينكا الا ان ميشا لم يضرب . ارخى يده وقال : «ان التزييت قد جف» ، – وبلل اصبعيه باللعاب ثانية . وقد تكرر ذلك بضع مرات قبل كل ضربة حتى أنهى ميشا فى آخر الامر الضربات الخمس من «كعب القازان» على يد غينكا الذى كان يخفى الدموع المترقرقة فى عينيه وينفخ على يده المزرقة المتألمة .

ازداد ارتفاع الشمس فى السماء واصبحت الظلال اقل طولا والتصقت بالسياج . كان الدرب شبه ميت لا يكاد يتنفس من القيظ الخانق . ان الجو حار ويجب الاستحمام .

توجه الولدان الى نهر ديسنا .

كانت الطريق ضيقة تركت فيها العربات آثارا عميقة ، وتعرجت بين الحقول التى اتخذ الزرع فيها اشكالا مربعة خضراء اللون تميل الى الاصفرار ، تهبط الوهاد وتصعد الروابى لتصبح بعد ذلك مستديرة وكأنها تتحرك فى خط منحن منتظم حاملة معها الاحراج المتفرقة والعنابر المبعثرة والسحب الساكنة .

كانت سنابل القمح تنتصب عالية ساكنة ، وكان الولدان يقتطعان السنابل ويمضغان الحب ويبصقان بقوة القشور العالقة فى افواههما . وكان شىء يخشخش بين سنابل القمح وتتطاير الطيور المذعورة من بين الاقدام .

ها هو النهر . خلع الصديقان ثيابهما على الشاطئ الرملي ووثبا في الماء مثيرين نوافير من الرذاذ . لقد سبحا وغاصا وتعاركا وقفزا من الجسر الخشبي المقلقل وبعد ذلك زحفا الى الشاطئ ودفنا انفسهم في الرمال الساخنة .

سأل غينكا :

— هل يوجد انهار في موسكو ؟

— نعم يوجد . انه نهر موسكو . وقد قلت لك ذلك الف مرة .

— وهل يجرى هكذا في المدينة ؟ وكيف يستحمون فيه اذن ؟

— ان الامر بسيط جدا ، في سراويل قصيرة . لا يسمحون لك بالاقتراب منه الى اقل من كيلومتر بدون سروال . يوجد فرسان ميليشيا خاصون من اجل مراقبة ذلك .

ابتسم غينكا بارتياب فغضب ميشا وقال :

— لماذا تبتسم ؟ انك لا تعرف الا بلدتك ريفسك ، لم تر شيئا وتبتسم !

وسأل وهو يتطلع الى قطيع من الخيول يقترب من النهر :

— من هو اصغر الخيول ؟

اجاب غينكا دون تفكير :

— انه المهر .

— أترى انك لا تعرف ! ان اصغر الخيول هو البوني * . يوجد خيول بوني انكليزية بارتفاع الكلب اما اليابانية فهي بارتفاع القطة كليا .

— انت تكذب !

— انا أكذب ؟ لو انك كنت في السيرك مرة واحدة على الاقل لما تجادلت واياك . ولكنك لم تذهب الى السيرك ، أليس كذلك ؟ قل : ألم تذهب ؟ . . أترى ، وتناقش ايضا !

صمت غينكا ثم قال :

---

* فرس صغير الحجم . **(المترجم)** .

– لا نفع من فرس كهذه لا فى سلاح الفرسان ولا فى اى مكان آخر . . .

– وما شأن سلاح الفرسان ها هنا ؟ أتظن ان القتال لا يجرى الا على ظهور الخيل ؟ اذا اردت ان تعرف فان احد البحارة يستطيع ان يطرح ثلاثة فرسان ارضا .

فقال غينكا :

– انى لا اقول شيئا عن البحارة ، اما بدون الفرسان فلا يمكن عمل اى شيء . هاك عصابة نيكيتسكى ، كلهم على الخيول .

فلوى ميشا شفتيه باحتقار قائلا :

– وماذا ؟ «عصابة نيكيتسكى» ! . . قريبا سيقبض بوليفوى على هذا النيكيتسكى .

فاعترض غينكا بقوله :

– ليس الامر بهذه البساطة . فها قد مر عام والكل يبحثون عنه دون ان يتمكنوا من الامساك به .

– سيمسكون به !

– الكلام سهل بالنسبة لك ، اما هو فيعد الكوارث . ان ابى يخاف قيادة القطارات الآن .

– لا تقلق ، سيمسكون به .

تثاءب ميشا ودفن نفسه فى الرمال اكثر وغفا . وفعل غينكا نفس الشيء ، فقد انتابهما الكسل من الجدال لان الجو كان حارا .

كانت الشمس تلفح السهل الذى كان يمتد بتراخ حتى الافق وكأنما ينقذ نفسه منها .

الفصل الثالث

قضايا واحلام

ذهب غينكا الى البيت ليتناول طعام الغداء اما ميشـــا فقد تسكع طويلا فى السوق الاوكرانية الصاخبة .

كانت العربات مثقلة باحمال الخيار الاخضر وحبات البندورة الحمراء وتكومت عليها سلال التوت والفريز والكرز . كانت صغار

الخنازير الوردية اللون تصرخ والاوز يصفق باجنحته البيضاء ، والثيران الكسولة تلوك مضغتها التي لا تنتهي ويسيل من افواهها لعاب لزج طويل يصل حتى الارض . سار ميشا في السوق وتذكر خبز موسكو الحامض والحليب «المسحوب خيره» المقايض بقشر البطاطا. اشتاق ميشا الى موسكو والى حافلات ترامها واضوائها الباهتة في المساء .

توقف امام رجل كسيح خلف طاولة عليها ثلاث كرات ، واحدة حمراء واخرى بيضاء والثالثة سوداء . كان يغطي احدى هذه الكرات بكشتبان ، والرابح هو من يحزر لون الكرة الموجودة تحت الكشتبان . لكن احدا من الحاضرين لم يحزر فقال الرجل الكسيح مبررا للذين استغفلهم :

– اذا خسرت مع كل واحد منكم فاني ساخسر قدمي الوحيدة الباقية . يجب ان تفهموا .

كان ميشا يتطلع الى الكرات عندما احس فجأة بيد توضع على كتفه . التفت فرأى وراءه الجدة .

سألت ميشا بصرامة دون ان تترك يدها المتشبثة بكتفه :

– اين كنت غائبا طول النهار ؟

فتمتم ميشا :

– لقد كنت استحم .

– «كنت تستحم» ! كان يستحم . . . حسنا ، سوف نتكلم معك في البيت .

حمّلته سلة فيها المشتريات وغادرا السوق .

كانت الجدة تسير صامتة ، تتصاعد منها روائح البصل والثوم واشياء مقلية واشياء مطبوخة كالروائح التي تتصاعد من المطبخ .

كان ميشا يسير الى جانب الجدة ويفكر : «ماذا سيفعلون معي ؟» لقد كان في وضع سيئ طبعا . ان الجدة والعم سينيا ضده ، اما الجد وبوليفوي فهما الى جانبه . واذا لم يكن بوليفوي موجودا في البيت ؟ سيبقى الجد فقط . واذا كان الجد نائما ؟ هذا يعني انه لم يبق احد . وعندئذ ستقوم الجدة والعم سينيا بتوبيخه

كل بدوره . سيوبخه العم سينيا بينما الجدة تستريح . وبعد ذلك توبخه الجدة ويستريح العم سينيا .

لن يتركا شيئاً دون ان يتكلما عنه ! سيقولان انه قليل الادب ولن ينتج عنه شيء صالح وانه عار على العائلة وانه سبب تعاسة امه التي اذا لم يُود بها الى القبر حتى الآن فلا بد من انه سيفعل ذلك في الايام القريبة القادمة . (تعيش امه في موسكو ولم يرها منذ شهرين) . ومن العجيب ان الارض نفسها تتحمله ... وما شابه ذلك ...

عندما وصلا الى البيت وضع ميشا السلة في المطبخ ثم ذهب الى غرفة الطعام . كان الجد جالسا امام النافذة اما العم سينيا فقد كان مستلقيا على الاريكة يدخن سيجارة ويناقش في السياسة حتى انهما لم يلقيا نظرة على ميشا . لقد تعمدا ذلك ! وربما يعتبران انه انسان حقير الى درجة لا يستحق فيها ان ينظر اليه . ان ذلك بقصد تعذيبه . فليكن ذلك . وحتى يستعد العم سينيا ربما سيأتي بوليفوي . جلس ميشا على الكرسي يستمع الى حديثهما .

الامر مفهوم ! ان العم سينيا يقيم القيامة . احتلت عصابات ماخنو المعادية للثورة عددا من المدن ووصلت عصابات انطونوف الى تامبوف ... ليس هناك ما يثير القلق ! فلقد احتل البولونيون كييف في العام الماضي . واخترق فرانغيل متوجها نحو الدونباس ... وماذا حصل ؟ لقد سحقهما الجيش الاحمر سحقا . ومن قبلهم كان دينيكين وكولتشاك ويودينيتش وغيرهم من الجنرالات البيض . لقد حطمهم الجيش الاحمر وسيحطم هؤلاء ايضا .

انتقل العم سينيا من ماخنو وانطونوف الى نيكيتسكي ، وفتح ياقة السترة الطلابية وقال :

— لا يجب وصفه بقاطع الطريق . وبالاضافة الى ذلك يقال انه شخص مثقف كان ضابطا في الاسطول فيما مضى . انها حرب انصار ، وهي شرعية بشكل متعادل بالنسبة للطرفين .

نيكيتسكي ليس بقاطع طريق ؟ لقد كاد ميشا ان يختنق من الاستياء . انه يحرق القرى ويقتل الشيوعيين والكومسموليين والعمال ، وهو ليس بقاطع طريق ؟ ان ما يثرثر به العم سينيا شيء مسئم !

اخيرا جاء بوليفوى . لقد انتهى كل شيء الآن ، ولن يمكنهم تسوية الامر مع ميشا قبل الغد .

خلع بوليفوى سترته واغتسل ، ثم جلس الجميع لتناول طعام العشاء . قهقه بوليفوى كثيرا ودعا الجد بالاب والجدة بالام وغمز ميشا مداعبا . خرج بعد ذلك من البيت وجلس على درج المدخل .

هبط المساء المنعش وترامت من بعيد مقاطع من اغنيات الصبايا ، ومن مكان ما من البساتين كانت الكلاب تعوى دون كلل .

كان بوليفوى يدخن سيجارة «لف» من التبغ الثقيل ويتحدث عن الرحلات البحرية البعيدة وتمردات البحارة ، عن الطرادات والغواصات ، عن ايفان بودوبنى وغيره من مشاهير المصارعين الاشداء ذوى الاقنعة السوداء والحمراء والخضراء الذين كان واحدهم يرفع ثلاث عربات يجرها حصان وفى كل منها عشرة اشخاص .

كان ميشا صامتا مذهولا . بدأت صفوف صغار البيوت الخشبية السوداء تتألق خجلى بانوار مائلة الى الحمرة وتلتصق خائفة بالدرب الصامت .

تحدث بوليفوى كذلك عن البارجة «الامبراطورة ماريا» التى كان يخدم فيها اثناء الحرب العالمية .

لقد كانت سفينة ضخمة وهى اقوى دارعات اسطول البحر الاسود . وقد انزلت الى الماء فى شهر حزيران عام ١٩١٥ وفى شهر تشرين الاول من العام التالى انفجرت فى حوض ميناء سيباستوبول على بعد نصف ميل من الشاطىء .

قال بوليفوى :

— انها قصة غامصة . لم تنفجر بسبب لغم او طوربيد بل بنفسها .لقد انفجر اولا مخزن البارود فى البرج الاول حيث يوجد حوالى خمسين طنا من البارود . وبعد ذلك هات يا انفجارات ... وخلال ساعة كانت السفينة تحت الماء . وقد نجا اقل من نصف طاقم البحارة ، وحتى هؤلاء لم يسلموا من التشوه والحروق .

سأل ميشا :

— ولكن من فجرها ؟

هز بوليفوى كتفيه العريضتين واجاب :

– لقد بحث الكثيرون فى هذه القضية ولكن احدا لم يخرج بنتيجة ، وفى ذلك الحين وقعت الثورة . . . ان الاجابة تجدها لدى الاميرالات القيصريين .

– سيرغى ايفانوفيتش ، قل من فضلك ايهما اهم : القيصر ام الملك ؟

بصق بوليفوى لعابا بنى اللون بسبب التبغ وقال :

– ليس احدهما بأحسن من الآخر .

– وهل هناك قياصرة فى بلاد اخرى ؟

– يوجد فى مكان ما .

وفكر ميشا : «هل أسأله عن المدية ؟ كلا ، لا يجب ذلك . فسيظن اننى كنت اتتبعه متعمدا . . .»

ذهب الجميع بعد ذلك للنوم . وطافت الجدة كل انحاء البيت واغلقت درف النوافذ . وصلّت المزاليج الحديدية محذرة . واطفئ مصباح الكاز المعلق فى غرفة الطعام ، اما الفراشات والبعوض غير المرئى الذى كان يدور حوله فقد تخبط فى الظلام .

لم يطرق النوم عينى ميشا مدة طويلة . . .

حل القمر خيوطه الباهتة فى شقوق درف النوافذ ، وبدأ الصرصور الغناء فى المطبخ وراء الموقد .

لم يكن لديهم صرصور فى موسكو . فماذا يمكن له ان يفعل فى شقة كبيرة صاخبة تعج بالناس ليلا وتصفق فيها الابواب وتطقطق المفاتيح الكهربائية ! لذلك سمع ميشا الصرصور فى بيت جده الهادئ فقط ، عندما كان يستلقى للنوم وحيدا فى غرفة مظلمة ويحلم .

حبذا لو ان بوليفوى يهديه المدية ! لن يكون وقتذاك دون سلاح كما هو الآن . فالاحوال مضطربة بسبب الحرب الاهلية . ان العصابات تتجول فى المدن والقرى والرصاص يلعلع فى كل مكان ، وتسير دوريات الدفاع الذاتى المحلى ليلا فى الطرق ببنادق عتيقة علا مغاليقها الصدأ وخلت من الخراطيش .

كان حلم ميشا يدور حول المستقبل ، عندما يصبح طويل القامة قويا سيرتدى بنطالا عريضا من الاسفل وحتى احسن كما سيرتدى لفافات ساق فاخرة ، لفافات ساق عسكرية خاكية اللون .

ان لديه بندقيـــة وقنابل يدوية واشرطة رشاش ومسدس ناغان فى حمالة من الجلد يطقطق من الجدة . ولديه كذلك حصان ادهم تفوح منه رائحة عبقة دقيق القوائم حاد البصر قوى الكفل قصير العنق املس الشعر . وسوف يقبض ميشا على نيكيتسكى ويشتت كل عصابته .

وبعد ذلك سيذهب مع بوليفوى الى الجبهة ويقاتلان معـا ، وسيقـوم بعمل بطولى وهو ينقذ بوليفوى ثـــم يُقتل . سيصبح بوليفوى وحيدا وسيحزن على ميشا كل حياته ، ولكنه لن يلتقى ابدا بولد مثله . . .

ثم اختلطت عليه افكاره كما تختلط اوراق اللعب وتاهت فى الظلام ...

واستغرق ميشا فى النوم .

الفصل الرابع

العقاب

اقترح العم سينيا هذه العقوبة طبعـــا ، ومما يسيئ اكثر هو ان الجد كان على اتفاق معه .

نظر الجد الى ميشا اثناء الافطار وقال :

— هل تعبت كثيرا البارحة ؟ حسنا . يكفى الآن لمدة اسبوع . سيتوجب عليك اليوم ملازمة البيت .

ملازمة البيت طول النهار ! اليوم ! الاحد ! سيذهب الاولاد الى الغابة ، ولربما يذهبون فى الزورق الى الجزيرة ، اما هو ... لوى ميشا شفتيه واخفى وجهه فى الصحن .

قالت الجدة :

— بدأ ينفّخ كالثور ، لقد تعلم المشاكسة ...

قاطعها الجد وهو ينهض عن المائدة :

— كفى . لقد نال ما يستحقه وكفى .

تسكع ميشا فى غرف البيت وهو مكتئب . لكم هو مضجر هذا البيت .

زخرفت جدران غرفة الطعام رسوم بدهان زيتى تغبش وتشقق فى بعض الاماكن على مر الزمن . كانت الرسوم عبارة عن بحر ازرق منتفخ وفوقه طائر نورس ابيض كبير ووعول ذات قرون كثيرة التشعب تسير بين اشجار صنوبر تنتصب كالعصى وطيور مالك الحزين بقدم واحدة ؛ صيادون ملتحون يرتدون جزمات المستنقعات وعلى اكتافهم البنادق وتلتف حول وسطهم احزمة الخراطيش ويزين الريش قبعاتهم وكلاب ذكية تشم الارض .

وعلقت فوق الاريكة صورة الجد والجدة اثناء شبابهما . كان للجد شارب كث وذقن حليقة تستند الى قبة منشاة منحنية الطرفين، اما الجدة فقد كانت فى رداء اسود مغلق وحول رقبتها سلسلة طويلة تنتهى بقلادة وتصل تسريحتها العالية حتى اطار الصورة نفسه .

خرج ميشا الى الحوش . كان اثنان من الحطابين ينشران الحطب هناك . كان المنشار يئز بمرح : دزين-دزين ، دزين-دزين . وبسرعة تغطت الارض حول «الجحش الخشبى» بطبقة من النشارة الصفراء .

جلس ميشا على الجذع قرب بيت الكلاب وراح يتطلع الى الحطابين . كان يبدو على الاكبر انه فى الاربعين من العمر ، متوسط القامة يلتصق شعره الاجعد الفاحم على جبينه الذى يتصبب منه العرق . اما الثانى فقد كان شابا اشقر ذا وجه ملىء بالنمش وحاجبين حائلى اللون وهو على شىء من الرخاوة وعدم اللباقة .

مد ميشا يده تحت بيت الكلاب محاولا ألا يلفت انتباههما وتحسس الصرة . هل يسحبها ؟ نظر بطرف عينه الى الحطابين اللذين كانا قد توقفا عن العمل وجلسا على كومة الاخشاب . صنع الاكبر سنا قمعا من الورق بلفه بمهارة على اصبعه ووضع فيه تبغا وبدأ يدخن . اما الشاب فقد غفا ثم فتح عينيه وقال وهو يتثاءب :

– لكم ارغب بالنوم !

فاجابه الاكبر سنا :

– عندما يرغب المرء بالنوم فانه ينام حتى على المسامير .

صمت الحطابان وحل الهدوء فى الحوش الا من صوت الدجاجات التى تشرب الماء منقرة فى معلف خشبى رافعة رؤوسها الصغيرة ذات العرف الاحمر بشكل مضحك .

نهض الحطابان وبدآ بفلع الحطب . سحب ميشا الصرة خلسة وفتحها . بينما كان يتفحص نصل المدية رأى على احد وجوهه صورة ذئب لا تكاد تُرى ، وعلى الوجه الثانى عقرب وعلى الثالث – زنبقة

ذئب ، عقرب ، زنبقة . . .

ما يعنى هذا ؟

وفجأة وقعت قطعة من الخشب الى جانب ميشا فضم المديـة الى صدره برعب وخبأها بيده .

قال ذو الشعر الفاحم :

– ابتعد من هنا ايها الطفل والا ستصاب باذى .

اجاب ميشا :

– لا يوجد اطفال هنا !

قال ذو الشعر الفاحم :

– انك تحسن التملص ! من انت ؟ هل انت ابن المفوض ؟

– اى مفوض ؟

– بوليفوى .

– كلا . انه يسكن عندنا .

انزل ذو الشعر الفاحم الفأس وقال :

– هل هو فى البيت الآن ؟

– كلا . انه يأتى وقت الغداء عادة . هل انت محتاج اليه ؟

– كلا . اننا هكذا . . .

انهى الحطابان عملهمـا ، فجلبت لهما الجدة صحنا فيـه خبز وشحم وفودكا . شرب الشاب الاشقر بصمت بينما شرب ذو الشعر الفاحم وهو يقول : «اللهم بارك وزد» . وقد تغضن وجهه بعد ذلك طويلا واشتم الخبز وفى النهاية تنحنح . «كم هى طيبة !» ولأمر مـا غمز ميشا بعينه .

كانا يأكلان ببطء وهما يقطعان الشحم بعناية الى شرائح يقضمانها ويمتصان قشورها . وبعد ذلك شرب كل منهما مغرفة من الماء وذهبا فى حال سبيلهما .

الا ان الجدة لم تذهب ، فقد جلبت طستا نحاسيا كبيرا ذا يد خشبية طويلة ووضعته فوق منصب ثلاثى القوائم ومن تحته نثارة الخشب ثم حوطتها بالقرميد لحمايتها من الريح . ستقوم الآن بطبخ

المربى ولن تغادر الحوش فى الوقت الحاضر . ما العمل فى المدية ؟ نهض ميشا وتوجه نحو البيت والمدية مخبأة فى كمه .

حذرته الجدة بقولها :

– لا تحدث ضجيجا فالجد نائم .

اجاب ميشا :

– سوف أكون هادئا .

دخل القاعة واخفى المدية تحت مسند الاريكة . سيضعها فى مكانها تحت بيت الكلاب حالما تغادر الجدة الحوش او مساء عندما يحل الظلام فى أسوأ الاحوال .

كان الصمت يعم البيت الا من دقات ساعة الحائط الكبيرة وطنين ذبابة على النافذة . بم ينشغل ؟

اقترب ميشا من غرفة العم سينيا فسمع من خلف الباب صوت سعال وخشخشة الورق . فتح ميشا الباب :

– لماذا يحمل البحارة المُدى ايها العم سينيا ؟

كان العم سينيا يقرأ وهو مستلق على سرير ضيق غير مرتب . نظر الى ميشا من فوق النظارة :

– اى بحارة ؟ واية مدى ؟

– كيف «اى» ؟ أليس البحارة فقط يحملون المدى ؟ لماذا ؟

جلس ميشا على الكرسى وهو عازم كل العزم على ألا يغادر مكانه قبل الغداء . فأجابه العم سينيا بصبر نافد :

– لا أعلم . انه النظام . . . أهذا كل ما لديك ؟

كان هذا السؤال يعنى بانه يجب على ميشا الانصراف من الغرفة .

– اسمح لى بالبقاء قليلا . سوف أكون هادئا جدا جدا .

– لا تضايقنى فقط .

قال العم سينيا هذا وعاد الى القراءة من جديد .

كانت غرفة العم سينيا صغيرة ليس فيها الا سريرا وخزانة للكتب وطاولة كتابة عليها محبرة بشكل مسدس : اذا ضغط على الزناد انفتحت المحبرة . حبذا لو ان لديـه محبرة كهذه ! لسوف يغبطه الاولاد فى المدرسة !

علقت على جدران الغرفة لوحات وصور . ها هى صورة نكراسوف . ان شوركا الكبير يلقى دائما اشعار نكراسوف فى

الامسيات المدرسية . يقف على خشبة المسرح ويقول : «لمن الحياة الطيبة فى روسيا ؟» . نظم نكراسوف» ، وكأن احدا بدونه لا يعلم بان ذلك من نظم نكراسوف .

الى جانب صورة نكراسوف علقت لوحة «لم ينتظروه» . محكوم عليه بالاشغال الشاقة يعود الى البيت على غير انتظار . الكل مصعوقون . الابنة تدير رأسها مندهشة ولعلها قد نسيت اباها . ان ابا ميشا لن يعود . لقد هلك وهو ينفذ حكما قيصريا بالاشغال الشاقة . ولا يذكره ميشا اطلاقا .

ان لدى العم سينيا كثيرا من الكتب ! فى الخزانة وعلى ظهرها ، تحت السرير وفوق الطاولة . ولكنه لا يعطى شيئا منها للقراءة ، وكان ميشا لا يحسن استعمال الكتب . ان لديه فى موسكو مكتبته الخاصة ، ومجموعة كتب «عالم المغامرات» وحدها تسوى الكثير !

تابع العم سينيا القراءة دون ان يعير ميشا اى انتباه ، حتى انه لم ينظر الى ميشا عندما خرج هذا من الغرفة .

يا للملل ! لو ان وقت الغداء يحل بسرعة على الاقل او ان ينضج المربى . لعل «قشطة» المربى تكون من نصيبه . واتجه ميشا نحو النافذة . كانت هناك ذبابة خضراء كبيرة ذات اجنحة رمادية تهدأ تارة وهى تزحف على الزجاج وتصطدم به تارة اخرى محدثة طنينا مدويا . ها قد وجد اخيرا ما ينشغل به ! يجب ان يمرن ارادته بالنظر الى الذبابة وارغام نفسه على عدم المساس بها .

تابع ميشا الذبابة بعينيه بعضا من الوقت . لقد طنّت كثيرا ! من المحتمل ان توقظ الجد بهذه الصورة . كلا ! سوف يرغم نفسه على الامساك بالذبابة ، ولكنه لن يقتلها بل سوف يطلقها الى الخارج.

ان الامساك بذبابة على الزجاج لمن ابسط الامور . واحد ! — وها هى قد اصبحت فى قبضته . فتح يده بحذر وسحب الذبابة من جناحيها . كانت تبذل جهودها ساعية فى التخلص . لن تهربى !

فتح ميشا النافذة وبدأ يفكر . من المؤسف اطلاق سراح الذبابة . لقد اصطادها عبثا . والذباب على وجه العموم ينشر الاوبئة . . . كان يفكر فى هل يرغم نفسه على اطلاق الذبابة او بالعكس يرغم نفسه على قتلها ، عندما احس فجأة بان احدا ينظر اليه فرفع رأسه . كان غينكا يقف امامه مبتسما :

– مرحبا ، ميشا !
– اهلا .
– هل اصطدت كثيرا من الذباب ؟
– لقد اصطدت ما اريد اصطياده .
– لماذا لا تخرج ؟
– لا اريد .
– انت تكذب ، انك ممنوع من الخروج .
– انك تعرف كثيرا ! اذا كانت لدى رغبة فسأخرج .
– اذن هيا ، ارغب !
– لا اريد ان ارغب .
ضحك غينكا وقال :
– لا تريد ! قل انك لا تستطيع .
– انا لا استطيع ؟
– لا ، لا تستطيع !
– اذن هكذا ! – صعد ميشا فوق قاعدة النافذة وقفز بعد ذلك الى الخارج فوجد نفسه الى جانب غينكا فقال له : – أترى كيف استطيع ؟

لكن غينكا لم يستطع ان يجيب بشىء لان الجدة اطلت من النافذة وصاحت :
– ميشا ، عد الى البيت حالا !
همس ميشا :
– لنركض !
انطلقا مندفعين فى الدرب واختفيا فى احد الاحواش ثم تسللا الى حديقة غينكا واختبآ فى الخص .

الفصل الخامس

الخص

بين ثلاث شجرات وعلى ارتفاع يتراوح بين المتر والنصف والمترين بُنى خص غينكا من الالواح الخشبية واغصان الشجر واوراقها . واذا نظر المرء اليه من الاسفل فانه لا يراه ، اما من داخله

فترى بلدة ريفسك ومحطة القطار ونهر ديسنا والطريق المؤدية الى قرية نوسوفكا . والهواء فيه منعش عابق برائحة الصنوبر والاوراق ترتجف قليلا تحت اشعة شمس تموز المدبرة .

سأل غينكا :

– كيف ستذهب الآن الى البيت ؟ ستحاسبك الجدة حسابا عسيرا .

صرح ميشا :

– لن اذهب الى البيت ابدا .

– وكيف ذلك ؟

– الامر بسيط جدا . ليس من داع لذهابى . سيذهب بوليفوى غدا لتصفية عصابـــة نيكيتسكى وسيأخذنى معه . يجب تصفية العصابة من كل بد .

قهقه غينكا وقال :

– وما المركز الذى ستشغله فى الفرقة ؟ أستعمل بالكدر . . ؟

اجاب ميشا :

– اضحك ، اضحك . سيأخذنى بوليفوى فى المخابرات ، كما انه طلب منى ان اختار اولادا مناسبين ، ولكن . . . – ونظر بأسف الى غينكا ومضى قائلا : – ليس لدينا من يصلح لذلك .

ثم تنهد ميشا وقال :

– سأضطر الى عمل ذلك وحدى على ما يظهر .

نظر غينكا فى عينى ميشا بتوسل .

فقال ميشا متساهلا :

– حسنا ، اجلب شيئا للاكل وسنفكر بالامر . ولكن حاذر ان تتفوه بكلمة لاحد فذلك سر .

فصاح غينكا :

– اورا ! سنعمل فى المخابرات !

فغضب ميشا وقال :

– ها انت تبدأ بالصراخ واذاعة السر .

– لن اعيد ذلك ، لن اعيد ذلك ! – همس غينكـــا بذلك وانحدر عن الشجرة ثم اختفى فى الحديقة .

تمدد ميشا على ارضية الخص الخشبية ووضع ذقنه بين كفيه

منتظرا عودة غينكا . ما العمل الآن ؟ لا يمكنه ان يقضى الليل فى الشارع . . . وتذكر المدية . قد يعثر احد عليها وستقع حينذاك فضيحة !

كانت الحديقة ترى من خلال الاوراق وفيها اشجار التفاح القصيرة والكمثرى ذات الاغصان الكثيرة وشجيرات توت العليق وعنب الثعلب . لماذا تنمو ثمار مختلفة على اشجار مختلفة مع ان كل هذا ينمو الى جانب بعضه البعض فى ارض واحدة ؟

ظهرت على يد ميشا دعسوقة صلبة الجسم حمراء مستديرة ونقطة سوداء هى الرأس . رفعها ميشا بحذر ووضعها على راحة يده وقال :

– ايتها الدعسوقة طيرى الى السماء اجلبى لنا خبزا وماء

فتحت الدعسوقة جناحيها الصغيرين وطارت .

ارتفع صوت طنين دبور . حط ساكنا على قدم ميشا بعد ان قام ببضع دورات حوله . هل سيلسعه ام لا ؟ اذا لم يتحرك فانه لن يلسعه . كان ميشا مستلقيا دون اى حراك . حبا الدبور بعضا من الوقت على قدم ميشا ثم طار وعاد الى طنينه .

ان عالما خفيا ضخما يعج بالحياة من حوله .

ها هى ذى نملة تجر ورقة شجرة الصنوبر الابرية والى جانبها يتحرك ظلها ذو الزوايا الحادة ، وهناك جرادة تثب على العشب بقدميها المعقوفتين اللتين تبدوان وكأنهما مكسورتان من الوسط ، وعلى الممر فى الحديقة يقفز عصفور بشكل اخرق ، يراقبه بانتباه قط شبه نائم استلقى على درجة التعريشة ، ويحمل النسيم معه رائحة العشب وعبير الورود وشذى اشجار التفاح . تملك ميشا فتور لذيذ وغفا ناسيا كل المنغصات التى لقيها فى يومه .

تسلق غينكا الخص وهو يلهث ، وكان يحمل فى عبه قطعة ساخنة من لحم البقر الذى لم ينضج بعد .

قال هامسا :

– لقد سحبتها مباشرة من القدر الذى يعد فيه الحساء .

فقال ميشا مرتاعا :

– لقد فقدت عقلك ! لقد ابقيت الجميع دون طعام .

فعلق غينكا بحماس وهو يهز برأسه :

– وماذا ! سألتحق بالمخابرات أليس كذلك ؟ فليطبخوا قطعة اخرى من اللحم . . . – وضحك مستهزئا بخيلاء .

كان ميشا يمضغ اللحم بعد ان يقطعه بيديه واسنانه . يا له من لخمة هذا الغينكا ! سيعاقبه ابوه كما يجب . ان اباه الصارم يعمل سائق قطار ، وهو طويل القامة نحيل ذو شارب اشيب . وليس لدى غينكا ام بل زوجة اب .

سأل غينكا :

– هل سمعت بالخبر ؟

– اى خبر ؟

– لا اريد ان اقول لك !

– انت حر . ولكن اى رجل مخابرات سيكون منك ؟ هل ستخفى عنى كل شيء هناك ايضا ؟

عمل التهديد الخفى الذى تحمله كلمات ميشا عمله فى غينكا . وبعد عملية سرقة اللحم لم يبق لديــه الا طريق واحدة هى الالتحاق بالمخابرات ، وهذا يعنى ان عليه ان يطيع .

– كان عندنا فى البيت الآن فلاح من نوسوفكا وقال ان عصابة نيكيتسكى قريبة منا جدا .

سأل ميشا وهو يمضغ اللحم بعنف :

– وماذا ؟

– كيف – وماذا ؟ انهم يستطيعون مهاجمة ريفسك .

قهقه ميشا وقال :

– وهل صدقت ؟ يالك من رجل مخابرات !

فسأل غينكا بارتباك :

– وما الامر اذن ؟

– ان نيكيتسكى بالقرب من تشيرنيغوف فى الوقت الحاضر ، ولا يمكنه ان يهاجمنــا باى شكل من الاشكال لان لدينــا حاميــة ، اتفهم ؟ حامية .

– وما هى الحامية ؟

– ألا تعرف ما هى الحامية ؟ انها . . . كيف يمكن ان أشرحها لك ؟ انها . . .

قاطعه غينكا فجأة وقال همسا :

— صه ، أتسمع ؟

توقف ميشا عن المضغ واصغى السمع . من مكان ما خلف البيوت كانت تلعلع طلقات نارية يضيع صداها فى زرقة السماء . وعوت صفارة المحطة ودوت طلقات رشاش لاهثة سريعة . تجمد الولدان من الرعب ثم ابعدا اوراق الاغصان وأطلا من الخص .

كانت سحب الغبار تغطى طريق نوسوفكا واطلاق النيران يجرى فى المحطة ، وبعد بضع دقائق وبين الصياح وازيز السياط مر فى الدرب الخالى من الناس فرسان مسرعين يرتدون قبعات من جلد الخرفان يعلوها غطاء احمر . لقد اقتحم البيض البلدة .

الفصل السادس

الاغارة

اختبأ ميشا لدى غينكا ، وعندما توقف اطلاق النيران نظر الى الدرب وانطلق راكضا الى البيت وهو يلتصق بالاسيجة . رأى الجد يقف امام المدخل ذاهلا شاحب الوجه ، وبالقرب من البيت تنخر خيول يتصبب منها العرق وعلى ظهورها سروج قوزاقية .

دخل ميشا البيت بسرعة وتوقف متسمرا . كانت رحى معركة رهيبة تدور فى غرفة الطعام بين بوليفوى وبين قطاع الطرق . كان حوالى ستة اشخاص متعلقين ببوليفوى وهو يدافع عن نفسه بضراوة ، الا انهم اوقعوه ، وبدأت كتلة الاجسام البشرية تتدحرج على الارض وهى تقلب الاثاث وتجر وراءها اغطية المائدة والابسطة والستائر المنزوعة . غير ان واحدا من الحرس الابيض ، وهو كبيرهم على ما يبدو ، كان واقفا امام النافذة . كان يقف ساكنا دون حراك ، الا ان عينيه لم تفارقا بوليفوى .

اختبأ ميشا فى كومة الثياب المعلقة على المشجب . كان قلبه يخفق بعنف . سينهض بوليفوى الآن ويضرب الجميع بكتفيه ويشتتهم . ولكن بوليفوى لم ينهض . وضعفت جهوده العنيفة فى دفع قطاع الطرق عنه . واخيرا انهضوه وعقدوا يديه خلف ظهره وجلبوه

الى الرجل الذى يقف امام النافذة . كان يقف حافيا بقميصه الداخلى البحرى يتنفس بصعوبة وقد تجمد الدم فى شعره الاشقر . لقد فاجأوه وهو نائم على ما يظهر . كان قطاع الطرق مسلحين ببنادق قصيرة وبمسدسات ناغان وبالسيوف ؛ وكانت احذيتهم ذات الحدوات تقعقع على الارض .

لم يحول رجل الحرس الابيض عن بوليفوى نظرته التى لم تطرف . كانت ناصية شعره الاسود تتهدل من تحت قبعته الفرائية المائلة الى الخلف . وساد الصمت فى الغرفة ، ولم يعد يسمع الا صوت تنفس الحاضرين الثقيل ودقات الساعة اللامبالية .

وفجأة قال رجل الحرس الابيض بصوت منخفض حاد :

— المدية !

واستدارت عيناه اللتان تحملقان فى بوليفوى وكرر ثانية :

— المدية !

صمت بوليفوى . كان يتنفس بصعوبة ويحرك كتفيه ببطء . تقدم رجل الحرس الابيض منه ورفع السوط ولطم به بوليفوى على وجهه بشدة فارتجف ميشا واغمض عينيه .

صاح رجل الحرس الابيض :

— هل نسيت نيكيتسكى ؟ سوف اذكرك به !

اذن هذا هو نيكيتسكى ! ها هو من يخفى بوليفوى المدية عنه !

وفجأة قال نيكيتسكى بهدوء :

— اسمع يا بوليفوى ! لا يوجد امامك خيار . اعطنى المدية واذهب الى اين تريد ، والا فسأشنقك !

ظل بوليفوى صامتا فقال نيكيتسكى :

— حسنا ، اذن هكذا ؟

اومأ برأسه الى اثنين من رجاله ، فدخل هذان الى غرفة بوليفوى . عرف ميشا فيهما الحطابين اللذين كانا ينشران الحطب فى الحوش . قلب الرجلان كل شيء وألقياه على الارض وحطما باب الخزانة بكعب البندقية ومزقا الوسائد بالخنجر وجرفا الرماد من الفرن وانتزعا خشب الارض . سيذهبان الآن الى غرفة ميشا ... فخرج هذا من المخبأ بعد ان تغلب على ذهوله وتسلل الى القاعة .

تحسس ميشا في الظلام النصل الفولاذي البارد للمدية الموجودة تحت مسند الاريكة بين طيات قماش القطيفة المهترئ . أخرج المدية وخبأها في كمه ممسكا قبضتها في يده بقوة .

كان التفتيش مستمرا وبوليفوى واقفا وهو منحن الى امام ويداه معقودتان خلف ظهره . وفجأة ارتفع صوت حوافر الخيل في الخارج تلاه وقع الاقدام في المدخل . دخل البيت بعد ذلك رجل آخر من الحرس الابيض واقترب من نيكيتسكى وقال له شيئا بصوت خافت .

صمت نيكيتسكى هنيهة ثم رفع السوط وقال :

– هيا الى الخيول !

جروا بوليفوى الى المدخل . تلمس ميشا يد بوليفوى عندما كان يجتاز العتبة وبسط له يده . مست القبضة راحة يد بوليفوى الذى جذب المدية اليه ولوح بيده فجأة واصاب اول الحراس في عنقه ، وفي الوقت نفسه ارتمى ميشا بين قدمى الثانى فوقع هذا فوق ميشا ، اما بوليفوى فقد قفز من المدخل واختفى في ظلام الليل . . .

لم يعرف ميشا هل نجح بوليفوى في الهرب ام لا لان ضربة من قبضة مسدس ناغان وقعت على رأسه .

الفصل السابع

ماما

كان ميشا راقدا في السرير يستمع الى الاصوات البعيدة التى تأتى من الخارج وتصل اليه عبر ستائر تهتز قليلا .

اناس يسيرون ويسمع صوت وقع خطواتهم على الرصيف الخشبى واحاديثهم الرنانة باللغة الاوكرانية . . . صرير دواليب عربة للنقل . . . ولد يلعب «بالدرّيجة» دافعا بها بالعصا ، و«الدريجة» تسير دون صوت الا في نقطة اتصالها بالعصا . . .

كان ميشا يسمع كل هذا فيما يشبه الضباب ، وتختلط كل هذه الاصوات باحلام قصيرة متقطعة تُنسى بسرعة . بوليفوى . . .

رجال الحرس الابيض ... ظلام الليل الذى لف بوليفوى ... نيكيتسكى ... المدية ... الدماء على وجه بوليفوى وعلى وجهه ، اى وجه ميشا ... دماء حارة لزجة ...

وقد قص عليه جده كيف حدث الامر ، حيث قامت فرقة رجال السكك الحديدية بمحاصرة البلدة ولم ينجح كل قطاع الطرق فى الهرب على خيولهم السريعة ولكن نيكيتسكى استطاع الافلات . اما بوليفوى فقد جُرح اثناء تبادل النيران ، وهو يرقد الآن فى مستشفى محطة القطار .

ربت الجد على رأس ميشا وقال :

– اى بطل انت !

والواقع اى بطل هو ؟ فلو انه مثلا قضى على جميع قطاع الطرق وأسر نيكيتسكى لكان هذا شيئا آخر .

ان من الطرافة معرفة كيف سيلقاه بوليفوى . لعله سيربت على كتفه ويقول باحترام : «كيف الحال يا ميخائيل غريغورييفيتش ؟» او ربما يهديه مسدسا بحمالة ويسيران فى الطريق معا مسلحين مضمدين كجنديين حقيقيين . فليرى الاولاد ذلك !

دخلت ماما الغرفة ، وكانت قد أتت من موسكو على اثر برقية ارسلت لها . اصلحت الفراش ورفعت الصحن والخبز ومسحت الفتات عن المائدة .

سألها ميشا :

– ماما ، هل ما زالت تعمل صالة السينما فى البناية التى نقطن فيها ؟

– انها تعمل .

– اى فيلم تعرض ؟

– لا اذكر . أرقد هادئا .

– انى أرقد هادئا . هل أُصلح الجرس لدينا ؟

– نعم أُصلح .

– من رأيت من الاولاد ؟ هل رأيت سلافكا ؟

– رأيته .

– وشوركا الكبير ؟

– رأيته ، رأيته ... اسكت أرجوك !

للأسف انه سيذهب الى موسكو دون ضمادات ! كان الاولاد سيغبطونه كثيرا ! واذا لم ينزع الضمادات ؟ يذهب مضمدا هكذا ! يا للروعة ! انه لن يضطر للاغتسال . . .

– ماما ، كم من الوقت سأبقى هنا ؟

– حتى تشفى .

– اشعر بان حالتى قد تحسنت تماما . اسمحى لى بالخروج .

– لا يمكن .

فكر ميشا بكآبة : «انها لا ترأف بى . ارقد هنا ! سأحمل حالى وأهرب» . وتخيل فى نفسه كيف ستدخل ماما الغرفة ولكنه لن يكون فيها . ستبكى وتكترب ولكن شيئا من ذلك لن يفيد ، فلن تراه بعد ذلك ابدا .

نظر الى امه بطرف عينه . كانت تخيط ورأسها محنى وتقطع الخيط باسنانها بين فينة واخرى .

سيكون من الصعب عليها ان تعيش بدونه ! ستبقى وحيدة تماما . ستأتى من العمل الى البيت ، ولكن احدا لن يكون فيه . ستكون الغرفة خالية مظلمة . ستجلس كل المساء ولا هم لها الا التفكير بميشا . انها تستحق الرثاء على كل حال . . .

انها شديدة النحف والصمت بعينيها الرماديتين المشعتين ودؤوبة لا تعرف الكلل ابدا . تأتى من المصنع الى البيت فى وقت متأخر . تعد الطعام وترتب الغرفة وتغسل قمصان ميشا وترفو الجوارب وتساعده على تحضير دروسه ، اما هو فيتكاسل عن تكسير الحطب والوقوف فى الطابور من اجل الخبز وتسخين الطعام .

امى الحبيبة ، الرائعة ! كم من مرة كدّرها ولم يطعها وسلك سلوكا سيئا فى المدرسة ! لقد دعيت الى هناك وتوسلت الى المدير ان يسامح ميشا . كم من الاشياء أتلف وكم من الكتب مزق وكم من الملابس قطّع ! لقد كانت ترفو وتخيط بطول أناة ، اما هو فقد كان يخجل من السير معها فى الشارع «كأنه طفل» . انه لم يقبّلها ابدا لان ذلك «عاطفية مفرطة» . وها هو اليوم يبتكر ما يسبب لها الحزن ، اما هى فقد تركت كل شيء وتنقلت من قطار الى آخر طوال اسبوع كامل وجلبت له الحوائج ولا تغادر الآن سريره .

اغلق ميشا عينيه واصبحت الغرفة تسبح فى ظلام دامس تقريبا

الا زاوية صغيرة تجلس فيها ماما أنيرت بضوء النهار الذهبى المولّى . كانت ماما تخيط محنية الرأس وتغنى بصوت منخفض :

للخائنين الظالمين ضمائر ظلماء
واشد من هذا ظلاما محبس
مثل الليلة المدجان
نزلت عليه مزالج السجان

وبعدها كلمة «انتبـ . . ـه» الطويلة الحزينة تئن فى الصمت . يغنى هذه الاغنية سجين شاب ذو وجه جميل يمسك بيديـه قضبان السجن الحديدية وينظر الى العالم المشرق الصعب المنال . كانت ماما تغنى وتغنى . فتح ميشا عينيـه . انـه يرى الآن وجهها الشاحب بابهام فى الظلام . وتحل الاغانى واحدة محل اخرى وكلها حزينة كئيبة .

انفجر ميشا بالبكاء فجأة . وعندما انحنت ماما عليه تقـول له : «ميشا ، حبيبى ، ماذا بك ؟» – احاط عنقها بيديه وجذبها نحوه ثم دفن رأسه فى بلوزتها ذات الرائحة المعهودة لديه وهمس :

– ماما ، ايتها العزيزة ، انى احبك كثيرا كثيرا ! . .

الفصل الثامن

الزوار

تحسنت صحة ميشا وأزيل عنه جزء من الضمادات ، ولم يبق الا ربطة بيضاء على رأسه . وقد استطـاع لفترة قصيرة النهوض والجلوس على السرير ، واخيرا سمحوا لصديقه الحميم غينكا بالدخول لعنده . توقف غينكا عند الباب بوجل ، اما ميشا فلم يدر رأسه بل نظر اليه بطرف عينه وقال بصوت ضعيف :

– اجلس .

جلس غينكا بحذر على طرف المقعد فاتحا فمه شاخصا بعينيه محاولا دون جدوى اخفاء قدميه القذرتين تحت المقعد وحملق بميشا .

كان ميشا مستلقيا على ظهره وقد وجّه عينيه الى السقف . كان وجهه يعبر عن الالم ، وكان يتحسس بيده الرباط على رأسه بين حين وآخر لا لان رأسه يؤلمه بل لكى يلفت انتباه غينكا الى ضماده .

استجمع غينكا شجاعته فى آخر الامر وسأل :

– هل حالتك سيئة ؟

– انها حسنة . – اجاب ميشا بذلك بصوت منخفض ، غير ان التنهيدة العميقة التى ارسلها اظهرت ان حالته سيئة جدا فى الواقع الا انه يتحمل الآلام الفظيعة ببطولة .

ثم سأل غينكا :

– هل ستذهب الى موسكو ؟

تنهد ميشا مرة اخرى وقال :

– نعم .

– يقال انك ستذهب فى قطار بوليفوى .

فنهض ميشا وجلس فى السرير وقال :

– صحيح ؟ ومن اين علمت ذلك ؟

– لقد سمعت .

صمت الاثنان ، ثم نظر ميشا الى غينكا :

– وماذا قررت انت ؟

– ماذا ؟

– هل ستذهب الى موسكو ؟

هز غينكا رأسه نفيا وقال :

– انت تعرف ان الوالد لا يسمح لى .

– ولكن كم مرة دعتك عمتك اغريبينا تيخونوفنا بقولها : «هيا بنا ، ستعيش معنا فى بيت واحد» .

تنهد غينكا واجاب :

– اقول لك ان الوالد لا يسمح لى . وخالتى نيورا كذلك . . .

– ان الخالة نيورا ليست قريبتك .

هز غينكا رأسه وقال :

– ولكنها امرأة طيبة .

– ان اغريبينا تيخونوفنا احسن منها .

– وكيف أذهب ؟

– الامر بسيط جدا : فى صندوق تحت العربة . تختبئ فيه وعندما نبتعد عن ريفسك تخرج وتتابع السفر معنا .
– واذا كان الوالد سيسوق القطار ؟
– تخرج فى باخماتش عندما يغيرون القاطرة .
– وماذا سأفعل فى موسكو ؟
– افعل ما شئت ! اذا شئت تعلم واذا شئت اشتغل خراطا فى المصنع .
– كيف ذلك ، خراط ؟ ليس لى اية دراية بذلك .
– ستتعلم . فكر بالامر . انى أكلمك جديا .
– لقد تكلمت جديا كذلك بشأن رجال المخابرات ، اما من اجل قطعة اللحم فقد عوقبت بشكل لم انسه فيه حتى الآن .
– أهل انا المذنب فى ان نيكيتسكى أغار على ريفسك ؟ ولولا ذلك لالتحقنا من كل بد بالمخابرات . عندما نصل موسكو سنتطوع ونذهب الى الجبهة لقتل البيض . أتذهب ؟
– الى اين ؟
– الى موسكو اولا ثم الى الجبهة لقتل البيض .
اجاب غينكا متملصا :
– اذا كان الامر لقتل البيض فربما كان ذلك ممكنا .
انصرف غينكا وبقى ميشا وحيدا يفكر فى بوليفوى . لماذا لا يأتى ؟ ما هو الشيء الغريب فى هذه المدية ؟ أفعى من البرونز على القبضة ، ذئب وعقرب وزهرة زنبق على النصل . ما معنى ذلك ؟
قطع عليه حبل تأملاته العم سينيا الذى دخل الغرفة وخلع نظارته . ان عينيه صغيرتان حمراوان بدون نظارات ، تبدوان وكأنهما مذعورتان . اعاد وضع النظارة على انفه وسأل :
– كيف صحتك يا ميخائيل ؟
– حسنة ، أستطيع النهوض الآن .
وحاول ميشا النهوض الا ان العم سينيا قال له قلقا :
– كلا ، كلا ، استلق ارجوك ! استلق ارجوك !
توقف هنيهة ثم سار فى الغرفة وعاد وتوقف ثانية :
– ميخائيل ، اود ان اتحدث معك .
وفكر ميشا : «ألا يكون ذلك عن اطار الدراجة ؟»

– آمل انك كانسان راشد بما فيه الكفاية ... ام ... اقول ... انك تستطيع فهمى وتستخلص من كلامى نتائج ذات فائدة .

«ها قد بدأ !»

وتابع العم سينيا :

– وهكذا فانى اعتبر الحادث الاخير الذى لقيت فيه هذا المقدار من الآثار المحزنة ليس كلعب اولاد صغار بل ك... التحاق سابق لاوانه فى المعركة السياسية .

حملق ميشا فى العم سينيا ذاهلا :

– ماذا ؟

– امام عينيك يجرى فصل من معركة سياسية وقد اشتركت فيه وما زلت يافعا لم تكتمل بعد ، وعبثا تفعل ذلك .

قال ميشا مبهوتا :

– كيف ؟! أيجب علىّ السكوت بينما يريد قطاع الطرق قتل بوليفوى ؟ هكذا فى رأيك ؟

– يجب عليك طبعا كرجل شريف ان تدافع عن كل من هو بحاجة الى ذلك ، ولكن هذا فقط فى حالة ما اذا هاجم اللصوص بوليفوى مثلا وهو فى الطريق . اما فى حالتنا هذه فلا يوجد شىء من ذلك . ان نضالا يجرى بين الحمر والبيض وما زلت انت صغيرا جدا حتى تتدخل فى السياسة . ان ما عليك ان تفعله هو ان تقف الى جانب .

احتد ميشا وقال :

– الى جانب ؟! ولكننى الى جانب الحمر .

– انى لا اقوم بالدعاية لا للحمر ولا للبيض . غير انى اعتبر ان من واجبى تحذيرك من المشاركة فى السياسة .

استلقى ميشا على ظهره وجذب الغطاء فوقه حتى وصل الى ذقنه وقال :

– اذن فليحكم البرجوازيون فى رأيك ؟ كلا ، قل ما تريد ايها العم سينيا الا اننى لا أوافق على هذا .

غضب العم سينيا وقال :

– ان احدا لا يطلب موافقتك ، استمع فقط الى ما يقوله من هم اكبر منك !

– وها انا افعل ذلك . ان بوليفوى اكبر منى سنا ، لقد كان ابى اكبر منى كذلك ، ولينين هو الآخر اكبر منى . انهم جميعا ضد البرجوازيين ، وانا كذلك .

– ان الحديث معك مستحيل !–قال العم سينيا ذلك وخرج من الغرفة .

الفصل التاسع

البارجة «الامبراطورة ماريا»

ازداد الوضع فى بلدة ريفسك اضطرابا ولذلك اسرعت مامـــا بالرحيل .

وقد اصبح ميشا يستطيع النهوض الا انهم لم يسمحوا لــه بعد بالخروج . وقد سمحوا له بالجلوس امام النافذة فقط ومشاهدة الاولاد وهم يلعبون .

وقف الجميع منه موقف الاحترام ، وحتى من درب اوغورودنى جاء بيتكا بيتوخ واهدى ميشا عصا حفر عليها لوالب ومعينـــات ومربعات وقال له عند الوداع :

– أرجوك يا ميشا ان تسير فى دربنا ما طاب لك . لا تخف ، فنحن لن نمسك بأذى .

اما بوليفوى فلم يأت . لكم كان حسنا الجلوس معه عنــد المدخل والاستماع الى قصصه العجيبة عن البحار والمحيطات والعالم الواسع المتحرك . . . لعل من الافضل ان يذهب هو بنفســه الى مستشفاه . سيسمح له الطبيب اذا سأله ذلك . . .

غير ان ميشا لم يضطر للذهاب الى المستشفى لان بوليفوى جاء بنفسه . وقد سمع صوته المرح من بعيد وهو ما زال فى الطريق بعد ، فتوقف قلب ميشا عن الخفقان . دخل بوليفوى وهو مرتــد لباسا عسكريا وجزمة ، دخل وجلب معه اشعة شمس الطريـــق المنعشة ورائحة الصيف الازرق . جلس بوليفوى بجانب سرير ميشا على مقعد أنّ تحت ثقله .

أخذ الاثنان ، بوليفوى وميشا ، ينظران الى بعضهما البعض وابتسما . وبعد ذلك امرّ بوليفوى بيده على الغطاء بلطف وضيق عينيه بمرح وسأل :

– هل ستخرج قريبا ؟

– سأخرج غدا .

– هذا حسن .

صمت بوليفوى فترة ثم انفجر ضاحكا وقال :

– لقد اوقعت الثانى بمهارة ! ممتاز ! شاطر ! انى مديـن لك . سأعود من الجبهة واصفى حسابى معك .

قال ميشا بصوت مرتعش :

– من الجبهة ؟ خذنى معك يا عمى سيريوجا . ارجوك جدا ، من فضلك .

قطب بوليفوى حاجبيه وكأنه يفكر فى رجاء ميشا ثم قال :

– حسنا ، يمكن ذلك . . . ستذهب فى قطارى حتى باخماتش ومن هناك ارسلك الى موسكو ، فهمت ؟

قال ميشا وهو يمط كلامه بخيبة أمل :

– حتى باخماتش ؟ انك فقط «بتشوقنى وما بتدوقنى» .

فربت بوليفوى على يده وقال :

– لا تزعل ، لسوف تحارب كثيرا ، ان الوقت امامك . الافضل ان تقول لى كيف وقعت المدية فى يدك ؟

احمر وجه ميشا ، فضحك بوليفوى وقال :

– لا تخف وقل لى !

– لقد رأيتها صدفة ، بشرفى . أخرجتها لكى اتفرج عليهـا وهنا ظهرت الجدة ! لقد أخفيتها فى الاريكة ولم أستطع ان أعيدهـا الى مكانها .

– ألم تحدث احدا عن المدية ؟

– كلا ، اقسم بالله .

فطمأنه بوليفوى قائلا :

– أصدقك ، أصدقك .

تشجع ميشا فسأله :

– قل لى يا عمى سيريوجا لماذا يبحث نيكيتسكى عن هـــذه المدية ؟

كان بوليفوى يجلس مقوس الظهر بطريقة غريبـــة ينظر الى الارض . ثم تنهد تنهدة عميقة وسأل :

– هل تذكر انى حدثتك عن البارجة «الامبراطورة ماريا» ؟

– نعم أذكر .

– اذن هاك . لقد كان نيكيتسكى ضابط صف هناك . كان نذلا حقيقيا ، الا انه ليس لهذا دخل فى القضية . فقبل الانفجـــار بدقائق ثلاث تقريبا اطلق الرصاص على احد الضباط وقتله ، وكنت الوحيد الذى رأى ذلك لا غير . كان هذا الضابط قد جاء حديثـــا حتى انى لا أعرف اسم عائلته ، وكنت فى ذلك الحين قرب قمرتـــه بالضبط . كنت اسمع جدالهما . كان نيكيتسكى يدعو ذلك الضابط بفلاديمير . . . وفجأة – طاخ – طلقة نارية ! . . دخلت القمرة . كان الضابط ملقيا على الارض اما نيكيتسكى فقد كان يسحب نفس هذه المدية من حقيبة . رآنى فأطلق النار ... الا انه أخطأنى . امســك بالمدية . اشتبكنا مع بعضنا . وفجأة – بُم ! – انفجار وتلاه آخر وتوالى الامر . . . عدت الى وعيى على ظهر السفينة فوجدت نفسى فى وسط الدخان والقصف من حولى وكل شىء قد انهار . كانت المدية فى يدى ، وقد بقى الغمد ، اغلب الظن ، لدى نيكيتسكى الذى اختفى بدوره .

صمت بوليفوى وبعد ذلك تابع :

– قضيت فى المستشفى مدة طويلة وهنا وقعت الثورة والحرب الاهلية ، وتزعم نيكيتسكى عصابة ، وعرف انى موجود فى بلـــدة ريفسك فانقض لتصفية الحسابات القديمة . لقد أقدم على هـــذه المخاطرة لانه بحاجة الى المدية الآن على ما يظهر ، غير انه لن يتوصل اليها ، لان ما يفيد عدونا يضر بنا . وعندما تنتهى الحرب سنعيد الامور الى نصابها .

صمت بوليفوى مرة ثانية وقال مفكرا وكأنما يحدث نفسه :

– يوجد شخص من هذا المكان ، من ريفسك ، كان خادما لدى نيكيتسكى . لقد ظننت بانى ساعثر عليه هنا . . . لا ، لقد اختبأ .

ثم نهض بوليفوى وهو يقول :

– لقد ثرثرت كثيرا معك ! ابلغ ماما بان تتأهب . سنرتحل خلال يومين . هيا ، الى اللقاء !

أمسك يد ميشا الصغيرة فى يده الكبيرة مدة ثم غمزه بعينه وانصرف .

الفصل العاشر

الرحيل

كان القطار واقفا فى المحطة وقد تراكض ميشا وغينكا للتفرج عليه .

جهز جنود الجيش الاحمر عربات البضاعة بارضيات خشبية للنوم ومعالف الخيل فى العربات الاخرى اما تحت عربة الركاب فقد استكشف الولدان صندوقا حديديا كبيرا .

قال ميشا وهو ينسل فى الصندوق :

– انظر يا غينكا كم هو مريح ، يمكنك ان تنام هنا وان تفعل ما يحلو لك . مم تخاف ؟ ان كل ما ستبقاه فى الصندوق هو ليلة واحدة ، وبعد ذلك انتقل الى العربة وانا أتابع السفر فى الصندوق .

قال غينكا وهو شبه باك :

– ان الكلام سهل بالنسبة لك . كيف أترك اذن اختى الصغيرة ؟

اجاب ميشا :

– يا عينى عليك ، اختك الصغيرة ! ان كل ما لها من العمر هو ثلاث سنوات ، وهى لن تلاحظ ذلك . وبالمقابل ستجد نفسك فى موسكو ! – تمطق ميشا بشفتيه وتابع : – سوف اعرفك على الاولاد ، ويا لهم من اولاد ! سلافكا يعزف على البيان كل المعزوفات حتى انه لا ينظر فى النوتة ، اما شوركا اغورييف فهو فنان ، وعندما يلصق لحية مستعارة فلا يمكنك معرفته . وفى البناية التى اسكن فيها يوجد صالة سينما «آرس» . انها صالة سينما فاخرة لا تنقص الافلام

التى تعرضها عن ثلاثة اجزاء . . . اما اذا لا تريد فابق هنا . فلن ترى السيرك وحتى لن ترى شيئا بشكل عام . ابق هنا . انت حر .

فقال غينكا بتصميم :

– حسنا ، سأذهب .

فسر ميشا وقال :

– هذا حسن جدا ! ستكتب الى ابيك رسالة من باخماتش وتقول له سافرت الى موسكو لعند عمتك اغريبينا تيخونوفنا ، وترجو فيها ألا يقلق احد . وكل شيء على ما يرام .

سار الولدان بمحاذاة القطار فشاهدا عربة كتب عليها «الاركان» بالطباشير وقد سمرت على جدرانها اللافتات . بدأ ميشا يشرح لغينكا ما رُسم عليها :

– هذا هو القيصر ، اترى : تاج ورداء وانف احمر . وهذا الذى يرتدى قميصا ابيض وبيده سوط هو الدركى . وذاك الذى يضع نظارة وقبعة من القش هو منشفى . اما هذه الافعى ذات الرؤوس الثلاثة فهى دينيكين وكولتشاك ويودينيتش .

اشار غينكا باصبعه الى لافتة وسأل :

– ومن هذا ؟

كان على اللافتة صورة رجل سمين بقبعة سوداء عالية وبطن متهدل وانف معقوف كالجوارح .

جلس السمين على كيس من الذهب ، والدماء تقطر من اصابعه ذات الاظافر الطويلة .

اجاب ميشا :

– انه برجوازى يجلس على النقود . يظن ان بالامكان شراء الجميع بالنقود .

– ولماذا كتبت كلمة «الحلفاء» ؟

– انها نفس الشيء . ان الحلفاء هم اتحاد بين جميع برجوازيى العالم الرأسمالى ضد السلطة السوفييتية . فهمت ؟

اجاب غينكا بتردد :

– فهمت . . .

ثم اشار الى لوحة كبيرة من خشب البلاكية سُمرت على العربة وقال :

– ولماذا كتبت هنا كلمة «الاممية» ؟

رسم على اللوحة كرة ارضية التفت حولها سلاسل حديدية وعامل مفتول العضلات يحطم هذه السلاسل بمطرقة ثقيلة .

اجاب ميشا :

– انها الاممية ، التى هى اتحاد جميع شغيلة البروليتاريـــا العالمية .

واشار ميشا باصبعه الى الرسم وقال :

– ان العامل هو الاممية والسلاسل هى الحلفاء . وعندمـــا تحطم السلاسل كلها فان سلطة الشغيلة تحل فى العالم كله ، ولن يكون هناك اى برجوازى ابدا .

واخيرا حان وقت الرحيل .

حمّل العفش على عربة وقامت ماما بتوديع الجد والجدة . كانا يقفان امام مدخل البيت صغيرين هرمين . الجد فى سترته الرثـــة والجدة فى ردائها المشبع بالدهن . كانت تمسح الدموع من عينيها وقد تصعر وجهها . اما الجد فقد كان يضع النشوق فى انفه مبتسما بعينين نديتين مغمغما :

– سيكون كل شىء على مايرام . . . سيكون كل شىء على مـا يرام .

اعتلى ميشا الحقيبة بتثاقل . أخذت العربة تتحرك ، وصرت على القنطرة غير المستوية ورمحت وهى تميل الى جانب تارة وتارة الى الجانب الآخر .

عندما انعطفت العربة من درب اليكسييفسكى الى درب المحطة رأى ميشا لآخر مرة البيت الخشبى الصغير ذا درف النوافذ الخضراء والصفصافات الثلاث خلف سياج الحديقة ، وقد برزت من تحـــت الملاط اجزاء «الشرشاوة» الخشبية وخصل خيوط القنب ، امـــا فى الوسط فقد علقت بين نافذتين لوحة حديدية دائرية الشكل علاهـــا الصدأ وكتب عليها : «شركة «فينيكس» للتأمين . عام ١٨٧٢» .

الفصل الحادى عشر

فى القطار

كان وجه ميشا ملتصقا بزجاج النافذة وهو ينظر الى الليل المظلم الذى انتشرت فيه النجوم المضيئة وانوار المحطة .

امتلأ الليل بقلق خفى حزين من جراء هدير البخار الذى تنفثه القاطرات والصفرات الطويلة التى تطلقها واحتكاك العربات المربوطة مع بعضها وصياح ووقع الاقدام المستعجل لمفتشى القطارات وعمال التشحيم الذين يسعون جيئة وذهابا بطول القطار بمصابيحهم اليدوية المهتزة الانوار . كان ميشا ينظر من النافذة دون ان يحول بصره ، وكلما ازداد التصاقا بزجاجها كلما ازدادت الاشياء وضوحا فى الظلام .

تحرك القطار الى الخلف وقعقعت مخففات الاصطدام ثم توقف . وبعد ذلك تحرك القطار ، وفى هذه المرة الى الامام ودون ان يتوقف تقدم هادرا على المحولات مكتسبا السرعة اللازمة . ها هى انوار المحطة قد اصبحت الى الخلف ، وخرج القمر من بين السحب . وكانت الاشجار والاكشاك وارصفة المحطات الفارغة تمر بسرعة كشريط رمادى . . . الوداع يا ريفسك !

استيقظ ميشا مبكرا فى اليوم التالى وكان القطار واقفا . خرج من العربة ودنا من الصندوق .

كان القطار يقف على خط فرعى دون قاطرة لا حياة فيه ما عدا الحارس النائم فى مدخل عربة القطار ووقع حوافر الخيل فى العربات . نقر ميشا على الصندوق قائلا :

— غينكا ، اخرج !

لم يعقب ذلك اى جواب ، فقرع ميشا على الصندوق ولكن لا من مجيب . انسل ميشا تحت العربة ونظر ، الا ان الصندوق كان فارغا . اين غينكا اذن ؟ أهل هرب الى البيت البارحة يا ترى ؟

قطع تفكيره بوق الاستيقاظ فدبت الحركة فى القطار وبعثت الحياة فى المحطة . قفز الجنود من العربات واغتسلوا ، وتراكض المناوبون بالقدور واباريق الشاى . تصاعدت رائحة العصيدة .

نادى احدهم شخصا ما وشتم آخر احدا ما . وبعد كل هذا اصطف الجميع فى صفين على طول القطار وبدأ التفقد .

كان الجنود مزودين بألبسة مختلفة وبشكل سيئ . فقد برزت من بين الصفوف قبعات فرسان بوديونى ذات الرأس المدبب والنجمة الحمراء والقبعات العسكرية الرمادية وسيدارات الفرسان وطواقى البحارة والقبعات القوزاقية . وكان البعض فى الجزمات والبعض الآخر فى الاحذية العادية او الجزمات اللبادية او الاحذية المطاطية والبعض وقف حافيا كليا . لقد كان هنا جنود وبحارة وعمال وفلاحون ، شيوخ وشبان ، متقدمون فى العمر ويافعون جدا .

نظر ميشا الى عربة الاركان فرأى غينكا واقفا يمسح دموعه بكمه وقد جلس امامه خلف الطاولة غلام غر يرتدى قميصا مرقعا محزما بالسيور طولا وعرضا وبنطالا عريضا جدا ذا حاشية حمراء ومقعد من الجلد مما يرتديه الفرسان . كان انف الغلام صغيرا واذناه كبيرتين وفى فمه غليون . كان يبصق بلا مبالاة عبر الطاولة الى جانب غينكا الذى كان يرتجف شاعرا وكأن كل بصقة هى رصاصة موجهة اليه .

قال الغلام بصرامة :

– وهكذا ، ما هو اسم عائلتك ؟

قال غينكا وهو ينشج :

– بيتروف .

– اى نعم ، بيتروف ! ألا تكذب ؟

– كذ–ذ–ا . . .

– حاذر !

قال غينكا وهو يبكى :

– والله انى أقول الحقيقة !

ثم فترة جديدة من الصمت ومص الغليون والبصاق ويستمر بعدها الاستجواب ، زد على ذلك ان الاسئلة والاجوبة كانت تتكرر مرات عديدة لا تحصى .

لقد ألقى القبض على غينكا اذن ! ارتد ميشا عن العربة وركض

يبحث عن بوليفوى . وجده بالقرب من عربات الاسلحة التى كان يتفحصها مع بقية القادة .

قال له ميشا :

– لقد ألقوا القبض على غينكا هناك يا سيرغى ايفانوفيتش . اطلق سراحه أرجوك .

قال بوليفوى مندهشا :

– من ألقى القبض ؟ اى غينكا ؟

– هناك فى الاركان ، الرئيس الذى يرتدى بنطال الفرسان الازرق ، ذلك الغر .

ضحك الجميع .

صاح احد العسكريين :

– آه هذا ستيوبا !

– انتظر . سنتدبر الامر الآن .

دخل الجميع عربة الاركان فانتفض الغلام من مجلسه ووضع يده على الحافة المكسورة لعمرته ماطا نفسه امام بوليفوى وقال بصوت جهير :

– اسمح لى بتقديم التقرير ايها الرفيق القائد . القضية هى انه قبض على مجرم يثير الشبهة – واشار الى غينكا الذى كان يبكى . – لقد اعترف بانه مذنب وانه من عائلة بيتروف واسمه غينادى ، وانه قد هرب من اهله الى موسكو لعند عمته . ابوه يعمل سائق قطار . عثر لديه على سلاح هو ثلاث خراطيش فارغة . اعتقل فى مكان الجريمة فى حالة النوم فى صندوق تحت عربة القطار .

ارخى يده ووقف منتظرا . كان صغيرا ، اعلى بقليل من غينكا . نظر بوليفوى بصرامة الى غينكا وهو يغالب الضحك وقال :

– لماذا تسللت تحت العربة ؟

ازداد نحيب غينكا وهو يقول :

– والله يا عمو انا ذاهب الى موسكو لعند عمتى ، ويشهد ميشا على ذلك !..

قال بوليفوى :

– سنتحقق من ذلك الآن ...

وتوجه الى الغلام بقوله :

– اجر انت يا ستيوبا لعند المساعد ليأت الى هنا .
– حاضر ، سأجرى لعند المساعد ، وليأت الى هنا ! – قال ستيوبا ذلك ودار حول نفسه نصف دورة ووثب من العربة .
التفت بوليفوى الى الولدين وأمرهما بقوله :
– اما انتما فانقلعا من هنا !
خرج غينكا من العربة اما ميشا فقد سأل بوليفوى هامسا :
– من هو هذا الغلام ؟
فبدأ بوليفوى يضحك وقال :
– ايه يا أخانا ! انه شخص كبير ، انه ستيبان ايفانوفيتش ريزنيكوف مراسل الاركان .

الفصل الثانى عشر

كوخ عامل الصيانة

ظل القطار متوقفا للاسبوع الثانى فى محطة نيزكوفكا .
كان غينكا يعتبر نفسه متضلعا بقضايا السكك الحديدية ، وقد شرح لميشا سبب هذا التوقف بقوله :
– ان باخماتش لا يمكنها استقبال قطارنا فلا يوجد قاطرات كافية .
ان سفر غينكا فى القطار قد اصبح الآن بطريقة شرعية . لقد وجده ابوه وضربه «علقة» قوية واراد ان يعود به الى بلدة ريفسك ، الا ان بوليفوى قاد الاب الى عربته ولم يعرف احد عماذا تكلم الاثنان هناك ، غير ان الاب نظر الى ابنه بوجه جهم وهو خارج وقال ان كل شىء سيكون «حسبما تقرر الوالدة» .
عاد الاب من ريفسك فى اليوم التالى وقد جلب معه حوائج غينكا ورسالة الى العمة اغريبينا تيخونوفنا . تحدث الاب مع ابنه طويلا وقرأ عليه المواعظ ورحل بعد ان أخذ من ام ميشا وعدا بتسليم غينكا الى عمته «يدا بيد» .
إما القطار فقد ظل متوقفا فى محطة نيزكوفكا ، وقد أعد جنود الجيش الاحمر شعلات النيران بين الخطوط الحديدية وطبخوا الحساء

فى القدور . وفى الامسيات كانت النار تعسّ فى الرماد الاسود ويتعالى من العربات صوت الاكورديون وترن اوتار البلالايكا على شدو الاغانى الروسية الشعبية وقد جلس الجنود على العوارض المهجورة او على السكك او على الارض يتحدثون عن السياسة وعن انظمة السكك الحديدية وعن الله وعن الاغذية .

لم تكن الاغذية تكفى . وهكذا فقد طلب ميشا وغينكا الاذن بالذهاب الى الغابة لجمع الفطر .

كانت الغابة تبعد حوالي خمسة كيلومترات . وقد خرج الولدان فى الصباح الباكر على أمل العودة فى المساء .

واضطرا الى السير لا حوالى الخمسة كيلومترات وانما اكثر من ذلك وقد وصفت لهما الطريق بشكل خاطئ لذلك فقد ظلا تائهين اليوم كله وعندما جمعا اخيرا كمية من الفطر وتحركا بسبيل العودة كانت الدنيا قد أظلمت والامطار تهطل واصبحت السماء قاتمة اكثر بسبب السحب .

كان ميشا يسير الى جانب غينكا بين خطى السكة الحديدية ويتساءل : «لماذا وضعت العوارض بشكل غير منتظم تحت الخط الحديدى ؟ ان الخطوات تصبح بهذه الصورة واحدة كبيرة وواحدة صغيرة وهذا شىء غير مريح» .

سارا بعد ذلك على طرف الخط وحولهما حقول لا يحدها النظر . وبين الفينة والفينة كانت تتراءى لهما من بعيد جدا عبر ستار الامطار قرية صغيرة ويلوح لهما وكأنهما يسمعان صوت خوار البقر ونباح الكلاب وصرير الشادوف فوق البئر ، تلك الاصوات النائية التى تسمع اثناء هطول الامطار عندما يرى السائر من بعيد قرية فى ضباب المساء .

كان الظلام قد حل تماما عندما وصلا الى كوخ عامل الصيانة . والمسافة من هنا حتى نيزكوفكا تبلغ حوالى خمسة كيلومترات .

اقترح غينكا قائلا :

– هيا بنا ندخل .

– لا لزوم لذلك . سنضيع الوقت فقط .

– لماذا نبتل تحت المطر ؟ سنقضى الليل هنا وفى الصباح نذهب .

– كلا ، يمكنهم ان يُرحلوا القطار .
فصفر غينكا وقال :
– انهم لن يرحلوه قبل اسبوع . لندخل ! لشرب الماء على الاقل .
قرع الولدان الباب .
نبح كلب وراء السياج ثم دوى صوت نسائى من خلف الباب :
– ماذا تريدون ؟
فصأى غينكا بصوت رفيع :
– نريد ان نشرب الماء يا خالة .
بدأ الكلب يشد السلسلة بعنف خلف السياج وازداد نباحه .
صر المزلاج وانفتح الباب ، فدخل الولدان عبر مدخل ضيق افضى بهم الى بيت فسيح .
تحرك رجل عجوز فوق الفرن وسأل بصوت يتخلله السعال :
– ماتريونا ، من هناك ؟
اجابت المرأة وهى تتثاءب :
– ولدان يريدان ماء للشرب . . . هل كنتما تجمعان الفطر ؟
– أيوه .
– والى اين انتما ذاهبان ؟
– الى نيزكوفكا .
قالت المرأة وهى تمط فى كلامها :
– انه مكان بعيد . اين تذهبان وسيحل الظلام عما قريب ؟
تعلق غينكا بهذه الملاحظة وقال :
– ان هذا هو ما اقوله يا خالة . يمكن ان تدعينا نقضى الليل هنا ؟
– وكيف لا ادعكما هنا ! ان المكان واسع . كيف تذهبان تحت المطر فى الليل ؟ الا تسمعان صوت هطوله ؟ – قالت المرأة ذلك وهى تسحب من فوق الفرن معطفا من جلد الخروف وتفرشه على الارض وتتابع القول :
– زد على ذلك ان قطاع الطرق يتسكعون فى الليل كما يمكن

لكما ان تقعا تحت عجلات القطار . استلقيا وناما حتى طلوع الضوء . ولن تأخذ الطريق منكما وقتا طويلا حينذاك .

القت الخطاف على الباب ونفخت عيدان الحطب ثم صعدت فوق الموقد وهى تتأوه ، اما الولدان فقد استلقيا على فراشهما واستغرقا فى النوم حالا .

الفصل الثالث عشر

قطاع الطرق

كانت احلام ميشا مشوشة ، فقد رأى مهرا ادهم يحرك ذنبه القصير ويلعب رافعا قائمتيه الخلفيتين مندفعا فى الحقل على سفح صخور رأسية الشكل .

كان الجميع يضحكون : بوليفوى والجد ونيكيتسكى . . . كانوا يضحكون منه ،اى من ميشا . اما المهر فقد كان يتوقف ويحنى رأسه حينا وحينا آخر يرفس بقدميه ويعود من جديد لينهب ارض الحقل نهبا .

وفجأة . . . لم يكن هذا مهرا وانما حصانا ادهم هائلا ، وبينما هو يجرى القى بنفسه على الصخور الرأسية وبدأ يتسلقها كذبابة سوداء ضخمة ، اما نيكيتسكى فقد كان يضرب على الشجرة بمقبض سوطه وهو يصيح : «امسك بالحصان ، امسك بالحصان !» . ازداد تسلق الحصان بطءا ونيكيتسكى ما زال يصيح : «امسك بالحصان ، امسك بالحصان !» وفجأة انفصل الحصان عن الصخور ووقع فى الهاوية وهو يصدر دويا مخيفا . . .

انقطع الدوى عند قدمى ميشا ، فقد قرقع الدلو مرة اخرى ثم هدأ .

صاح احدهم مرة اخرى من داخل البيت الى الحوش وهو يشتم :

— امسك بالحصان ! يا للعنة !

اشتعل عود ثقاب فأضاءت شعلته الباهتة رجلا طويلا يرتدى

معطفا من الفرو . ومن الحوش كانت تأتى اصوات صهيل الخيول واخذ الكلب ينبح بهياج نباحا شديدا .

– من هناك ؟ – سأل الرجل ذو معطف الفرو وهو يشير بسوطه الى الولدين المستلقيين فى زاوية الغرفة .

اجاب صاحب البيت بوجه مكفهر :

– ولدان من المحطة ، خرجا لجمع الفطر .

كان يقف بقميص النوم وفى يده شعلة ، وخيال لحيته الشعثاء يتراقص على الجدار . وتابع قوله :

– انهما نائمان ، فلا داعى للقلق ! . .

فنهره ذو المعطف الفرو قائلا :

– اخرس ! . .

واقترب من الولدين وانحنى عليهما وامعن النظر فيهما . وفى اللحظة التى اغلق فيها ميشا المتناوم عينيه لمح النظرة الحادة من تحت ناصية الشعر وقبعة الفرو . . . نيكيتسكى !

اقترب نيكيتسكى من عامل الصيانة :

– هل مرت القاطرة الى نيزكوفكا ؟

اجاب العجوز عابسا :

– مرت .

– ماذا ، هل تراوغ ايها الشيطان العجوز ؟

لف نيكيتسكى بقبضته على قميص العجوز وجذبه نحوه فأصبحت رأسه مائلة الى الخلف ، فقال العجوز بصوت مبحوح :

– انى لا ارتكب هذه الخطيئة . . .

– لا ترتكب ؟ – قال نيكيتسكى هذا وضربه على وجهه بمقبض السوط دون ان يتركه وتابع :

– لا تقبل ؟ سوف يمر القطار خلال ساعة وانت قد قررت الانتساب الى الدير ؟ – وضربه على وجهه مرة اخرى .

وقع العجوز ، اما نيكيتسكى فقد اندفع خارجا الى الحوش .

مرت فترة من الوقت ترددت خلالها الأحاديث ووقع اقدام الخيل فى الحوش ثم هدأ كل شىء الا من الكلب الذى كان ينبح ويحاول الافلات من السلسلة .

سوف يمر القطار خلال ساعة ! من نيزكوفكا ! ان القاطرة قد

ذهبت الى هناك . . . لعل هذا هو قطارهم ؟ وفجأة طرأ على عقل ميشا خاطـــر مخيف : ان قطاع الطـــرق يريدون الاغارة على القطار ! فوثب ميشا من مكانه . ما العمل اذن ؟ كيف يمكن تحذيرهم ؟ انهما لن يصلا الى نيزكوفكا ولو عدوا . . .

كان العجوز ملقيا على الارض يتألم وبالقرب منه جلست المرأة تئن وتنوح وهى تعنى به .

هز ميشا غينكا لايقاظه قائلا :

— انهض ! اتسمع ؟ انهض يا غينكا !

فتمتم غينكا بين النوم واليقظة :

— ماذا ، ماذا تريد ؟

جره ميشا ، الا ان غينكا رفس بقدميه محاولا العـــودة للنوم على المعطف .

الا ان ميشا هزه وهو يقول له :

— انهض ، ان نيكيتسكى هنا . انهم يريدون الاغارة عـــلى القطار . . .

خرج الولدان من كوخ عامل الصيانة . كان المطر قد توقف عن الهطول والارض مبللة ونقاط المـــاء تتساقط بانتظام من السطح ، والبدر يضىء اطراف الغيوم الآخذة بالتبدد وشريط السكة الحديدية وخطوطها الملتمعة . لم يكن الكلب ينبح فى الحوش ولم يكن يجذب السلسلة بل كان يعول بشكل مخيف كئيب . .

اندفع ميشا وغينكا يركضان برعب على الطريق المحاذيـــة لخط السكة الحديدية وتوقفا عندما شاهدا اخيلة قاتمة لأناس فوق الخط الحديدى وسمعا صليل الحديد ، حيث كان قطاع الطرق ينزعون الخط الحديدى .

كان ذلك فى اعلى مرتفع فى الخط قبل ان يعبر جسرا قصيرا فوق مجرى ضيق تمتد فيه دغلة صغيرة . سمع الولدان صوت صهيـــل الخيول وتهشم الأغصان وأناس يتكلمون همسا فهبطا عن الخط ودارا حول الدغلة واندفعا من جديد بأقصى ما لديهما من قوة .

بدأت معالم الأشياء تزداد وضوحا مع انبلاج الفجر البـــارد الذى جعل مجال الرؤية يمتد الى مسافة بعيدة ، وها قد لاحت انوار المحطة . كان الولدان يركضان بأقصى ما لديهما من قوة دون ان

يحسا بالأحجار المدببة او يسمعا صوت حفيف الريح . وفجأة بلـغ مسامعهما صوت الصفير الطويل للقطار من بعيد فتوقفا لبرهة قصيرة ثم اندفعا الى الأمام من جديد . لم يريا شيئا الا الدرابزون الحديدى المقوس فى القاطرة الذى تغشاه سحب البخار الأبيض . وقد ازداد حجم هذا الدرابزون بشكل هائل حتى حجب القاطرة . اراد ميشا امساك الدرابزون الا ان يدا قوية امتدت فجأة ودفعته من ذلك . . . كان بوليفوى يقف امام الولدين .

سألهما بوليفوى بصرامة :

– حسنا ، اين كنتما تتسكعان ؟

قال ميشا وهو يتنفس بصعوبة :

– سيرغى ايفانوفيتش . . . ان نيكيتسكى هناك . . .

فسائل بوليفوى بسرعة :

– اين ؟

– هناك . . . فى المجرى . . .

فاعاد بوليفوى :

– فى المجرى ؟

– نعم .

ففكر بوليفوى لحظة وقال :

اذن هكذا . . . ونحن ننتظرهم هنا . . . حسنا ! والآن هيا الى العربة ! واحذركما بعدم الخروج منها بعد ذلك والا فسوف اقفلها عليكما .

الفصل الرابع عشر

الوداع

لم تستمر المعركة زمنا طويلا ، وقد فر قطاع الطرق تاركين وراءهم قتلى وخيولا وحيدة تعدو فى السهل امسك بها جنود الجيش الأحمر ونزعوا عنها السروج وصعدوا بها عربة القطار بواسطة الواح الخشب .

اعاد المقاتلون بناء الخط المخرب بسرعة وواصل القطار سيره .

وفى باخماتش فصلت عربة الركاب عن القطار لمواصلة السفر الى موسكو فيما بعد اما القطار نفسه فقد توجه الى الجبهة .

دعا بوليفوى ميشا اليه قبل الرحيل ، وفى ظل احد مستودعات البضائع جلس ميشا على الأرض اما بوليفوى فقد اتخذ مجلسه على صندوق فارغ وابتدأ الحديث :

– حسنا يا ميشا ، ماذا لديك لتقوله فى لحظة الوداع ؟

لم يجب ميشا بشىء بل اخفى عينيه .

قال بوليفوى :

– نعم ، لقد حان وقت الافتراق . لا اعلم هل سنلتقى مرة اخرى ام لا ، وهكذا انظر اذن . . .

اخرج المدية ووضعها على راحة يده . لقد كانت المدية نفسها بمقبضها ذى اللون الأسمر الداكن والأفعى البرونزية . ادار بوليفوى المقبض فى الجهة التى تنظر اليها الأفعى فالتف المقبض حلزونيا حول جسم الأفعى وانفصل عن المدية تماما .

فصل بوليفوى الأفعى عن المقبض واخرج المحور الذى كان عبارة عن شريحة معدنية دقيقة جدا ثنيت بشكل انبوب وعليها علامات غير مفهومة هى نقاط وشرطات ودوائر .

سأل بوليفوى :

– اتعرف ما هذا ؟

فنظر ميشا الى بوليفوى وقال متسائلا :

– شيفرة ؟

– تماما ، انها شيفرة ، ولكن مفتاحها فى الغمد ، والغمد موجود لدى نيكيتسكى . افهمت الآن لماذا هو بحاجة الى المدية ؟

اومأ ميشا برأسه علامة الايجاب .

اعاد بوليفوى الشريحة الى مكانها وربط المقبض وهو يقول :

– ان رجلا قد قتل بسبب هذه المدية ، وهذا يعنى ان فيها سرا . لقد كنت آمل فى كشف هذا السر الا ان الوقت ليس ملائما لذلك . . .

وتنهد وتابع يقول :

– ولا يمكن ان احتفظ بهذه المدية اكثر من ذلك ، فالمرء لا

يعرف ما هو مقدّر له ، وبالأحرى فى ايام الحرب . . . وهكذا فخذها انت . . .

ومد لميشا يده بالمدية قائلا :

– اذا عدت من الجبهة فسأهتم بأمر هذه المدية ، واذا لم اعد فهذا يعنى انها ستبقى لك ذكرى منى . – وغمزه بطرف عينه .

اخذ ميشا المدية .

سأل بوليفوى :

– لماذا انت صامت ؟ لعلك خائف ؟

– وممَ أخاف ؟

قال بوليفوى :

– الأمـــر الرئيسى هــو ان تحفظ لسانك واحذر شخصا واحدا .

– نيكيتسكى ؟

– انك لن تخطر على بال نيكيتسكى ، ولن يمكنك ان تراه ! يوجد شخص آخر لم اعثر عليه ، ولكنه من ريفسك . لعل الصدفة تجمعك واياه ، لذلك خذ حذرك .

– ومن هو ؟

نظر بوليفوى مرة اخرى الى ميشا وقال :

– ان اسم عائلته هو فيلين .

فكرر ميشا مفكرا :

– فيلين . . . ان شخصا يعيش لدينا فى الفناء واسمه فيلين ايضا .

– وما اسمه واسم ابيه ؟

– لا ادرى . انى اعرف ابنه بوركا . ان الأولاد يطلقون عليه اسم «البخيل» .

فضحك بوليفوى وقال :

– البخيل . . . وفيلين هذا ، اهو من ريفسك ؟

– لا اعلم .

اطرق بوليفوى مفكرا ثم قال :

– ان الكثيرون يحملون اسم فيلين ، اما هذا فمن المستبعد ان يكون فى موسكو . يجب عليه ان يختفى فى مكان ابعد من ذلك .

ومع ذلك خذ حذرك . انهم يرسلون الشخص الى العالم الآخر دون ان تطرف لهم عين . فهمت ؟

– فهمت .

وربت بوليفوى على كتف ميشا وهو يقول :

– لا تخف يا ميخائيل غريغوريفيتش . يمكن القول انك اصبحت راشدا وخلعت عن نفسك الطوق . تذكر فقط . . .

ونهض واقفا وتبعه ميشا كذلك .

قال بوليفوى :

– تذكر فقط يا ميشكا ان الحياة كالبحر . اذا اردت ان تعيش لنفسك فستكون كالصياد الوحيد فى زورق غير صالح ، لا يبتعد عن المياه الضحلة ولا يحيد بصره عن الشاطىء ويسد الثقوب بالسراويل المقطعة . اما اذا اردت ان تعيش من اجل الشعب فستبحر على سفينة كبيرة وتخرج الى البحار الواسعة . ولن تخيفك اية عاصفة وسيكون كل العالم امامك ! انت فى سبيل الرفاق والرفاق فى سبيلك . اتفهم ؟ ان ذلك حسن !

شد على يد ميشا وابتسم مرة اخرى وابتعد سائرا على العوارض غير المنتظمة طويلا قويا ومعطفه العسكرى الرمادى ملقى على كتفه .

جرى فى المحطة قبل رحيل القطار اجتماع حاشد حضره سكان المدينة وعمال عنبر السكك الحديدية . كانت الفتيات يتمشين على رصيف المحطة وهن «يفصصن البزر» ويتضاحكن مع الجنود .

كان بوليفوى يقف فوق سطح عربة الأركان تحت لافتة رسم عليها شعار الأممية . وقد افتتح الاجتماع وقال ان الخطر يخيم على روسيا السوفييتية وان البرجوازية فى جميع انحاء العالم قد تألبت على الجمهورية السوفييتية الفتية ، الا ان سلطة العمال والفلاحين ستقهر جميع اعدائها وسترفرف راية الحرية فوق العالم كله . وعندما انهى بوليفوى كلامه صاح الجميع بصوت واحد «اورا» .

ثم تكلم جندى بعد ذلك وقال ان الجيش يعانى النقص فى كل شيء ، الا انه قوى بروحه الثابتة وثقته بعدالة القضية . وقد صفق له الحاضرون كذلك وصاحوا «اورا» . وقد صفق ميشا وغينكا كذلك وصاحا «اورا» اعلى من الجميع وهما جالسان على سطح عربة الأركان .

وبعد ذلك بارح القطار المحطة .

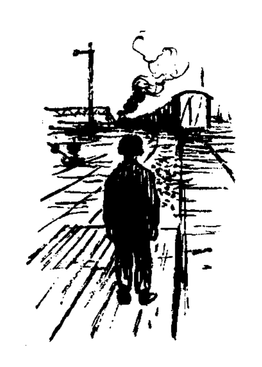
تجمع جنود الجيش الاحمر امام ابواب عربات القطار المفتوحة على سعتها ، وقد جلس البعض واقدامهم تتدلى من العربات باحذية بالية ولفافات الساق المهترئة وآخرون وقفوا من ورائهم ، وكان الجميع ينشدون نشيد «الأممية» بصوت ملأ المحطة وتجاوزها الى السهل الواسع مندفعا فى الأرض الواسعة .

وتلقفت الجماهير المحتشدة فى المحطة هذا النشيد وانطلق به ميشا بصوته الرنان ، وازدادت ضربات قلبه مع النشيد وسرت فى ظهره قشعريرة غير مفهومة وغص حلقه وظهرت فى عينيه دموع لا تليق به . رحل القطار واختفى فى آخر الأمر معرجا بذنبه الطويل المستدير .

اشعل المساء اضواء خافتة فى السماء فتفرق الحشد واصبح رصيف المحطة خاليا من الناس .

لكن ميشا ظل هناك .

كان ينظر كل الوقت فى اتجاه القطار الراحل ، هناك حيث تتجمع الخطوط المتشابكة المتلألئة فى خط فولاذى ضيق يمتد عبر احيداب الأفق الممتلىء بالضباب ولا يرى امامه الا القطار وجنود الجيش الاحمر وبوليفوى فىمعطفه العسكرى الرمادى والعامل المفتول العضلات الذى يحطم بمطرقته الثقيلة السلاسل الملتفة حول الكرة الأرضية .





القسم الثانى

فناء فى شارع الأربات

الفصل الخامس عشر

بعد مرور عام

استيقظ ميشا على ضجة منبعثة من الممر . فتح عينا واحدة واغلقها حالا . وتسرب من خلف الابنية العالية المجاورة عبر النافذة شعاع من الشمس يعج بآلاف الذرات من الغبار ووقع على السجادة الأرضية . وقد اغلق النمر الأرقط المطرز المستلقى على السجادة

عينيه كذلك واستغرق فى النوم مخفيا رأسه بين قائمتيه الممددتين . لقد كان نمرا هرما باليا لا يؤذى ولا يضر . انتقل شعاع الشمس من السجادة الى حافة الطاولة ثم التمع على النيكل المصنوع منه سرير ماما وأضاء ماكنة الخياطة وبعد ذلك اختفى فجأة وكأنه لم يكن .

اظلمت الغرفة ، وترامت من تحت ، من شارع الأربات ومن الفناء ، اشارات التنبيه التى تطلقها حافلات الترام وابواق السيارات واصوات الاطفال المرحة وصياح المجلخين وبائعى الحوائج القديمة ، اصوات متنافرة جذلة تصدر من الشارع فى يوم ربيعى .

غفا ميشا ، فلن ينهض فى الوقت المعتاد فى اول ايام العطلة . ان اليوم كله مكرس للعب . يا للروعة !

دخلت ماما الغرفة وبيدها المكواة ووضعتها على فتحة السماور المقلوبة ووضعت بطانية مطوية على الطاولة ، والى جانبها على الكرسى كانت كومة من الملابس المغسولة تشع بياضا .

قالت ماما :

— ميشا ، انهض . انهض يا بنى بسرعة .

كان ميشا راقدا دون ان تصدر عنه اية حركة . لماذا تعرف ماما دائما اذا كان نائما أم لا ؟ انه يرقد بعينين مغمضتين . . .

اقتربت ماما من السرير ودست يدها تحت اللحاف وهى تقول :

— انهض ولا تتظاهر . . .

ضم ميشا قدميه الى بطنه الا ان يد ماما الباردة ظلت تلاحق كعبيه فانفجر ضاحكا وقفز من السرير .

ارتدى ثيابه بسرعة وذهب ليغتسل .

التمع فى عتمة المطبخ بلاط الأرضية التالف من تكسير الحطب عليه وظهرت على الجدران الرمادية انتفاخات قاتمة طويلة هى آثار انبوب المياه الذى انفجر فى الشتاء . خلع ميشا قميصه وهو عازم كل العزم على الاغتسال حتى الخصر . لقد قرر منذ زمن بعيد ان يأخذ حمامات اسفنجية باردة ابتداء من اول ايام العطلة .

فتح حنفية الماء وهو يقشعر من البرد فاندفعت المياه لترتطم بالمغسلة ولتصيب كتفى ميشا برذاذها الوخاز الجليدى .

نعم ، لا يزال الماء باردا بعد . . . لقد قرر بثبات طبعا ان يأخذ حمامات اسفنجية باردة ابتداء من اول ايام العطلة ولكن . . . لقد

صرفوهم قبل الوقت باسبوعين ، ليس فى اول حزيران بل فى الخامس عشر من ايار . افهل هو المذنب فى انه بوشر باجراء الاصلاحات فى بناء المدرسة ؟ لقد تقرر الأمر ، انه سيأخذ هذه الحمامات ابتداء من اول حزيران . وعاد ميشا الى ارتداء قميصه . . .

تفحص وجهه بامعان وهو يقوم بتسريح شعره امام المرآة . ان ذقنه ليست طبيعية ! لو ان فكه الاسفل كان متقدما الى الامام لكان صاحب ارادة قوية . لقد كتب جاك لندن ذلك ايضا . انه بحاجة الى قوة الارادة . والواقع ان عزيمته قد خارت من الحمامات الاسفنجية الباردة ، وهكذا فى كل مرة . لقد بدأ بكتابة مذكراته وخصص دفترا لذلك وزخرفه ثم هجره لأنه لم يكن له جلد على ذلك . وقد قرر ان يقوم بتمارين الصباح الرياضية وحتى انه حصل على ثقلين حديديين لذلك وهجرها ايضا لأنه اما عليه الاسراع فى الذهاب الى المدرسة او اى شىء آخر . وكل ذلك كان ببساطة من الكسل . وبشكل عام كان يفكر فى شىء ما ثم يبدأ بتأجيله : حتى الأثنين القادم ، حتى اول الشهر ، حتى بداية العام الدراسى الجديد . . . ضعف فى الارادة وعدم ثقة بالنفس !

ابرز ميشا فكه . ان ذقنا كهذه يجب ان تكون لصاحب الارادة القوية . يجب الاحتفاظ بوضع الاسنان بهذا الشكل طول الوقت وسيبرز الفك الاسفل بالتدريج الى الامام .

كان البخار يتصاعد من البطاطا الموضوعة على المائدة وفى الصحن المجاور قطعتان من الخبز الاسود هما جراية اليوم .

قسم ميشا حصته الى ثلاث قطع للأفطار والغداء والعشاء — واخذ قطعة واحدة كانت صغيرة الى حد انه اكلها دون ان يلاحظ كيف فعل ذلك . هل يأخذ قطعة ثانية ؟ يمكنه تناول طعام العشاء دون خبز . . . لا ! لا يمكن ذلك ! اذا اكل الخبز الآن فلا بد ان تعطيه ماما حصتها فى المساء وتبقى هى دون خبز .

اعاد ميشا قطعة الخبز ودفع فكه الاسفل الى امام بعزم . الا انه كان يأكل البطاطا الساخنة فى ذلك الوقت ، وقد عض على لسانه بشكل مؤلم وهو يدفع بفكه .

الفصل السادس عشر

خزانة الكتب

كان ميشا يستعد للخروج بعد تناول طعام الافطار عندما اوقفته امه قائلة :

– الى اين انت ذاهب ؟
– للتنزه .
– فى الفناء ؟
– سأعرج على الفناء كذلك .
– ومن سيقوم بترتيب الكتب ؟
– ليس لدى الوقت لذلك الآن .
– هل علىّ انا ان اقوم بذلك عوضا عنك ؟

وهنا دمدم ميشا قائلا :

– حسنا . انك دائما هكذا ، تلحين فى الوقت الذى يمون فيه لكل دقيقة حسابها لدى !

كان الرف الخاص بميشا فى الخزانة هو الثانى من الاسفل . وكانت الخزانة للكتب عموما ، الا انها كانت تستعمل لحفظ البياضات والصحون ، فلم يكن لديهما خزانة اخرى .

اخرج ميشا الكتب وازال الغبار عن الرف بفرشاة للأحذية غطاه بجريدة «الحياة الاقتصادية» . جلس بعد ذلك على الارض وبدأ يضع الكتب فى امكنتها بالترتيب .

وضع ميشا اول ما وضع جزءين من موسوعة بروكهاوز وييفرون اللذين كانا من اثمن الكتب . ولو كان لديه كل الاثنين وثمانين جزءا لما كان حتى بحاجة للذهاب الى المدرسة ، لأنه اذا درس كل الموسوعة فسيحصل على التعليم العالى .

بعد موسوعة بروكهاوز وضع كتاب «عالم المغامرات» من جزءين ثم مجموعة مؤلفات نيقولاى غوغول من جزء واحد وبعد ذلك «طفولة . فتوة . شباب» لتولستوى و«مغامرات توم سوير» لمارك توين .

وما هذا ؟ مم‌م ! «الاميرة جافاخا» تأليف تشارسكايا . . . كتاب يثير الدموع لدى البنات . ليس فيه ما هو جميل الا التجليد . يجب

مقايضته عند سلافكا بكتاب آخر . ان سلافكـا يحب الكتب ذات التجليد الأنيق .

فتح ميشا النافذة وصعد قاعدتها والكتاب فى يده فاندفـع ضجيج الشارع الى الغرفة . كانت الأبنية الضخمة المختلفة فى عدد الطوابق ترتفـع فى كل جهة والشرفات المسورة بالحديد المشبك وسلالم الحريق الرقيقة تبدو وكأنها قد الصقت لصقا بالأبنية ، ونهر موسكو يتلوى كشريط ازرق مربوط بحلقات سوداء مـن الجسور . اما القبة الذهبية لكنيسة المنقذ فقد شعت بآلاف الشموس ومن خلفها الكريملين يتوجه بقمم ابراجه الى السماء .

اطل ميشا من النافذة وصاح :

– سلافكا – آآ – ! . .

من نافذة فى الطابق الثالث ظهر سلافا ، وهو ولد معتل الصحة ذو وجه شاحب واصابع رقيقة طويلة .

كانوا يطلقون عليه لقب «البرجوازى» لأنه كان يعقد وشاحا حول عنقه ويعزف على البيان ولا يتعارك ابدا . كانت امه مغنية اما ابوه فقد كان كبير المهندسين فى مصنع سفيردلوف ، نفس المصنع الذى تعمل فيه ام ميشا وعمة غينكا والكثيرون من سكان تلـك البناية . لقد توقف المصنع مدة طويلة وهو الآن يستعد للتشغيل .

صاح ميشا وهو يلوح بالكتاب :

– هيا نتقايض ! انه تحفة رائعة ! «الأميرة جافاخا» . سوف لا تمل من قراءته !

يوجد لدى مثل هذا الكتاب .

– لا يهم . انظر ، يا له من غلاف ! اليس كذلك ؟ اعطنى كتاب «ذبابة الفرس» عوضا عنه .

– كلا !

– ستطلبه منى بنفسك فيما بعد ، ولكنك لن تحصل عليه حينذاك . . .

سأل سلافا :

– متى ستخرج الى الفناء ؟

– قريبا .

– تعال لعند غينكا ، سوف اكون لديه .

– حسنا .

غادر ميشا النافذة ووضع الكتاب على الرف . فليبق هناك في الوقت الحاضر وسيقايض به فى المدرسة فى الخريف القادم .

ان هذه لكتب حقا ! «الجورب الجلدى» ، «فارس دون رأس» ، «عشرون الف ميل تحت البحر» ، «فى مجاهل افريقيا» . . . رعاة بقر ، برارى ، هنود ، خيول برية . . .

هكذا . الكتب المدرسية الآن : كيسيليوف ، ريبكين ، كراييفيتش ، شابوشنيكوف وفالتسيف ، غليزير وبيتسولد . . . لم يفتح هذه الكتب الا نادرا فى العام الماضى . لم يكن هناك حطب فى المدرسة ، ولم يكن الأولاد ليستطيعون امساك الطباشير بأصابعهم المتجمدة . كانوا يذهبون الى المدرسة من اجل حساء اليخنة الذى لم يكن فيه لحم الا انه كان ساخنا وبالمجان .

كان ذلك شتاء عام ألف وتسعمائة وواحد وعشرين القاسى الذى حلت فيه المجاعة .

وضع ميشا الدفاتر وألبوم الطوابع والفرجار ذا الابرة المعقوفة والمنقلة والمثلث الذى عفا الزمن على تقسيماته .

تحسس بعد ذلك صرته السرية المخبأة خلف ربطة الملاحق العتيقة لصحيفة «نيفا» وهو ينظر الى امه بطرف عينه .

كانت المدية فى مكانها . شعر ميشا بفولاذ نصلها القاسى من خلال الخرقة . اين بوليفوى الآن ؟ لقد ارسل رسالة واحدة فقط وانقطعت اخباره بعد ذلك . ولكنه سيأتى ، سيأتى لا محالة . ان الحرب فى الواقع قد انتهت ولكن ليس تماما . لقد أُخرج الفنلنديون البيض من كاريليا فى الربيع فقط . وقواتنا تقاتل اليابانيين فى الشرق الأقصى .

الظاهر ان الحلفاء على وجه العموم يعدون لحرب جديدة .

ها هو نيكيتسكى قد قتل على الأرجح او انه فر الى الخارج كبقية الضباط البيض . ان الغمد قد بقى لديه ولن ينكشف سر المدية ابدا .

اخذ ميشا يفكر . ومع ذلك من هو فيلين هذا ، امين المستودع وابو بوركا ؟ اليس هو فيلين الذى حدثه عنه بوليفوى ؟ انه من بلدة ريفسك على ما يظهر . . . على ما يظهر . . . لقد سأل

ميشا امه بضع مرات عن ذلك الا انها لا تعرف بالضبط ، اما أغريبينا تيخونوفنا عمة غينكا فيبدو انها تعرف شيئا . عندما سألها ميشا عن فيلين بصقت وارعدت غاضبة : «لا اعرف ولا اريد معرفة اى شيء ! انه شخص دنيء» . ولم تضف أغريبينا تيخونوفنا اية كلمة ، الا انها تعرف شيئا على ما يبدو ، ولكنها لا تريد ان تقول . انها امرأة صارمة طويلة القامة ممتلئة ، يهابها الجميع حتى مدير شؤون البناية الذى يدعوها بتملق «عزيزتنا أغريبينا تيخونوفنا الممتلئة» . وهى بالاضافة الى ذلك «مندوبة» اى الامرأة الرئيسية فى المصنع . ان غينكا فقط لا يهابها : فاذا ما حدث شيء فانه يبدأ بالاستعداد للعودة الى ريفسك ، الا ان أغريبينا تيخونوفنا تنكص على اعقابها حالا . . .

. . . ومع ذلك كيف يمكن الوقوف على احوال فيلين ؟ ان ميشا لم يفكر بسؤال بوليفوى عن اسم فيلين الكامل ! . .

. . . تنهد ميشا واغلق الخزانة باحكام وذهب لعند غينكا .

الفصل السابع عشر

غينكا

كان غينكا وسلافا يلعبان الشطرنج . كانت اللوحة بحجارتها على الكرسى وقد وقف سلافا اما غينكا فقد جلس على طرف سرير عريض مُدّ عليه لحاف مضرب وهرم عال من المخدات تصل قمته الى مستوى ايقونة صغيرة معلقة قريبا من السقف .

كانت عمة غينكا ، أغريبينا تيخونوفنا تبسط العجين على الطاولة . ويبدو عليها عدم الارتياح بشيء ما ، لأنها نظرت شزرا الى ميشا الذى دخل الغرفة .

صاح به غينكا :

– اين كنت غارقا ؟ سوف يموت شاه سلافا بثلاث نقلات . . . الآن سوف اعملها : واحد ، اثنان ، ثلاثة . . .

دمدمت أغريبينا تيخونوفنا صائحة :

– «اثنان ، ثلاثة» ! انزل عن السرير ! لقد وجد مكانا للجلوس !

قام غينكا بحركة خفيفة توحى بانه ينزل عن السرير .

– لا تتحرك فى مكانك بل انزل ! لمن اوجه الكلام ؟
بدأت أغريبينا تيخونوفنا تبسط العجين بعنف ثم عـادت الى الدمدمة :
– «يا عيب الشوم» ، فتى كبير مثلك ، وماذا فعل – قطـع رأس اليخنة وافسده ! اجب : لماذا قطعته ؟
– كنت اريد الحصول على «القرمية» . لم تكونى بحاجة اليها على كل الأحوال .
– ألم تستطع يا ذا الرأس اليابس ان تقطع اليخنة بحذر اكثر ؟ كنت اريد تحضير «يالانجى الملفوف» من هذا الرأس الا انك افسدت الورق كله .
اجاب غينكا بكسل وهو يفكر بالنقلة القادمة :
– يالانجى الملفوف يا عمتى ، يالانجى الملفوف . ان ذلـك رأى باطل . لسنا برجوازيين حتى نأكل يالانجى الملفوف . ثم ما هو هذا الملفوف المحشى بعصيدة الذرة ؟ لو كان محشيا باللحم على الأقل .
– هيا علمنى !
تابع غينكا التفلسف فى كلامه دون ان يحيد ببصره عن لوحة الشطرنج :
– اقسم بشرفى انك تدهشيننى يا عمتى . كيف يمكن لشخص له قيمته مثلك ان يقلق من اجل هذه «القرمية» المنحوسة .
– اخرس والا اذقتك طعم هذا الشوبك !
– لقد خرست ، ولكن لا تهددينى بالشوبـــك فانك لن تضربينى به على كل حال .
وهنا استقامت اغريبينا تيخونوفنا متوعدة وقالت :
– ولماذا ؟
– لن تضربى .
– انى اسألك ، لماذا لن اضربك ؟
– لماذا ؟ – سأل غينكا ذلك وامسك بيده بيدقا وهو يفكر وتابع :
– لأنك تحبيننى يا عمتى ، تحبيننى وتحترميننى . . .
ضحكت أغريبينا تيخونوفنا وهى تقول :

– يا غبى ، يا لك من غبى حقا ! لماذا انت بهذه الدرجة من الغباء ؟

وفجأة اعلن سلافا :

– مات الشاه !

فاضطرب غينكا وقال :

– اين ؟ اين ؟ اين مات ؟ ان هذا صحيح . . .

واضاف بصوت باك :

– أرأيت يا عمتى كيف خسرت لعبة مضمونة بسبب ملفوفك؟

فقالت أغريبينا تيخونوفنا وهى تتوجه نحو المطبخ :

– ليست مصيبة كبيرة !

سأل سلافا :

– لماذا تتناقر دائما انت وعمتك يا غينكا ؟

– أنا ؟ اتناقر ؟ لا تظن ذلك ! أتسمى هذا نقارا ؟ ان هـذا اسلوبها فى الحديث .

وبدأ يعيد ترتيب الأحجار على اللوحة وقال :

– هيا نلعب يا ميشا .

فأجاب ميشا :

– كلا ، لماذا الجلوس فى البيت ؟

فوضع غينكا الأحجار واغلق لوحة الشطرنج وانطلق الأولاد الى الفناء .

الفصل الثامن عشر

بوركا البخيل

حل شهر ايار الا ان الثلج لم يكن قد ذاب بعد فى الفناء الخلفى .

كانت اكوام الثلج المتراكمة فى الشتاء قد ترسبت وانضغطت وعلاها السواد ، الا ان الابنية المتلاصقة التى انتصبت بطوابقهـا الثمانية منعت عن هذه الثلوج اشعة الشمس التى كانت تتسلل احيانا الى الفناء وتغفو فى شريط ضيق على الاسفلت حيث رسمت مربعات بيضاء تقفز عليها البنات الصغيرات .

ارتفعت اشعة الشمس بعد ذلك وبكسل اخذت تتسلق الجدار اعلى فأعلى حتى اختفت وراء الابنية . اما شقوق الاسفلت المنتفخة فقد بقيت فترة طويلة تنفث من الارض رائحة ساخنة مزعجة .

كان الأولاد يلعبون بعملة نحاسية من عهد القيصر امـــــام الحائط ، فكان غينكا يبذل كل جهده ليبعد ما بين اصابعه عند قياس المسافة الواقعة ما بين قطعة نقده وقطعة نقد ميشا .

قال ميشا :

– كلا لن تتوصل الى ذلك ، انك لن تتوصل . . . هيا اضرب ايها البخيل ، لقد جاء دورك .

فغمغم بوركا وهو يسدد قطعة نقده نحو قطعة نقد سلافا :

– سنفعل ذلك ، لقد اصبتها !

غطت قطعة نقده المسطحة من فئة خمسة كوبيكات قطعة نقد سلافا . وتابع :

– ادفع كوبيكا ايها البرجوازى !

احمر وجه سلافا وهو يقول :

– لقد خسرت كل شيء . سأكون مدينا لك به .

فصاح بوركا :

– كيف انحشرت فى اللعب ؟ لا يمكن اللعب بالديْن هنا . هيا ادفع !

– لقد قلت لك انه لا يوجد عندى . سأسترد خسارتـــى واعطيك .

وهنا اختطف بوركا الخمسة كوبيكات الخاصة بسلافا وهـــو يقول :

– اذن هكذا ؟ عندما ترد الدين سأعيدها لك .

تورد خدا سلافا الشاحبـــان وقال بصوت مرتجف مـــن الاضطراب :

– من اعطاك الحق ؟ من اعطاك الحق فى عمل ذلك ؟

غمغم بوركا وهو يخفى الخمسة كوبيكات فى جيبه :

– ان ذلك يعنى ان لى كل الحق . ستعرف فى المرة القادمة .

مد ميشا يده بقطعة من فئة الكوبيك الى بوركا وهو يقول :

– خذ ، واعد له «الفن ». اما انت يا سلافكا فلا تلعب اذا لم يكن لديك نقود .
هز بوركا رأسه قائلا :
– لا لن آخذ ، لن آخذ من الغير . فليعطنى هو بنفسه .
– هل تريد الاستئثار به ؟
– ربما اريد ذلك .
– اعط الفن لسلافكا !
فاحتدم بوركا غيظا وغمغم :
– ما دخلك انت فى الأمر ؟ ولماذا تأمر ؟
اقترب ميشا حتى التصق ببوركا تماما وقال :
– ألن تعطيه ؟
صاح غينكا وهو يدنو من بوركا كذلك :
– اضربه يا ميشكا !
غير ان ميشا ابعده وهو يقول :
– انتظر يا غينكا ، سأتولى الأمر بنفسى . اسألك للمرة الأخيرة : هل ستعطيه ؟
وهنا تراجع بوركا خطوة وحول بصره وقال :
– خذ ، وليغص به .
رنت قطعة الخمسة كوبيكات التى القاها على الاحجار وتابع :
– يا له من مدافع عن الحقوق .
وانتحى جانبا وهو ينظر الى ميشا نظرة حقد . وانفرطت اللعبة .
جلس الأولاد قرب الحائط على الاسفلت الساخن يتدفأون تحت اشعة الشمس .
كان صوت رنين الاجراس الذى يصل من كنيسة القديس نيقولا فى زقاق بلوتنيكوف يضيع بين قمم الاشجار الذاوية ، وكانت الريح تلعب بالغسيل المنشور على الحبال المشدودة من شجرة الى اخرى وملاقط الغسيل الخشبية تهتز منحنية من جهة الى اخرى ، ووقفت امرأة جريئة على حافة نافذة فى الطابق الثالث تتمسك باطار النافذة وتغسل زجاجها .
جلس ميشا على مدافىء التدفئة المركزية التى صفت فى

الفناء وقد علاها الصدأ ، وكان ينظر الى بوركا بتهكم . لقد احبط الأمر ! لم ينجح فى اختلاس نقود الغير . ليس عبثا ان يطلق عليه لقب البخيل ! انه يبيع السجائر بالواحدة فى سوق سمولينسكى ويبيع كذلك السكاكر التى يلحسها بلسانه لكى تعطى بريقا . اما ابوه فيلين فيعمل امين مستودع وهو استغلالى كالابن تماما . . .

اما بوركا فقد كان يحدث الأولاد عن النطاطين وكأن شيئا لم يحدث :

– ان نطاطا كهذا يتلحف بملاءة ، – وتنشق بوركا بأنفه وتابع ، – يضع فى فمه مصباحا كهربائيا وفى قدميه «راسورات» . يقفز من الشارع الى الطابق الخامس مباشرة وينهب الجميع بالتتابع . يقفز من فوق البيوت ، وعندما يجرى رجال الميليشيا وراءه فانه بقفزة واحدة يصبح فى شارع آخر .

لوح ميشا بيده قائلا :

– دعنا منك يا هذا ! – قلد بوركا هازئا وهو يتابع :

– «النطاطون» . . . تحدث كذلك عن القبو ، عن امواتك .

اجاب بوركا :

– وماذا ؟ ان فى القبو امواتا يعيشون . لقد كانت هناك مقبرة فيما مضى . انهم يصيحون ويئنون فى الليل . ان ذلك مخيف جدا .

فاعترض ميشا بقوله :

– لا يوجد شيء فى قبوك . حدث جدتك عن كل هذا . تارة مقبرة «وتارة اخرى «اموات» . . .

اصر بوركا قائلا :

– يوجد مقبرة ، كما يوجد ممر تحت الارض يخترق موسكو كلها . لقد بناه ايفان الرهيب .

– ان ايفان الرهيب كان موجودا منذ اربعمئة سنة ، اما بنايتنا فكل ما لها من العمر هو عشر سنوات فقط . اكذب ولكن لا «تتخنها» .

ابتسم بوركا بخبث وقال :

– انا اكذب ؟ هيا نذهب الى القبو معا . سوف اريك الأموات والممر تحت الارض .

قال غينكا :
– لا تذهب يا ميشكا . سوف يوقعك فى مأزق وبعد ذلك يضحك عليك .
كانت هذه احدى حيل بوركا المعروفة . لقد كان الوحيد بين الأولاد الذى يعرف القبو طولا وعرضا وهو مكان ضخم مظلم يقع تحت البناية . وكان يقود احد الأولاد الى هناك ثم يصمت . ويناديه مرافقه فى الظلام الا ان محاولاته تضيع عبثا لأن بوركا لم يكن يجيب الا بعد ان يعذب ضحيته ويحصل على رشوة ما ثم يدله بعد ذلك على طريق الخروج من السرداب .
وتابع غينكا الذى كان قد وقع فى هذه الاحبولة :
– ازحف بنفسك فى قبوك فلا يوجد هنا حمقى .
قال بوركا وهو يتصنع عدم الاكتراث :
– كما تشاؤون . انكم خائفون .
فهب ميشا قائلا :
– من تقصد بذلك ؟
– اقصد الذين يخافون الذهاب الى القبو .
وهنا نهض ميشا واقفا وقال :
– اذن هكذا . . . هيا بنا !
هبطا الى القبو وهما يتلمسان الجدران الزلقة بحذر . سار بوركا فى المقدمة وميشا من خلفه . كان التراب ينهال تحت اقدامهما وترن احيانا قطع الصفيح والزجاج .
كان ميشا يفهم جيد الفهم ان بوركا يريد ان يضحك عليه . حسنا ، سنرى من سيضحك على الآخر .
وهكذا كان يتحركان فى الظلام ، وعندما بدا انهما اصبحا فى اعماق القبو سكت بوركا فجأة .
«ها قد بدأ» ، فكر ميشا وسأل وهو يحاول التكلم باكثر ما يمكن من الهدوء :
– هل سيظهر امواتك قريبا ؟
تردد صوته فى السرداب وتلاشى فى مكان ما من الزوايا غير المرئية .

لم يجب بوركا ، الا ان ميشا كان يشعر بوجوده فى مكان قريب جدا ، ولكنه لم يناده بعد ذلك .

مرت بضع دقائق ثقيلة حبس فيها الولدان انفاسهما . كان كل منهما ينتظر ان ينبئ الآخر عن نفسه . ثم استدار ميشا عائدا الى الوراء وهو يتلمس المنعطفات بيديه . حسنا ، سيجد طريقه بنفسه وعندما يخرج سيغلق الباب ويبقى بوركا هنا نصف ساعة من الزمن .

بينما كان ميشا يسير سمع وراءه حفيفا . ان بوركا قد انسل وراءه . اجل ، انه لم يستطع الصمود ! انه لا يريد البقاء لوحده .

تابع ميشا السير فى القبو . لا ! انه لا يسير فى الطريق الصحيح ! يجب على الممر ان يصبح اكثر اتساعا ، بينما هو يضيق فى الواقع . غير ان ميشا كان يسير ويسير . كيف يستطيع بوركا الرؤية فى مثل هذا الظلام ؟ واذا تركه بوركا هنا لوحده ولم يستطع ان يجد الطريق ؟ انه لأمر مرعب على كل حال .

اصبح الممر ضيقا تماما بحيث كان كتفا ميشا يمسان حائطيه . توقف . هل ينادى بوركا ؟ ابدا . . . رفع يده فلمس انبوبا حديديا باردا . كان الماء يخر فى مكان ما . ارتفع فوق رأسه فجأة صوت خفيف فخيل اليه ان ضفدعة هائلة قد قفزت عليه فاندفع الى الأمام وهوى الى اسفل . . .

نهض بعد ان ذهبت آثار المفاجأة . ان سقوطه لم يسبب له اى اذى . الا ان المكان هنا كان اكثر اضاءة فقد كانت الجدران الرمادية غير المستوية ترى بصعوبة . كان ذلك ممرا ضيقا أوطأ بحوالى اربعين سنتيمترا من الممر الذى كان ميشا يسير فيه ويتعامد معه .

بدأ خيال بوركا فى الأعلى وكان يصيح :

– ميشكا – آ – آ ! ميشا ! اين انت ؟

لم يجب ميشا . حسنا ! لقد تكلم اخيرا ! فليبحث .

صاح بوركا قلقا :

– ميشا ، ميشـــا ، اين انت ؟ لماذا لا تجيب ؟ ميشـ . . .

سأله ميشا :

– اين النفق الذى تكلمت عنه ؟ اين الأموات ؟ ارنى اياهم !

قال بوركا هامسا :

- ان هذا هو النفق ، الا انه لا يمكن التقدم اكثر لأن التوابيت نفسها بأمواتها هناك .

الا ان ميشا تقدم في الممر وهو يقول هازئا :

- اكاد اموت رعبا من امواتك ! . .

فأمسك به بوركا من كتفه وقال هامسا :

- انظر يا ميشكا ، اقول لك هيا بنا نعود من حيث جئنا والا كانت العاقبة وخيمة . . .

- اتخيفني ؟!

- اننا بدون مصباح يدوى لن نرى شيئـــا على كل حال . سأحصل على مصباح غدا وعندئذ نذهب .

- انى اعرفك !

- فلتبتلعني الأرض هنا اذا كذبت ! اذا لم تعد فاني سأذهب ولن ارجع . ولتهلك انت هنا .

- انى اكاد اموت رعبا ! - قال ميشا ذلك ، الا انه انســل خلف بوركا .

خرجا من القبو فأغلقا عيونهما من وهج الشمس الساطعة ، فقال ميشا :

- لا تنس ، غدا صباحا .

فأجاب بوركا :

- لقد اتفقنا .

الفصل التاسع عشر

شوركا الكبير

ظهر في الفناء الخلفي شورا أغوربيف الذى اطلق عليه الأولاد لقب شوركا الكبير لأنه اطول ولد في الفناء وكان يعتبر فنانا عظيما وهو عضو في حلقة النادى التمثيلية . كان هذا النادى يقع في قبو البناء رقم واحد ويتبع اللجنة المسؤولة عن البناء . لم يكن يسمح للأولاد بدخول النادى ما عدا شوركا الكبير الذى كان يختال كثيرا بذلك .

حياه ميشا بقوله :

– اهلا بعمود الكهرباء !

اجابه شورا :

– لقد ظننت انك اجتزت دور الطفولة .

فقال غينكا :

– لقد اصبحت جديا ! اين ادبوك هكذا ؟ أفى النادى ؟

– فلنقل فى النادى .

قال شورا ذلك وصمت برهة ثم تابع :

– ولكنه لا يسمح بدخول النادى الا للبالغين .

قال ميشا :

– تأمل ، اى بالغ انت ! لقد نموت طويلا كالعمود ، لذلك يسمح لك بالدخول .

فأعلن شورا :

– انى عضو نشيط فى النادى .

فقال سلافا :

– لا يسمح لنا بدخول النادى لأننا غير منظمين ، ولكن يقال ان فى منطقة كراسنايا بريسنيا فرقة للفتيان الشيوعيين ويوجد لديهم ناديهم الخاص بهم .

فصادق شورا على ذلك قائلا :

– نعم يوجد . ولكن يطلق عليهم اسم آخر لا اذكره . وهو للصغار اما البالغون فينتسبون الى الكومسومول .

كان شورا يلمح الى انه يتردد على الخلية الكومسومولية الموجودة فى المصنع ويعتزم الانتساب الى الكومسومول .

قال ميشا مفكرا :

– يا للروعة . . . ان للأولاد فرقتهم !

فقال غينكا :

– انهم الكشافة بلا شك . انك تخلط بينهم وبين آخرين يا سلافكا .

– انا لا اخلط . ان الكشافة يرتدون ربطات زرقاء اما هؤلاء فيرتدون ربطات حمراء .

اعاد ميشا السؤال :

– حمراء ؟ اذا كانت حمراء فان ذلك يعنى انهم مع السلطة السوفييتية . كيف يمكن للكشافة ان يكونوا فى كراسنايا بريسبنيا وهى اكبر منطقة للعمال .

– بالتأكيد ! – قال شورا ذلك واضاف بتردد :

– ان لدى كل واحد منهم بطاقة عضوية . . .

مط ميشا بكلامه وهو يعيد القول :

– يا للروعة ! . . كيف لم اسمع بذلك من قبل ؟ من اين تعرف ذلك يا سلافكا ؟

– ان احد الأولاد فى المدرسة الموسيقية قد تحدث عن ذلك .

– وكيف لم تعرف بالضبط ما هو اسم ناديهم واين يقع ومن يقبلون ؟ . .

قهقه شورا وقال :

– «يقبلون» ! اتظنون انه «حمل حالو وانتسب» . اتظن انهم يقبلونك بهذه البساطة ؟

– ولماذا لا يقبلون ؟

هز شورا رأسه هزات تحمل معان خفية وقال :

– ليس الأمر بهذه البساطة ! يجب على المرء اظهار مواهبه اولا .

– وكيف يظهر ؟

قام شورا بحركة غير معينة وقال :

– بوجه عام ، اظهار مواهبه . . . كما يعمل البعض مثلا : يعملون فى النادى ويترددون على اجتماعات الكومسومول . . .

فقاطعه ميشا قائلا :

– حسنا يا شوركا ، لا يجب الانتفاخ زيادة عن اللزوم ! اننا نسمع منك جعجعة كثيرة ولكننا لا نرى طحنا .

– وماذا تعنى بذلك ؟

– ان الكومسومولين قاتلوا فى الجبهة ، اما انت فماذا فعلت ؟ تقف خلف الكواليس وتلعب دور كومبارس . . . الأفضل لك ان تجيب : هل تريد ان تكون مخرجا ؟

– كيف ذلك – مخرجا ؟ ان لدينا مخرجا هو الرفيق ميتيا ساخاروف .

– انه مخرج فى الحلقة المسرحية للكبار اما نحن فنؤسس فرقة للأطفال ، وعند ذلك سيسمحون لكل الأولاد بالدخول الى النادى . سنخرج مسرحية نخصص دخلها لصالح الجياع فى حوض الفولغا ، وهكذا نظهر مواهبنا .

قال سلافا :

– تماما ! ويمكن كذلك تشكيل حلقة موسيقية وبعد ذلك حلقة غناء جماعى وحلقة للرسم .

هز شورا رأسه بشك الا ان عينيه كانتا تشعان رغبة بان يكون مخرجا وقال :

– انهم لن يسمحوا لنا . . .

اصر ميشا قائلا :

– سيسمحون لنا . لنذهب الى الرفيق ميتيا ساخاروف ونقول له بأننا نريد تشكيل حلقة مسرحية لنا . اهل يستطيع منعنا من ذلك ؟

صاح بوركا الذى كان يجمع الزجاجات الفارغة من حفرة القاذورات :

– سيطردكم شر طردة !

اجابه غينكا مهددا بقبضته :

– لا تتدخل فيما لا يعنيك ! بع سكاكرك .

استمر شورا يقول حالما :

– طبعا ، ان ذلك ليس بالأمر السيىء . ولكن مواهبى ليست فى الاخراج بل فى التأدية . . .

قال ميشا :

– رائع ، ستقوم بتأدية دور المخرج .

وافق شورا قائلا :

– حسنا ، على شرط واحد هو ان تطيعونى فى كل شىء . ان الطاعة هى الأمر الرئيسى فى الفن . ستقوم انت يا غينكا بدور الأجدب وانت يا سلافا ستقوم بدور البطل والقضايا الموسيقية طبعا . اما ميشا فأقترح ان يكون مديرا . اما دور الفتاة البسيطة وغيره من الأدوار فسأقوم بتوزيعها بعد التجربة .

الفصل العشرون

النادى

كان النادى يتكون من قاعة للمتفرجين فقط . وعندما لا يكون هناك تمثيليـــة او اجتماع للسكان تنقل المقاعد الى جانب واحد وتبدأ الحلقات بالعمل فى زوايا النادى المختلفة .

كانت ربات البيوت والخادمات يتعلمن فى لجان محو الامية ، وعلى خشبة المسرح كانت تجرى بروفات الحلقة المسرحيـة اما فى وسط القاعة فقد كان لاعبو البليارد يصيبون بعصيهم موسيقيـى فرقة الآلات الوترية .

وكان يرأس جميع هؤلاء الرفيق ميتيا ساخاروف مدير النادى والمخرج الذى كان شابـــا يافعـــا دائم الانشغال يرتدى قميصا فضفاضا طويلا من المخمل ذا لون ضارب الى الحمرة وعقدة سوداء لامعة وبنطالا ضيقا . كان له انف طويل و«جوزة حلق» حادة تكاد تشق حلقه من الداخل ، وبأصابع منفرجة كان دائما يطرح عن وجهه خصلات شعره المستوى الطويل ذى اللون غير الواضح .

دفع شورا بميشا الى الأمام وهو يقول :

— تكلم ، فانك المدير ، — وانحنى جانبا بشكل بدا فيـه وكأنما لا يد له فى الأمر ويضحك من اللهو الصبيانى .

تمتم ميتيا ساخاروف بعد ان استمع الى ميشا :

— ايوه . . . ليس لدى هنا مدرسة مسرحية بل هيئة ثقافية .

ايوه . . . هيئة ثقافية بين براثن لجنة البناية .

واتجه نحو خشبة المسرح حيث سمع صوتـــه الباكى بعد قليل :

— اندمجى فى الدور ايتهـــا الرفيقـــة باراشينـــا ، تقمصى الشخصية . . .

عاد ميشا الى الأولاد وقال لهم :

— لا فائدة . لقد رفض . ان لديه هيئة ثقافية بين براثن لجنة البناية وليس مدرسة مسرحية .

قال شورا :

– لقد كنت اعلم ذلك !

فأجاب ميشا غاضبا :

– انت دائما «كنت تعلم ذلك» !

وقف الأولاد مفكرين . كانت كرات البليـارد تتطارق بقوة وفرقة الآلات الوترية تتدرب على عزف المارش التركى لموزار ومن اعلان على الحائط اطل عجوز نحيل باسطا يدا هزيلة وقد كتب على الاعلان : «ساعدوا الجياع فى حوض الفولغا !» وكانت عيناه تشتعلان ببريق مضطرب ، تلاحقان الناظر الى الاعلان فى اى مكان يقف فيـه وكأنما يدير العجوز رأسه .

قال ميشا :

– يوجد حل آخر .

– وما هو ؟

– الذهاب الى الرفيق جوربين .

فلوح شورا بيده وهو يقول :

– ها ها ، اتظن ان عضو مجلس بلدية موسكو سيهتـم بحلقتنا ؟ لن اذهب اليه . وفى شقته تلك الامرأة القبيحـة اضافة الى ذلك .

قال ميشا :

– اما انا فسأذهب . ان النادى فى نهاية الأمر ليس ملكا خاصا لميتيا ساخاروف . هيا بنا يا غينكا !

ارتقى الولدان درجا عريضا افضى بهم الى حيث يقطن جوربين فى الطابق الرابع . دق ميشا جرس الباب بينما وقف غينكا منتظرا على الدرج . كان خائفا بشكل انه اندفع هابطـا وهو يجتاز ثلاث درجات فى كل قفزة عندما سمع صوت حركة خلف الباب . فتحـت الباب جارة جوربين ، وهى امرأة عجفاء طويلة القامة ذات وجه غاضب واسنان طويلة بارزة .

سألت ميشا :

– ماذا تريد ؟

– اريد مقابلة الرفيق جوربين .

– لماذا ؟

– من اجل قضية .

– هاك قضية اخرى ! يتسكعون هنا . . .
تمتمت بذلك وصفقت الباب بشدة حتى كادت ان تطبقه على انف ميشا .
– ايتها المرأة القبيحه ! – صاح ميشا واندفع هابطا الدرج .
هبط الدرج متدحرجا تقريبا فاصطدم بشخص ما من قـوة الاندفاع . وعندما رفع رأسه وجد نفسه امام الرفيق جوربين .
– ما هذا ؟ لماذا هذه «العفرتة» ؟
وقف ميشا مطرق الرأس .
سأله جوربين :
– ماذا ؟ هل انت اطرش ؟
– ك – كلا .
– لماذا لا تجيب ؟ حاذر ان «تعفرت» مرة اخرى . قال هذا وصعد الدرج ببطء وهو يخطو خطوات ثقيلة .
واصل ميشا الهبوط متثاقلا . لم تجر الامور بشكل حسن ! وترامى الى سمعه صوت خطوات جوربين الثقيلة من فوق ثم هدأت الخطوات وارتفع صوت صرير المفتاح فى القفل تلاه صوت البـاب وهو يُفتح . توقف ميشا ثم استدار وهو يصيح : «ايها الرفيـق جوربين ، دقيقة واحدة !» واندفع صاعدا .
كان جوربين يقف امام الباب المفتوح .
– ماذا تريد قوله ؟
قال ميشا وهو يلهث :
– ايها الرفيق جوربين ، نحن نريد تشكيل حلقة مسرحيـة ولكن الرفيق ميتيا ساخاروف لا يسمح لنا بذلك .
– ومن هؤلاء «نحن» ؟
– نحن جميعا ، الأولاد فى الفناء .
تابع جوربين النظر الى ميشا ثم اهتز شارباه بحبث وظهرت ابتسامة على وجهه . لم يجب بشىء بل وقف مبتسما وهو ينظر الى عينى ميشا الزرقاوين . ولم يعرف ميشا بماذا كان يفكر ولمـاذا يبتسم هذا الرجل البدين المتقدم فى العمر الذى يعلق على صدره وسام الراية الحمراء .
تكلم جوربين اخيرا وقال لميشا :

- فلندخل اذن ولنتكلم .
دخل ميشا الشقة وراء جوربين . نظرت الامرأة القبيحة بغضب الى ميشا ولكنها لم تقل شيئا .

الفصل الحادى والعشرون

البهلوانيون

خرج ميشا من عند جوربين بعد مرور حوالى نصف ساعة ، وجرى الى الفناء فوجد هناك حشدا كبيرا من الناس يتفرجون على عرض تقوم به فرقة جوالة .
كان البهلوانيون الذين يقدمون العرض يتألفون من صبى وفتاة صغيرة يرتديان لباسين رياضيين أزرقين ويتقمطان بوشاحين احمرين ومعهما رجل حليق يرتدى كذلك لباسا رياضيا أزرق ويصيح بهما «يالّلا !» .
كان الطفلان ينثنيان بشكل رائع ، وبشكل خاص الفتاة الصغيرة التى كانت نحيلة ممشوقة القوام ذات عينين زرقاوين تحت اهداب معقوفة . كانت تنحنى برشاقة ثم تجرى لتتشقلب على البساط الممدود وهى تنفض شعرها الكتانى اللون وكأنها تنفض عن وجهها ابتسامتها المعتادة .
ووقف الى جانبهم جحش ربطت اليه عربة لها عجلتا دراجة هوائية . وعلى العربة ثبتت لوحتان من الخشب المعاكس بشكل مائل وقد كتب عليها :

٢ بوش ٢
عرض بهلوانى
٢ بوش ٢

كان الجحش يقف ساكنا ينظر فقط بطرف عينه الى الجمهور ويحرك اذنيه الطويلتين بشكل مضحك .
انتهى العرض فالتفت الرجل الحليق نحو الجمهور وقال بأنهم

ليسوا بالشحاذين وانما هم فنانون . الا ان الظروف ارغمتهم على التجول فى الأفنية ، وهو يطلب من الجمهور الكريم ان يدفع كل حسب مقدرته لقاء ما شعر به من سرور .

طافت الفتاة الصغيرة والصبى على الجمهور وبيد كل منهما صحن من الألومنيوم . وكان الناس من النوافذ يلقون اليهما بقطع النقود ملفوفة فى الورق . وكان الأولاد يلتقطون هذه الأوراق ويعطونها الى البهلوانيين . وقد التقط ميشا ايضا ورقة فيها قطعة نقود ووقف منتظرا حتى تصل الفتاة الصغيرة اليه .

اقتربت منه وتوقفت امامه وهى تبتسم ، فارتبك ميشا ووقف دون حراك . فدفعت الفتاة الصغيرة بالصحن فى صدره بلطف قائلة :

– ماذا ؟

فعاد ميشا الى نفسه والقى بالورقة فى الصحن . ابتعدت الفتاة الصغيرة والتفتت الى ميشا وهى تبتسم . وعندما تفرق الجمهور من حول البهلوانيين وغادر الفناء نظرت الفتاة الصغيرة الى ميشا وهى امام البوابة وابتسمت من جديد .

دفع احدهم بميشا فى ظهره فاستدار ليجد شورا وغينكا وسلافا واقفين بالقرب منه .

سأله شورا :

– ماذا قال لك جوربين ؟

فبسط ميشا يده وفض الورقة وهو يقول :

– هاكم ، اقرأوا !

ما هذا ؟ كان هناك قطعة نقدية ذات عشرة كوبيكات فى الورقة المدعوكة المائلة السطور . لقد كان الأمر هكذا ! انه اعطى الفتاة الصغيرة رسالة جوربين بطريق الخطأ .

فمط شورا بكلامه متهكما وهو يقول :

– أهذا هو كل ما اعطاك ؟ عشرة كوبيكات ؟

اندفع ميشا خارجا من البوابة وانطلق الى الفناء المجاور .

كان البهلوانيون قد انهوا عرضهم . وعندما بدأت الفتاة بالطواف على الجمهور اقترب ميشا منها ووضع عشرة كوبيكات فى الصحن وقال لها بارتباك :

– لقد اعطيتك بطريق الخطأ ورقة اخرى . اعيديها لى من فضلك . انها رسالة هامة .

قهقهت الفتاة وهى تقول :

– اية رسالة ؟ ومن اين لك بهذه الندبة على جبينك !

فأجابها ميشا بجفاف :

– انه امر لا يخصك . انها من صنع رجال الحرس الأبيض . اعيدى لى الرسالة .

– انك من اصحاب المشاكل على الأرجح .

فكرر ميشا بوجوم :

– اعيدى لى الرسالة .

قالت الفتاة الصغيرة وهى تهز بكتفيها :

– يا لك من مضحك ! انى لم أر رسالتك ابدا ! .. لعلها عند بوش ... انتظر قليلا .

انتهت طوافها على المتفرجين وأسرت بشىء ما للرجل الحليق وهى تناوله النقود . غير انه لوح برأسه متأففا ولكنها اصرت ، حتى انها ضربت الارض بقدمها ذات الخف الحريرى . عند ذلك مد الرجل الحليق يده فى كيس صغير من القماش وهو يتذمر مقطب الوجه ، وبحث هناك طويلا ثم اخرج من الكيس ورقة مطوية اربع مرات ، كانت هى نفسها التى اعطاها جوربين لميشا . اختطف ميشا الورقة اختطافا وركض متجها نحو فنائه . نظرت الفتاة الصغيرة فى أثره وضحكت . وخيل لميشا ان الجحش قد هز رأسه كذلك وكشر عن اسنانه الصفراء الطويلة هازئا .

الفصل الثانى والعشرون

سينما «آرس»

كتب على ورقة بيضاء بالقلم الرصاص :

«ايها الرفيق ساخاروف ! يجب تأييد مبادرة الأولاد . ان العمل مع الأطفال قضية هامة للنادى بشكل خاص . ارجوك مساعدة اطفال بنايتنا فى تشكيل حلقة مسرحية .

جوربين»

قال شورا :

– كل شيء على ما يرام . لقـــد كنت اعلـــم ان جوربين سيساعدنـا . غدا سنعقد اجتماعـا تنظيميـا ، اما الآن فمـع السلامة . . . انى مستعجل لحضور الاجتماع . . .

قال غينكا بعد ذهاب شورا :

– آخ «قديش شايف حالو» ! انهم بانتظاره على احر من الجمر فى الاجتماع . لو انه يُضرب كما يجب حتى لا ينتفخ !

كان ميشا وغينكا وسلافا يجلسون على الدرجات الحجريـة لمخرج سينما «آرس» . وقد تغطت الأشياء بعتمة المساء الرمادية ما عدا غطاء فوهة الحريق المصنوعة من حديد الصب ، فقد تراءت سوداء اللون وسط الفناء .

وتصاعـد فى هدأة الليـل صوت اوتار الغيتار وسمع صوت ضحكات نسائيـة عاليـة . كان شارع الأربات يضج بآخر اصوات المساء التى كانت مسرعة خافتة .

قال غينكا :

– اتعرفون يا اولاد انه يمكن الدخـــول الى السنمـــا مجانا .

اجاب ميشا :

– اننا نعرف ذلك . يجب حمل لوحـة الدعاية طوال اليوم . . . انه لأمر ممتع جدا !

تمطق غينكا بلسانه وهو يقول :

– لو ان لدينا عربة كعربة البهلوانيين لحملنا عليها لوحـة الدعاية . . . انه لأمر حسن !

فتابع ميشا كلام غينكا قائلا :

– صحيح ، وانت فى مكان الجحش .

فقال سلافا :

– لا يوجد جحاش حمراء .

فقال غينكا :

– اضحكا ، اضحكا ، بينما بوركا سيؤجر نفسه لحمل لوحة الدعاية وسيدخل السينما مجانا .

قال ميشا :

– ان بوركـا لن يؤجر نفسه . انـه يضارب بالطوابـع البريدية الآن . انه لأمر ممتع معرفة المكان الذى يحصل منه على الطوابع !

قال غينكا :

– انـا اعرف من اين . من عند بائع الطوابـع العجوز فى اوستوجينكا .

قال ميشا مندهشا :

– حقا ؟ انى لم أره هناك ابدا .

– ولن تراه . انه يدخل من الفناء ، من المدخل الخلفى .

اندهش ميشا وقال :

– عجيب ! هل يسرق الطوابع يا ترى ؟ انـه يبيعهـا بثمن بخس . . .

قال غينكا :

– ان هذا ما لا اعلمه . انى اعلم فقط انه يذهب الى هناك . لقد رأيته بنفسى . . .

فقال ميشا :

حسنا ، دعونـا منه . استمعـا : لقد حدثنى جوربين عن اولئك الأولاد من حى كراسنايا بريسنيا . انهم يدعون بـ«الرواد الأحداث» .

فسأل غينكا :

– وماذا يفعلون ؟

– كيف – ماذا ؟ ان ذلك منظمة شيوعية للأطفال . اتفهـم ؟ شيو – عية . وهذا يعنى انهم شيوعيون . ان كل شىء لديهم على الطريقة العسكرية .

سأل غينكا :

– وهل لديهم بنادق ؟

– وكيف لا ! أتعلـم اى اولاد هم ؟ يا سلام ! هذا ما قالـه جوربين بالحرف الواحد : «انشغلوا بحلقتكم وقوموا بزيارة النادى وعندئذ تصبحون روادا» .

– أهذا ما قاله ؟

5—2420

– هذا ما قاله .
سأل سلافا :
– واين توجد هذه الفرقة ؟
– فى منطقة كراسنايا بريسنيا ، وتتبع المطبعة .
فقال سلافا :
– انه لأمر حسن الذهاب للتفرج !
فوافق ميشا :
– ممكن . يجب فقط معرفة العنوان تماما .
صمت الأولاد ولاحت لهم من خلال ابواب الخروج المفتوحة صفوف المتفرجين السوداء ومن فوقهم اشعة جهاز العرض الناصعة البياض .
مرت امام الأولاد آللا سيرغييفنا ام سلافا وهى امرأة جميلة انيقة . نهض سلافا عندما رآها .
قالت وهى تشد القفازين على يديها :
– سلافا ، حان وقت العودة الى البيت .
– سأذهب قريبا .
– ستقدم لك داشا طعام العشاء ثم اذهب للنوم .
وابتعدت تاركة وراءها رائحة عطرية . قال سلافا :
– لقد ذهبت ماما الى حفلة غنائية . هيا بنا الى السينما ! انهم يعرضون اليوم القسم الثانى من فلم «الشياطين الحمر» .
– ومن اين النقود ؟
فاضطرب سلافا وهو يقول :
– ان لدى روبلين من اجل النوتات الموسيقية .
فصاح به غينكا :
– اين تستطيع شراء النوتات الآن ؟ ان كل الدكاكين قد اغلقت ابوابها .
اجاب سلافا جوابا معقولا :
– استطيع شراءها غدا .
– غدا سنرى . لا يجب ابدا تأجيل اى شىء الى الغد . اذا كان بالامكان الذهاب الى السينما اليوم فهذا يعنى انه يجب الذهاب . . .

ازدحم فى الصالة الضيقة المسرحون بعمراتهم ومعاطفهم العسكرية والعاملات اللواتى ارتدين الاشاربات على رؤوسهن والشباب بقمصانهم الروسية وجاكتاتهم وبناطيلهم المنفوخة .

سمرت على الجدران اللافتات بالتناوب مع الاعلانات القديمة وصور مشاهير نجوم السينما . وعلى اللافتات صورة لجندى من الجيش الأحمر يرتدى قبعة فرسان بوديونى ويشير بسبابته وقد كتب على اللافتة : «ألست فارا من الجندية ؟» . وفى واجهة وكالة البرق الروسية الساخرة* كتبت اسطر من اشعار ماياكوفسكى باللون الأحمر تحت مربعات من الصور . وفوق المقصف الذى يبيع قطع الكاتو اليابسة والسكاكر الرخيصة علقت لوحة كتب عليها «الجميع لمكافحة تشرد الأطفال !» .

دوى صوت الجرس .

تسارع الجمهور الى القاعة لاحتلال افضل الأمكنة وانطفأتالانوار وبدأ جهاز العرض يدور وهو يصدر ازيزا عنيفا . وانتشر فى القاعة صوت الموسيقى المرافقة مملا رتيبا الصادر عن بيانو محطم . وازدحم المتفرجون على المقاعد الطويلة الضيقة يتهامسون ويفصصون بزر دوار القمر ويدخنون وهم يخفون السجائر فى اكمامهم . . .

انتهى عرض الفلم فخرج الأولاد الى الشارع ، الا ان افكارهم بقيت هناك ، مع «الشياطين الحمر» ومغامراتهم المدهشة . انهم كومسوموليون حقيقيون ! للأسف ان ميشا كان فى ريفسك صغيرا بعد ! انه يعرف الآن كيف يتخلص من نيكيتسكى . . .

لقد انتهى اليوم الأول من العطلة وآن الآوان للعودة الى البيت . لقد اظلمت الدنيا تماما فى الشارع ما عدا المدخل المضىء لسينما «آرس» الذى كان يهتز على الرصيف وكأنه يراعة كبيرة . وخلف الشبكة الحديدية كانت تبدو الصور الباهتة وقماش الاعلانات الممزق يرتطم بالأبواب .

---

* وكالة تاس السوفييتية حاليا . **(المترجم)** .

الفصل الثالث والعشرون

الحلقة المسرحية

جاء ميشا الى الفناء فى اليوم التالى فشاهد البواب العم فاسيلى وهو خارج من المخرج الخلفى يحمل مطرقة ومسامير .

القى ميشا نظرة الى هناك فوجد الفتحة المؤدية الى القبو مغلقة بالواح كبيرة من الخشب . يا للمشكلة ! عاد الى الفناء وهو يخمن .
كان العم فاسيلى يرش الاسفلت من خرطوم غليظ .

قال ميشا :

– اعطنى الخرطوم يا عم فاسيلى لكى ارش !

كان العم فاسيلى منحرف المزاج لأنه قال :

– انكم كثيرون هنا ايها الرشاشون ! شقاوة لا غير .

عاد ميشا الى السؤال بحذر :

– ماذا بك يا عم فاسيلى ، هل خطر ببالك ان تصبح نجارا ؟

قال البواب وهو يهز الخرطوم فأصاب سيل الماء نوافذ الطابق الثانى :

– اتفهم ؟ فيلين قلق على مستودعه اما انا فعلى ان اسمّر . يمكن للصوص ان يتسللوا الى مستودعه من خلال القبو اما انا فعلى ان اسمّر . لا يوجد فى المستودع الا الحديد اما انا فعلى مرة اخرى ان اسمّر . شقاوة لا غير !

اذن ها هو السر ! لقد أمر فيلين بسد مدخل القبو . لا بد ان هناك شيئا . ليس صدفة ان بوركا لم يتركه فى السرداب امس . . . ان كل هذا ليس عبثا !

كان بوركا يبيع السجائر امام مدخل البناية فاقترب منه ميشا وهو يقول :

– هيا بنا الى القبو !

فابتسم بوركا مكشرا عن اسنانه وقال :

– ان المدخل مسدود .

– ومن أمر بسده ؟

فتنشق بوركا بأنفه وأجاب :

– شيء معروف ، لقد أمر مدير البناية بذلك .
فسأل ميشا مستقصيا :
– ولماذا أمر بذلك ؟
فحاكاه بوركا متهكما :
– «علام» . . . «لماذا» . . . حتى لا يهرب الأموات ، لهذا فعل ذلك . . . – وابتعد بوركا راكضا الى جانب وتابع : – وحتى لا يتسكع الحمقى من امثالك فى القبو !
فأخذ ميشا بملاحقته الا ان بوركا اختفى فى المستودع بسرعة فرفع ميشا قبضته مهددا ثم توجه الى النادى .
عملت رسالة جوربين عملها فخصص ميتيا ساخاروف مكانا للأولاد ، غير انه حذرهم بأنه لن يعطيهم كوبيكا واحدا .
وقال لهم :
– ان المبدأ الرئيسى فى الفن هو انه يغطى نفقاته بنفسه . تعودوا على العمل دون اعانات مالية .
وتحدث كذلك عن اشياء اخرى كثيرة غير مفهومة .
اجرى شوركا الكبير الاختبارات على الراغبين فى الانتساب الى الحلقة المسرحية ، وحملهم على تلاوة قصيدة «المتنبىء» الشعرية لبوشكين . الا ان احدا لم يتل القصيدة كما يجب ، فقام شورا نفسه بتلاوتها امامهم . وعندما وصل الى البيت الذى يقول : «واقتلع لسانى الآثم من مكانه» – اتخذ وجهه شكلا وحشيا وقام بحركة مخيفة وكأنه يقتلع لسانه بنفسه ويلقيه على الدرج . وقد نجح فى اداء ذلك نجاحا كبيرا ، لدرجة ان فوفكا بارانوف الصغير ، الملقب بـ «المأماء» كان ينظر الى فم شورا طوال الوقت لكى يتأكد من وجود لسانه فى مكانه .
انتهت الاختبارات فبدأ باختيار التمثيلية .
قال سلافا مقترحا :
– «ايفانوف بافل» .
فرفض شورا قائلا :
– لقد سئمنا منها ، سئمنا منها كثيرا ! لقد اصبحت هذه التمثيلية مبتذلة حقيرة . – وحرك وجهه حركات غريبة وبدأ يتلو :

لما هرب ، كير الهائل
ملك الفرس
مثل النعامة ، شق اللامة
كسر الترس

نحن نعرف كير هذا ! . . لن يمشى الحال .

استقر رأيهم بعد مناقشات طويلة على تمثيلية شعرية عنوانها «الفلاح الغنى والأجير الزراعى» ، وهى عن الولد فانيا الذى يعمل اجيرا زراعيا لدى الفلاح الغنى باخوم .

اخذ شورا دور الفلاح الغنى لنفسه وغينكا دور الولد فانيا اما دور الجدة فقد اعطى لزينا كروغلوفا وهى بنت بدينة تضحك كثيرا وتقطن فى المدخل رقم واحد من البناية .

لم يشترك ميشا فى الاختبارات بل جلس امام لوحة الشطرنج واضعا يده تحت ذقنه يفكر فى القبو .

لقد خدعه بوركا عمدا . لقد حدث اباه فيلين بالأمر ، فأمر الأب باغلاق مدخل القبو .

ما هو الخطر الذى يهدد المستودع حيث يحتفظ عادة بالماكنات القديمة والاجزاء التابعة لها ؟ ان هذه الاجزاء متناثرة فى الفناء دون حماية ، فلا احد يحتاج اليها . من يتسلل الى هناك وخاصة عبر القبو ، حيث يجب الحبو على اربع ؟ . .

لعل فيلين هذا هو نفس فيلين الذى حدثه عنه بوليفوى ؟ تذكر ميشا وجهه الضيق ، المفلطح تماما من الجانبين وعينيه الصغيرتين المتفحصتين . وقد جاء مرة الى بيت ميشا فى الشتاء واعطى ماما كيسا صغيرا من الطحين الأسمر قايضه ببدلة كحلية مع صدرية لم يلبسها بابا الا قليلا . وقد تفحص فيلين كل شىء كى يقايض به ايضا ، وجالت عيناه الصغيرتان انحاء الغرفة كلها . وعندما قالت ماما ان البدلة تعز عليها لأنها آخر تذكار تركه بابا قال لها فيلين : «أتريدين كبسها مخللا لكى تأكليها بعد ذلك ؟» فتنهدت ماما ولم ترد بشىء .

يجب حتما توضيح ماهية الأمر . فليكف بوركا عن الظن بأنه اوقع بميشا بهذه السهولة .

احاط ميشا النادى بنظرة فاحصة .

ألا يمكن الوصول الى القبو من هنا ؟
ان النادى يقع فى القبو كذلك . والحقيقة انه يقع فى قبو مبنى آخر ، ولكن هذا لا يهم . من المرجح ان الأقبية تتصل ببعضها البعض بشكل ما .
طاف ميشا بالنادى وتفحص جدرانه بدقة ونظر وراء اللوحات والرسومات المعلقة وتسلل وراء الخزائن ولكنه لم يجد شيئا . وخلف الكواليس شبه المظلمة لاحت الديكورات المسنودة الى الحائط : اشجار البتولا ذات الجذوع البيضاء والسوداء المصنوعة من الخشب المعاكس وواجهة بيت قروى رُسمت عليها الشبابيك وغرفة فيها ساعة وفيها منظر يطل على نهر .
ابعد ميشا الديكورات محاولا الوصول الى الحائط الا ان الرفيق ميتيا ساخاروف ظهر فجأة خلف الكواليس وصاح بميشا :
– بولياكوف ! ماذا تفعل هنا ؟
– لقد فقدت عشرة كوبيكات يا دميترى ايفانوفيتش ولا استطيع ايجادها بأى شكل من الاشكال .
– وكيف هى هذه العشرة كوبيكات ؟
– عشرة كوبيكات ، مستديرة الشكل ، – تمتم ميشا بذلك الا ان عينيه كانتا تديمان النظر فى وجهة واحدة هى باب حديدى لاح خلف لوحة منظر لبيت اقطاعى ذى اعمدة بيضاء . نظر ميشا الى الباب وتمتم :
– اتفهم ، انها قطعة فضية من ذات العشرين كوبيكا .
– أيوه . . . يا للهراء ! مرة عشرة كوبيكات ومرة عشرين كوبيكا . . . هل جننت أم ماذا ؟
اجاب ميشا وهو يديم النظر الى الباب :
– كلا ، لقد كان لدى عشرة كوبيكات ولكنى فقدت عشرين كوبيكا ، فما هو الأمر غير المفهوم هنا ؟
هز ميتيا ساخاروف كتفه وقال :
– كل شىء غير مفهوم جدا . على كل حال ابحث بسرعة عن قطعة العشرة كوبيكات ذات العشرين كوبيكا واذهب من هنا .
طرح ميتيا ساخاروف شعره الى الخلف باصابع منفرجة وانصرف من المكان .

الفصل الرابع والعشرون

القبو

جلس ميشا وغينكا وسلافا على ضفة نهر موسكو عند جسر دورغوميلوفسكى بالقرب من محطة للقوارب النهرية بنيت حديثا . وكان يقنع ميشا صديقيه بالقدوم معه للبحث عن السرداب .

بدأ الظلام بالهبوط . كانت قطع متفرقة من الضباب تشبه كرات رمادية سيئة النفخ تعوم فوق النهر ، تمس سطح الماء وترتفع عنه حالا . وترامت من فوق الجسر اصوات حافلات الترام وخطوات الناس المتلاحقة والسيارات الصغيرة المسرعة .

قال ميشا :

– اموات ، توابيت ، انها خرافة . ان فيلين لن يهتم بالأموات ! ليس ذلك الا ترهات . انه يريد اخافتنا بالقبو . فاما ان يكون هناك سرداب ام انهم يخفون شيئا .

تنهد غينكا وهو يقول :

– حاذر يا ميشا ، ان هناك امواتا لا يخلدون الى الهدوء ابدا . فاذا دخلت القبو فانك لا تدرى من اين ينقضون عليك .

قال سلافا :

– طبعا لا يوجد اموات هناك ، ولكن ما لنا وكل هذا ؟ فليخف فيلين هناك ما يريد ، فانه مضارب مشهور .

– واذا كان هناك سرداب حقا تحت مدينة موسكو ؟

اعترض سلافا قائلا :

– اننا لن نعثر عليه على كل حال ، فليس لدينا خارطة .

توقف ميشا وقال :

– حسنا ! انكما خائفان ليس الا . عبثا حدثتكم عن ذلك . استطيع التصرف بدونكما .

بدأ غينكا يهز رأسه قائلا :

– انى لا ارفض ، بل تحدثت فقط عن الأموات . ان سلافا هو الذى لا يريد ، اما انا فمعك فى اى وقت تشاء .

احمر وجه سلافا وهو يقول :

– من قال بانى لا اريد ؟ لقد قلت فقط لو ان معنا خارطة لكان ذلك احسن . اليس ذلك حقا ؟

جاء الاصدقاء الى النادى يوم البروفة قبل الجميع .

حُدد وقت بروفات الأطفال من الساعة الثانيـة حتى الرابعـة نهارا ، ثم تقوم الخالة اليزافيتا عاملـة النظافـة باغلاق النادى حتى الخامسة ، وهو الوقت الذى يبدأ فيه الكبار بالاجتماع .

فى هذا الفاصل الزمنى اى من الساعة الرابعة الى الخامسة يجب التسلل الى القبو .

اختبأ ميشـا وسلافا فى الكواليس اما غينكا فقد انتظر بقيـة الممثلين الذين وصلـوا بعد قليل وبدأوا البروفات . وكان ميشـا وسلافا يسمعان اصواتهم وهما فى الكواليس .

كان الفلاح الغنى الذى يقوم بدوره شورا ، يقنع فانيا ، الذى يقوم بدوره غينكا : «لقد قمت بتعميدك بنفسى يا فانيا» ، حيث كان غينكا – فانيا يجيب بعجرفة : «انى لم اطلب منك ابدا ان تفعل ذلك» . وكانا يتجـادلان حول كيفيـة وقوف غينكا اثناء ذلك : ايتوجـه الى الجمهور ويدير ظهره الى شورا ام بالعكس يتوجه الى شورا وظهره الى الجمهور ؟ وقد تجادلا بوجه عام اكثر مما تدربا على التمثيلية . هدد شورا بترك كل شىء فتشاجر غينكا معه . اما زينا كروغلوفـا فقد كانت تقهقه طوال الوقت ، اذ كانت بنتا تضحك كثيرا .

انتهت البروفة اخيرا فانضم غينكا الى ميشـا وسلافا دون ان يلاحظه احد اما بقية الرفاق فقد انصرفوا واغلقت الخالة اليزافيتا النادى وبقى الأولاد لوحدهم امام الباب الحديدى الضخم .

انتزعوا المسامير بكماشة اعدوها لذلك وجذبوا الباب فانفتح وهو يحدث صريرا من المفصلات التى علاها الصدأ .

هب على الاولاد هواء خانق رطب ، فـأشعل ميشـا مصباحـا كهربائيا للجيب ودخلوا السرداب .

كان المصباح يضىء بصعوبة لدرجة كان يجب تقريبه مباشرة من الحائط لكى تمكن رؤية سطحه الرطب غير المستوى .

كانت الأمكنة المتشكلة بين اساسات البيت خالية ، الا ان الاولاد شاهدوا فى احد الأمكنة مرجلين كبيرين مهملين لتسخين الماء .

وتناثرت على الارض هنا وهناك قطع البوارى والجير المتصلب والآجر والفحم الحجرى والصناديق التى تجمد فيها الاسمنت .

ضعف نور مصباح الجيب الكهربائى بسرعة ثم انطفأ تماما . واصبح الاولاد يتحركون فى ظلام دامس متلمسين المنعطفات بأيديهم . وكان يخيل اليهم احيانا انهم يدورون فى نفس المكان ، الا ان ميشا كان يتقدم الى الأمام بعناد يتبعه غينكا وسلافا اللذان لم يتأخرا عنه .

تألق شعاع من الضوء . ها هو المدخل المغلق بألواح الخشب . كان الشعاع ينفذ بين الألواح . ونظر الاولاد فى الشقوق فشاهدوا سلم المدخل الخلفى الضيق ذا الدرجات المرتفعة والدرابزون الحديدى .

استمر الاولاد فى التقدم وهم يتبعون الجانب الايمن كما فى السابق . بدأ الممر يضيق فتحسس ميشا السقف فوقعت يده على الانبوب الحديدى . بدأ يصغى فطرق سمعه خرير الماء الخافت من فوق . جلس ميشا القرفصاء واشعل عودا من الكبريت . كان ممر ضيق يمتد فى الاسفل ، هو نفس الممر الذى وقع فيه فى المرة السابقة عندما ارعبه الحفيف المفاجىء . زحف الاولاد فى هذا الممر ، وعندما وصلوا الى نهايته نهض ميشا واقفا ورفع يده الى اعلى متلمسا فلم تقع يده على شىء . ان المكان مرتفع هنا ! واشعل عودا من الكبريت .

وقع نظرهم على مكان واسع مربع ذى سقف واطىء .

همس غينكا فجأة :

– التوابيت ، يا جماعة . . .

تجمد الاولاد فى اماكنهم وانطفأ عود الكبريت ، ترامت الى اسماعهم فى الظلام اصوات وحفيف غامضة كأنها آتية من القبور . وقف الاولاد ذاهلين . وفجأة ارتفع من فوقهم صرير ولاح شعاع من الضوء بدأ يتسع وسمع صوت خطوات ، فقفز الاولاد الى الممر واختبأوا هناك وقد حبسوا انفاسهم .

ظهرت فتحة فى السقف وتدلى منها سلم هبط عليه شخصان بحذر وبدأ شخص ما يناولهما من خلال الفتحة صناديق كانا يضعانها الى جانب الصناديق التى ظن الاولاد من الرعب انها توابيت .

ثم هبط القبو شخص ثالث زلت قدمه وهو يبتعد عن السلم فبدأ ينثر الشتائم ، فخيل لميشا ان هذا الصوت ليس غريبا عليه .
طاف الشخص الثالث فى المكان وتفحص الصناديق وبعد ذلك اخذ يتشمم الهواء وقال :
– من اشعل عودا من الكبريت هنا ؟
صعق الاولاد فى اماكنهم من الخوف .
اجاب احد الرجلين :
– لقد خيل اليك ذلك يا سيرغى ايفانوفيتش .
كان هذا صوت فيلين .
قال الشخص الثالث وهو يقترب من الممر ويقف الى جانب الاولاد تماما ، الا انهم لم يروا وجهه لأنه كان يقف وظهره اليهم :
– انى لا اتخيل ابدا اى شىء يا فيلين . تذكر هذا . هل قمت بردم الممر ؟
اجاب فيلين بسرعة :
– تماما . ان الباب قد سد بألواح الخشب اما الممر فقد ردم.
لقد كان يكذب : ان احدا لم يقم بردم الممر .
صعد الثلاثة بعد ذلك الى فوق وسحبوا السلم وراءهم .
اغلقت الفتحة فتركت المكان فى ظلام دامس .
خرج الاولاد من القبو بصعوبة وجروا عبر النادى ثم انطلقوا الى الشارع .

الفصل الخامس والعشرون

اناس مشبوهون

كانت امطار صيفية قصيرة قد توقفت عن الهطول منذ وقت قريب ، وتألقت احجار الرصيف وزجاج الواجهات وسطوح العربات الرمادية وحرير المظلات الاسود . وعلى طول الأرصفة كانت تجرى جداول الماء العكر لتصب بعد ذلك فى فتحات المجارى . وتتخبط الفتيات فى برك الماء المتخلف من المطر واحذيتهن فى ايديهن ويسير العمال وقد وضعوا الأكياس الفارغة على رؤوسهم . ومن مزراب مكسور كانت المياه تتساقط على الحائط لترتد على المارة الذين

كانوا يقفزون الى جانب خوفا من المياه . وفوق كل هذا كانت الشمس تلعب مرحة ، طاردة شعب السحب الخرقاء .
طاردة شعب السحب الخرقاء .

قال ميشا :

– ماذا يا غينكا ، هل تملكك الرعب ؟ هل لاحت لك الأموات ؟

اجاب غينكا متذرعا :

– الم ترتعبا انتما كذلك ؟ لقد ارتعبتما بشكل لا ادرى كيف يوصف ، وتحاولان القاء ذلك علي !

وصمت برهة ثم تابع :

– انا اعرف ماذا يوجد فى الصناديق .

– ماذا يوجد فيها ؟

– خيطان . ان المضاربين يعملون الآن فى تجارة الخيطان . اكثر البضائع ربحا .

اما ميشا فما زال يرن فى اذنه ذلك الصوت الحاد الذى لم يكن غريبا عليه الى درجة عجيبة . من يمكن ان يكون ؟ ان اسمه سيرغى ايفانوفيتش . . .

ان اسم بوليفوى هو كذلك ايضا ، الا انه لم يكن بوليفوى . . . محض مصادفة .

كان الاولاد يقفون بالقرب من سينما «آرس» . كان ميشا يراقب بوابة المستودع اما غينكا وسلافا فقد كانا يتفرجان على صور فلم «الجوع . . . الجوع . . . الجوع . . .» المعلقة فى واجهة السينما . كان الفلم يتحدث عن الجوع فى منطقة حوض الفولغا .

مر من جانبهم يورا ابن طبيب امراض الأذن والحنجرة والأنف . كان يورا فتى كشاف من قبل ، اما الآن فلم يعد وجود لفرق الكشافة . لم يكن يورا يرتدى بدلة الكشافة ، ومع ذلك كانوا يدعونه بـ«يوركا الكشاف» . كان يسير مع اثنين من رفاقه ويحمل بيده عصا الكشافة .

امسك غينكا بالعصا التى يحملها يورا وقال :

– ايها الكشافون الحقيرون ! اعطنى العصا !

شد غينكا العصا اليه بينما حاول يورا ورفيقاه تخليصها

منه . كان غينكا واحدا ضد ثلاثة . التفت غينكا نحو صديقيه : لماذا لا يهبان لانقاذه ؟ الا ان ميشا قال بايجاز :

- دعك منهم .

وتابع النظر فى جهة مستودع فيلين .

كيف ذلك ، «دعك منهم» ؟ هل يرضخ لفتيان الكشافة ؟ هل يرضخ لخدم البرجوازيين ؟ انهم يخضعون لأحد الجنرالات الانجليز ! وسيعلمهم الآن كيفية اطاعة الضباط الانجليز !

وشد غينكا العصا نحوه بكل قوته .

كرر ميشا :

- قلت لك دعك منهم !

ترك غينكا العصا وتمتم وهو يتنفس بصعوبة من شدة توتر الموقف :

-حسنا ! سأريكم مرة اخرى .

فابتسم يورا ساخرا وقال بعجرفة :

- هيا ، ارنا ! لقد ارعبتنا كثيرا !

ابتعد يورا ورفيقاه ، وراح غينكا ينظر الى ميشا بدهشة . غير ان ميشا لم يعر انتباها لا اليه ولا الى يورا .

خرج من كوة البوابة رجل ضامر طويل القامة يرتدى قميصا قفقاسيا ابيض اللون ويتزنر بحزام اسود مرصع بالفضة . توقف لاشعال سيجارة وعندما قرب عود الكبريت من فمه وهو يحميه براحتيه اللتين غطتا وجهه ، القى من بينهما نظرة متفحصة على الشارع . ثم القى بعود الكبريت على الرصيف واتجه نحو ساحة الأربات ، وميشا يتبعه . وعندما كان الرجل الطويل يعبر الشارع قفز الى حافلة الترام فجأة وهى تسير .

كان ميشا يتسكع فى شوارع موسكو مساء وقد انتابه قلق غامض .

كانت قباب الكنائس الذهبية تبدو كشعلة من النيران تحت اشعة شمس الصيف الغروب ، وقد عبق المساء بغبار الارصفة الحجرية وبرائحة الأسفلت الذائب ، والاطفال الذين لا تهمهم مشاغل الحياة يلعبون بمرح فى المنتزهات المخضرة ، والعجائز يجلسن على المقاعد .

كان يدور فى رأس ميشا اسئلة عديدة : «من هو هذا الرجل ؟ لماذا بدا صوته مألوفا الى هذا الحد ؟ ماذا يخبئ فيلين فى القبو ؟ ربما ليس هناك شيء ؟ لعله مستودع عادى فى القبو . اما ان يكون الصوت مألوفا فقد خيل له ذلك فقط . . . ولكنه لعله . . . لا ، لا يمكن ان يكون هو ! أهل هو نيكيتسكى يا ترى ؟ لا ! انه لا يشبهه . اين اذن ناصية شعره ؟ كلا ، انه ليس نيكيتسكى . ويسمى سيرغى ايفانوفيتش . . . امن الممكن ان يتجول نيكيتسكى فى موسكو بهذه الحرية ؟»

اجتاز ميشا شارع فوزدفيجينكا فوجد نفسه فى شارع موخوفايا .

اصطفت اكشاك بائعى الكتب المستعملة على طول سور الجامعة . كانت الكتب المفتوحة ملقاة على قاعدة السور الحجرية وقد ظهرت الحروف السوداء على صفحاتها التى اصفر لونها وكتبت اسماء الكتب على الاغلفة بحروف ذهبية . وعلى الرصيف وقف رجال ضامرون متقدمون فى العمر يرتدون النظارات والقبعات المكرمشة وهم مستغرقون فى المطالعة . ومن بوابات الجامعة كان الطلاب يخرجون زرافات ووحدانا وهم يرتدون القمصان الروسية والسترات الجلدية وفى ايديهم المحافظ الرثة .

اعترضت سبيل ميشا طوابير المتظاهرين عند ناصية شارع نيكيتسكى الكبير . كان عمال منطقة كراسنايا بريسنيا فى طريقهم الى دار النقابات حيث تجرى محاكمة الاشتراكيين الثوريين اليمينيين فى قاعة الأعمدة .

كانت الطوابير تأتى كذلك من ساحة لوبيانسكايا والساحة الحمراء . كانوا عمال منطقتى سوكولنيكى وزاموسكفوريتشيه وعمال مصانع «غوجون» و«بروملى» و«ميخيلسون» . . . كان الكومسوموليون يصخبون ، والخطباء يتكلمون من منابر مرتجلة الصنع . كانوا يتحدثون عن برجوازيى انكلترا واميركا الذين يريدون خنق الجمهورية السوفييتية بأيدى الاشتراكيين الثوريين . انهم لم ينجحوا بعمل ذلك فى معركة سافرة لأن التدخل قد اصيب بالفشل ، فقاموا باعداد المؤامرات الآن .

عاد ميشا الى التفكير : «ربما لم يهرب نيكيتسكى الى الخارج .

لعله يختفى عند فيلين بعد ان غير ملامح وجهه واستبدل اسمه باسم مستعار . . . لعلهم يخبئون الاسلحة فى هذا المستودع لأجل عصابتهم من الحرس الأبيض» .

ان بوليفوى اشار على ميشا طبعا ان يأخذ حذره . ولكنه كان صغيرا وقتذاك ، اما الآن فيمكنه ان يتدبر أمره فى كل شيء . أله الحق فى الانتظار حتى يأتى بوليفوى ؟ واذا كانت هناك اسلحة ومؤامرة فى الواقع ؟ لا ، من المستحيل الانتظار . . .

وجد ميشا نفسه امام مدخل دار النقابات ، وقد وقف جنديان من الجيش الأحمر يتحققان من التصاريح . حاول ميشا التسلل عبر الباب ، الا ان يدا قوية امسكت به من كتفه :

— التصريح ؟ !

ابتعد ميشا جانبا . يا لها من حراسة ! يقفان هنا ولا يعلمان اية مؤامرة رهيبة يمكن له ان يكتشفها قريبا .

الفصل السادس والعشرون

الطريق الهوائية

اصبح ميشا يتسكع غالبا بالقرب من مستودع فيلين ، حتى انه دخل مرة الى هناك غير ان فيلين طرده فغدا ميشا يراقب بوابات المستودع من بعيد . كان يقف فى مدخل دار السينما ثم عند البوفيه ذات اللافتة الخضراء والصفراء وامام المخبز . الا ان الرجل الطويل ذا القميص القفقاسى الأبيض لم يعد الى الظهور . وقد تسلل ميشا الى القبو مرة ، لكنه لم يستطع الوصول الى المستودع لأن الممر كان قد ردم .

اقتربت البروفات من نهايتها كما اقترب بذلك يوم اجراء التمثيلية ، وكان شورا يصر على المطالبة بملابس التمثيل وادواته . قال لميشا :

— بما انك المدير فعليك ان تهتم بذلك . سنصنع الديكورات بأنفسنا ، اما الماكياج فمن اين لنا به ؟ وبعد ذلك يأتى الشعر

6*

المستعار والمجمرة . . . يجب عليك انت تأمين كل ذلك . انى مشغول بالأعمال الابداعية ولا استطيع اضاعة الوقت على الأمور الاقتصادية .

رفض ميتيا ساخاروف اعطاءهم النقود فقرر ميشا عند ذلك اجراء يانصيب على مجموعة مؤلفات غوغول فى جزء واحد مضحيا بهذا الكتاب . لقد كان من المؤسف مفارقة غوغول ، ولكن ما العمل ! فلا يجب احباط التمثيلية .

بيعت بسرعة كبيرة بطاقات اليانصيب المئة التى بلغ ثمن الواحدة منها ثلاثين كوبيكا . ولم يشتر بوركا فقط بطاقة وحاول احباط اليانصيب صارخا بأن البطاقة الرابحة ستكون بطاقة ميشا حتما ، وسيحتفظ ميشا بالنقود لنفسه . وقد نال ما يستحقه بضع مرات من ميشا وغينكا الا انه لم يرتدع .

وقد اصبح بوركا صديقا ليوركا الكشاف . وقام الاثنان بنصب طريق هوائية لصرف الاولاد عن الحلقة المسرحية .

كانت الطريق الهوائية عبارة عن حبل حديدى مشدود بين زاويتين فوق الفناء الخلفى . وقد ثُبتت احدى نهايتى الحبل فى سلم الحريق على مستوى الطابق الثانى اما النهاية الأخرى فقد ثبتت فى شجرة على ارتفاع الطابق الاول . ويتحرك على الحبل عجلة عُلقت فيها أنشوطة يجلس فيها «الراكب» ثم يندفعفيها من السلم بسرعة كبيرة طائرا فوق الفناء . ثم تعاد الأنشوطة الى مكانها الاول بواسطة حبل رفيع طويل .

كان بوركا اول المنزلقين وبعده يورا ثم تلاهما عدد من الاولاد.

جذبت هذه اللعبة انتباه الجميع . وقد جاء الاولاد من الابنية المجاورة وراح السكان يتطلعون من النوافذ بفضول . ووقف البواب فاسيلى طويلا وهو يستند على المكنسة ثم انصرف وهو يتمتم : «شقاوة لا غير !»

اوقف بوركا الطريق الهوائية فجأة واعلن بعد ان تهامس مع يورا بان التزلق مجانا قد انتهى وان كل من يريد التزلق عليه ان يدفع خمسة كوبيكات .

واضاف :

– ومن لا يملك نقودا فليرجع بطاقة اليانصيب الى ميشكا

وليسترد نقوده . مالكم واليانصيب ؟ انكم لن تربحوا شيئا على كل حال .

كان يبغوركا – «الحميماتى» اول المقتربين من ميشا ثم تلاه فاسكا «ابو الشفاتير» .

مد الولدان يديهما بالبطاقتين وطالبا برد نقودهما . غير ان غينكا وقف بينهما وبين ميشا وقال بصوت معسول مقلدا بائع الخبز فى المخبز :

– اعتذر كثيرا ايها المواطنون ، الحاجة التى تباع لا ترد ولا تبدل . تحققوا من «كمالة المصارى» قبل الابتعاد عن الصندوق .

ارتفع صخب هائل . كان بوركا يصيح بان هذا نهب وسلب ، ويبغوركا وفاسكا يطالبان باستعادة نقودهما . اما يورا فقد وقف الى جانب يبتسم بخبث .

تقدم ميشا بعد ان نحى غينكا ونظر الى الاولاد المتصايحين ثم سحب نقود اليانصيب من جيبه فصمت الجميع .

عد ميشا النقود فكانت ثلاثين روبلا بالضبط . صفها على احدى درجات مدخل البناية الخلفى ووضع فوقها حجرا حتى لا تذهب مع الريح ثم قال :

– لست بحاجة الى هذه النقود وتستطيعون استردادها . ولكن فكروا فقط ، لماذا يريد يورا وبوركا احباط تمثيليتنا ؟ ألم يكن يورا يتردد على نادى الكشافة ؟ وتعرفون ان فتيان الكشافة يقفون الى جانب البرجوازيين ، وهم لا يريدون ان يكون لنا نادينا . اما عن بوركا فلا يوجد ما يمكن التحدث به . والآن فليتقدم كل من ليس له ضمير وليأخذ نقوده بنفسه وليضع بطاقته الى جانب النقود .

جلس ميشا على الشوفاج وادار ظهره الا ان احدا لم يقترب من النقود . وقف الجميع يحركون اقدامهم خجلا ، وكل منهم يتظاهر بانه لم يكن يفكر باعادة بطاقته .

تسلق غينكا فى نفس الوقت سلم الحريق وفك الطريق الهوائية الا ان بوركا صاح به :

– انزل ! لا تمس الحبل !

غير ان الحبل كان قد وقع ارضا مع الأنشوطة .

قفز غينكا عن سلم الحريق واقترب من بوركا وقال له :

– لماذا تزعق ؟ اتظن اننا لا نعرف شيئا ؟ اننا نعرف كل شيء ، نعرف القبو والصناديق ! . . هيا ، انقلع من هنا !

نظر بوركا الى الجميع عابسا ثم رفع الحبل الحديدى ولفه وبعد ذلك غادر الفناء دون ان ينبس ببنت شفة .

الفصل السابع والعشرون

السر

قال ميشا لغينكا مؤنبا :

– لقد افسدت كل شيء ! . . يا لك من ثرثار !

قال غينكا مبرئا نفسه :

– هل تريدنى ان اصمت ؟ سيفسد التمثيلية وانا اصمت ؟

. . . كانت شقة سلافا كبيرة مضيئة . كانت الأرض مغطاة بالسجاد وفوق الطاولة مصباح كهربائى جميل وعلى الأريكة مخدات صغيرة مطرزة . جلس غينكا على كرسى دوار امام البيانو متظاهرا بانه يتفحص غلافات دفاتر النوتات . كان يشعر بنفسه مذنبا ، ولكى يخفى ذلك كان يتكلم بلا انقطاع .

قرأ بصوت مسموع :

– «باغانينى» . . . من هو باغانينى هذا ؟

اجاب سلافا شارحا :

– عازف كمان مشهور . قطع اعداؤه اوتار كمانه قبل الحفلة مباشرة ، الا انه عزف على وتر واحد دون ان يلاحظ احد ما حدث .

قال غينكا :

– وماذا ؟ كان يعمل مع ابى وقاد اسمه بانفيلوف يعزف على القنانى اى معزوفة . وليجرب موسيقارك باغانينى العزف على القنانى .

فغضب سلافا وقال :

– لا يمكن الحديث معك ! انك لا تفهم شيئا فى الموسيقى . . .

قال غينكا وهو يدور عدة دورات على الكرسى معتمدا على البيانو :

– وهل حُرم علي الكلام ؟

تدخل ميشا فى الحديث وقال فى وجوم :

– يجب ان تفكر فيما تقوله . لو انك فكرت لما ثرثرت امام بوركا عن الصناديق .

واضاف سلافا :

– لا سيما وانه لا يوجد شىء فى هذه الصناديق .

اعترض غينكا قائلا :

– كلا ، يوجد فيها خيطان .

قال ميشا :

– تثرثر بما لا تعرف ! يوجد فيها شىء آخر .

– ماذا ؟

– سوف اقول لك حالا حتى تثرثر مرة اخرى !

وضع غينكا يده على صدره مقسما :

– لا والله ! فلأمت فى هذا المكان ! فلـ . . .

فقاطعه ميشا :

– لن احدثكما عن شىء . لا يمكن الوثوق بكما فى قضية ثرثارا وبقيت كما كنت .

قال سلافا :

– لكنى لم أثرثر ، ايمكنك ان تحدثنى ؟

– لن احدثكما عن شىء . لا يمكن الوثوق بكما فى قضية خطيرة .

جلس الاولاد صامتين بعض الوقت وهم ينظرون الى بعضهم البعض مقطبين ، ثم قال سلافا :

– ليس من الأمانة على كل حال ان تخفى عنا شيئا . لقد تسللنا ثلاثتنا الى القبو لذلك لا يجب ان يكون بيننا أسرار .

اخذ غينكا يتكلم :

– وهل كنت اعلم ؟ كنت افكر : صناديق ، اذن صناديق . . . انه نفسه يخفى شيئا ، اما الآخرون فمذنبون .

صمت ميشا . طبعا لم يكن على حق تماما ، اذ كان يجب ان

يتقاسم الهواجس مع صديقيه . ولكن . . . ماذا عن المدية حينئذ ؟ هل يحدثهما عن المدية ايضا ؟ انهما صديقان موثوق بهما طبعا ولا يمكن ان يخوناه . . . ولكن يحدثهما عن المدية ! . .

فتذمر قائلا :

– عندما يكون لدى الانسان رأس بين كتفيه فان عليه ان يفكر . . .

شعر غينكا فى كلمات ميشا بالتسليم فبدأ يبرىء نفسه بنشاط :

– ولكن افهم يا ميشا ، من اين لى ان اعلم ؟ انى لم افكر ابدا بانك تخفى عنا شيئا ! اذ انى لا اخفى شيئا عنك .

وقال سلافا بلهجة من اصيب باهانة :

– طالما انك تخفى عنا اسرارا . . .

فقاطعه ميشا قائلا :

– حسنا ، سأحدثكما ، ولكن فليكن بعلمكما ان هذا سر . لم يُسر الى بهذا السر شخص عادى . لقد اسرّ بـه الي . . . – نظر الى وجهى الولدين المتوترين من الفضول وتابع كلامه :

– لقد اسر به الى بوليفوى . انه هو من اسر به الي !

استدارت عينا غينكا ونظر سلافا ايضا الى ميشا بانتباه ، فقد كانا يعرفان كل شيء عن بوليفوى وعن نيكيتسكى .

تابع ميشا كلامه :

– وهكذا اعطيانى قبل كل شيء كلمة الشرف بأنكما لن تثرثرا امام احد باى شيء ابدا .

ضرب غينكا صدره بقبضته وقال :

– اعطيك كلمة الشرف من انسان شريف !

اما سلافا فقد قال :

– اقسم بشرفى !

اقترب ميشا من الباب وفتحه وتفحص الممر ثم اغلق الباب باحكام وطافت عيناه فى الحجرة بنظرة يقظة ثم القى نظرة تحت الأريكة وبعد ذلك سأل سلافا وهو يشير باصبعه نحو غرفة النوم :

– ألا يوجد احد هناك ؟

اجاب سلافا همسا كذلك :

- لا يوجد احد .

تلفت ميشا حوله مرة اخرى بغموض :

- اذن هاكما . فليكن بعلمكما ان لدى نيكيتسكى معاونا اسمه . . . فيلين ! هكذا !

تشبث غينكا فى الكرسى بيديه وفتح فمه ، اما سلافا فقد اخذت عيناه ترمشان وكأنهما ممتلئتان بالرمل . وتابع ميشا بعد ان سر من الأثر الذى احدثه كلامه :

- يبدو لى ان ذلك الشخص الطويل الذى كان فى القبو وخرج بعد ذلك . . . اتذكران ، في قميص قفقاسى ؟ انه نيكيتسكى نفسه !

كاد غينكا ان يقع عن الكرسى ونظر سلافا كذلك بذهول الى ميشا وبالكاد استطاع ان يسأل :

هل تتكلم بجد ؟

هز ميشا كتفيه وقال :

- لن امزح فى امور كهذه ! فليست القضية قضية مزاح . لقد عرفته من صوته . . . انى لم أر وجهه فى الواقع ولكنى اعتقد انه غير ملامح وجهه .

قال سلافا :

- يجب اخبار الميليشيا فورا .

اجاب ميشا مراوغا :

- مستحيل . يجب توضيح كل شيء اولا .

فاعترض سلافا قائلا :

- لا يوجد فى القضية ما يحتاج الى ايضاح ! حتى ولو لم تكن واثقا تماما من ان هذا نيكيتسكى الا ان فيلين هو نفسه . . .

اصبح الوضع حرجا . ان سلافكا مدقق بشكل كبير ! سيبدأ الآن بالنقاش ، الا انه ليس معروفا : هل هو فيلين المقصود ام لا ؟

نهض ميشا وقال :

- انى لم احدثكما بكل شيء . هيا بنا لعندى .

تلفت غينكا حوله بارتياب وهم يجتازون الفناء ، وبدا له ان نيكيتسكى سيظهر الآن فى هذا المكان . . .

الفصل الثامن والعشرون

الشيفرة

اغلق ميشا باب غرفته بالخطاف وحرك الستائر ثم اخرج الصرة من الخزانة ووضعها على الطاولة .

همس ميشا بغموض وهو يفتح الصرة :

– والآن انظرا .

تألقت المدية فى يدى ميشا .

همس غينكا :

– مدية . . .

رفع ميشا اصبعه محذرا وقال :

– هذوءا ! انظرا ، – وأراهما الرسوم الثلاثة على النصل وتابع :

– ذئب ، عقرب ، زنبقة . . . اتريان ؟ حسنا . والآن اهم ما فى الأمر . . . – وادار القبضة واخرج الشريحة وبسطها على الطاولة .

– شيفرة ، – همس سلافا بذلك ونظر الى ميشا متسائلا .

فأكد ميشا على كلامه قائلا :

– نعم ، شيفرة . اما مفتاح الشيفرة فهو فى الغمد . مفهوم ؟ وهذا الغمد . . . لدى نيكيتسكى . . . هكذا . . . والآن استمعا . . .

خفض ميشا من صوته وبدأ يحدثهم وهو يدير عينيه ويحرك يديه عن البارجة «الامبراطورة ماريا» وعن غرقها وعن مصرع ضابط اسمه فلاديمير . . .

جلس الولدان صامتين وقد بهرتهما هذه القصة الغامضة . اصبحت الغرفة مظلمة تماما وساد الهدوء الممر وكأن الجميع قد تلاشوا ، ما عدا الخرير الخافت للماء فى الانابيب احيانا والمواء الحزين لقطة ضالة على الدرج . ولاحت للأولاد فى الظلام المحيط بهم سفن اسطورية وارض بعيدة غير مأهولة ، وشعروا ببرودة مياه البحر ولمسات الغيلان البحرية .

نهض ميشا وادار مفتاح الكهرباء فاشتعل المصباح الصغير وأضاء وجوه الأولاد المضطربة والطاولة المغطاة بغطاء ابيض وعليها

المدية بنصلها الفولاذى المتألق والأفعى البرونزيـة الملتفـة حول قبضتها ذات اللون الأسمر الداكن . . .

قطع سلافا حبل الصمت :

– ماذا يمكن ان يكون ذلك ؟

هز ميشا كتفيه واجاب :

– من الصعب القول . ان بوليفوى ايضا لم يكن يعلم ماهيـة الأمر ، ومن المستبعد ان يعرف نيكيتسكى ايضا ، اذ انه يبحث عن المدية كى يستطيع حل رموز الشريحة ، وهذا يعنى انه لا يعرف .

تدخل غينكا فى الحديث قائلا :

– كل شيء واضح . ان نيكيتسكى يبحث عن كنز . والمدية تشير الى مكان وجود الكنز . آه ، لا بد ان يكون هناك الكثير من النقود !

اعترض ميشا قائلا :

– ان الكنوز لا توجد الا فى القصص ، من اجل الكسالى . احد الكسالى الذين لا يرغبون فى العمل يجلس ويحلم بالعثور على كنز .

قال سلافا :

– طبعا ، لا يوجد هناك اى كنز ، لأن نيكيتسكى قتل انسانا بسبب هذه المديـة . اهل تقتل انسانـا يـا غينكا ، مثلا ، من اجل النقود ؟

– لقد وجد وجها للمقارنة ! انا شيء ونيكيتسكى شيء آخر . انى لن اقتل طبعا ، اما نيكيتسكى فيقوم بذلك بسهولة بالغة .

قال سلافا :

– لعل فى الأمر سر عسكرى ، اذ ان ذلك حدث اثنـاء الحرب على سفينة حربية .

قال ميشا :

– لقد فكرت بذلك . لماذا بحث نيكيتسكى عن المدية فى عام ١٩٢١ ؟ فالحرب قد انتهت .

استمر سلافا يقول :

– ان اى شيفرة يمكن حلها دون مفتاح . ان لدى ادغار بو . . .

فقاطعه ميشا :

– نعرف ، نعرف ! «الجعل الذهبى» . ان الأمر هنا شيء آخر . انظرا . . . – انحنى الجميع على الشريحة ، وتابع ميشا :

– اتريان ؟ ان هنا ثلاثة انواع من العلامات فقط : نقاط وشرطات ودوائر . فاذا كانت كل علامة ترمز الى حرف فمعنى ذلك ان هنا ثلاثة حروف فقط . أتريـان ؟ ان هذه العلامات مكتوبـة بشكل عمودى .

قال سلافا :

– لعل كل عمود يرمز الى حرف .

اجاب ميشا :

– لقد فكرت بذلك ايضا . لكن اغلبية الاعمدة هنا تتألف من خمس علامات . احسبا معى ! سبعون عمودا تماما منها اربعون فى كل عمود خمس علامات . ولا يمكن لحرف واحد ان يتكرر اربعين مرة من سبعين .

قال غينكا :

– لا داعى للفلسفة ، يجب البحث عن الغمد ، لا سيمـا وان نيكيتسكى هنا .

قال سلافا معترضا :

– ليس معروفا بعد . هل هو نيكيتسكى ام لا ؟

فأصر غينكا :

– انه نيكيتسكى رغم كل شيء ، لأن فيلين هنـا ، وهمـا فى عصابة واحدة . . . أليس ذلك صحيحا يا ميشا ؟

قال ميشا معترضا :

– لا اعلم بعد هل هو فيلين المقصود ام لا . . .

صاح الولدان مذعورين :

– كيف لـ . . لا تعلم ؟

– هكذا . . . ان بوليفوى لم يقل لى الا الكنية – فيلين . أهل فيلين هذا هو المقصود ؟ ان كَنية فيلين شائعة ! ولكنى اظن انه نفسه .

قال سلافا وهو يمد بكلامه :

– نعم ، ينتج من ذلك معادلة ذات مجهولين .

قال غينكا :

– انه فيلين المقصود بكل وضوح . فمن وجهه يرى المرء انه لص .

فاعترض سلافا :

– ليس الوجه دليلا .

قال ميشا :

– سنبحث فى الأمور منذ البداية . اولا ، فيلين . ان الكنية تتطابق . هل هو انسان مشبوه ام لا ؟ انه مشبوه ، مضارب ، وبشكل عام ... ثانيا ، هل يتعاطيان اعمالا مشبوهة ؟ نعم انهما يتعاطيانها . المستودع فى القبو ، الصناديق ، المدخل المسدود ، الممر المردوم ... ثالثا ، هل ذلك الرجل الطويل مشبوه ام لا ؟ انه مشبوه . ارايتما كيف تفحص الشارع بعد ان غطى وجهه بيديه ؟ وصوته ليس بغريب علي . فلنفرض حتى انه ليس نيكيتسكى . ولكن كونها عصابة أمر مفروغ منه . لعلهم من رجال الحرس الأبيض . اهل لنا الحق فى الجلوس مكتوفى الايدى ؟ لا ! ان واجبنا هو الكشف عن هذه العصابة ...

فقال غينكا مؤكدا :

– تماما ، القبض على العصابة والاستيلاء على الغمد وتقسيم الكنز الى ثلاثة اقسام متساوية .

قال ميشا غاضبا :

– انتظر انت وكنزك ولا تقاطع ! والآن هكذا . اننا نستطيع اخبار الميليشيا طبعا ولكن ... واذا لم يكن هناك شيء ؟ فماذا سيحصل عند ذلك ؟ سنصبح موضع السخرية . يجب اولا توضيح كل شيء : هل هو فيلين المقصود ام لا ، وماذا يخفيان فى القبو ؟ والأمر الرئيسى هو العثور على ذلك الرجل الطويل ذى القميص الأبيض ومعرفة هويته .

قال سلافا :

– انها قضية صعبة .

ولكنه اضاف بسرعة بعد ان لاحظ النظرة التهكمية التى حدجه بها غينكا :

– يجب علينا الكشف عن العصابة طبعا ولكن علينا ان نفكر فى الأمر جيدا .

فوافق ميشا على كلامه قائلا :

– طبعا ، علينا ان نفكر . سنقوم بالمراقبة بالتعاقب حتى لا نثير اشتباه فيلين وبوركا .

قال غينكا :

– يا للروعة ! سنكشف عن العصابة !

قال ميشا :

– ان العصابات لا تكتشف بهذه السهولة . اعلما ان ذلك اصعب من الصياح فى الكواليس .





القسم الثالث

معارف جدد

الفصل التاسع والعشرون

هيلين بوش

توجه ميشا وشوركا الكبير بعد بضعة ايام الى سوق سمولينسكى حيث تباع الحوائج القديمة لشراء اصبغة الماكياج ، فشاهدا غينكا يتمشى بالقرب من مستودع فيلين . فسأله شورا :

– لماذا تتسكع هنا ؟ هيا معنا لشراء ادوات التمثيل .

فتبادل غينكا مع ميشا نظرة تحوى معان كثيرة وقال :

– ليس لدى الوقت .

وصل ميشا وشورا الى السوق . كان اناس كثيرون يتحركون امام «بسطات» البائعين وقد امتلأ جو السوق بأصوات صناديـق السمع وشجار مشترى الساعات . كان الاطفال المشردون يتسكعون هنا وهناك والعجائز الكئيبات المنظر اللواتى يرتدين قبعات قديمة الموضة يبعن اقفالا غير صالحة للعمل وشمعدانات نحاسية .

كان العرق يتصبب من شاب قروى يجلس منذ الصباح على ما يبدو محاولا بيع اكورديون وقد تجمع هواة الموسيقى حوله يستمعون الى معزوفة لا تتغير ، هى معزوفة «الألم» .

كان هناك ببغاء يسحب من صندوق مغلفات تتحدث عن ماضى المرء وتتنبأ له عن مستقبله ، وغجريات يتسكعن وقد ارتديـن تنورات تلعب بها الريح واغطية للرأس زاهية الألوان . كانت السوق تبدو بلا نهاية ، وقد امتدت بعيدا على ممرات نوفينسكى بولفار الذى انتشرت فيه قشور بزر دوار القمر الى المكان الذى وضع فيه عمال النظافة فى المدينة اولى صناديق القاذورات واحاطوا الحشائش الذابلة بأسلاك لامعة .

عندما توقف الولدان امام العجوز الذى يبيع «كل شىء من اجل المسرح» احس ميشا فجأة بيد تلمس كتفه .

التفت فرأى البنت البهلوانة . كانت ترتدى ثوبا عاديا ولا تشبه الممثلة فى شىء . مدت الفتاة يدها لميشا وهى تقول :

– مرحبا بك !

لم تعجب ميشا لهجتها المتكبرة فأجاب ببرود :

– مرحبا .

– لماذا انت غاضب ؟

– انى لست كذلك .

– ما اسمك ؟

– ميشا .

– اما اسمى فهو هيلين .

فرفع ميشا حاجبيه متسائلا :

– اى اسم هذا ، هيلين ؟

– ان اسمى المستعار هو هيلين بوش . يوجد لكل الفنانين اسماء مستعارة . اما اسمى الحقيقى فهو يلينا فرولوفا .

– والولد الذى قدم العرض معك ؟
– انه اخى ايغور .
– والحليق ؟
– اى حليق ؟
– ذلك الأكبر سنا ، أهو صاحب الفرقة ؟
ابتسمت لينا وقالت :
– صاحب الفرقة ؟ انه ابى .
– ولماذا تنادينه ببوش ؟
– لقد سبق وان شرحت لك ، ان هذا هو اسمنا المستعار .
– اما زلتم ترتادون الأفنية ؟
– كلا . عندما يبدأ الموسم سنقدم عروضنا فى السيرك . اسبق لك ارتياد السيرك ؟
– طبعا ، لقد ارتدته . الا ان لدينا فى البناية الآن حلقتنا المسرحية الخاصة بنا . – وقال ميشا وهو يقدم لها شورا :
– وهذا هو مخرجنا .
فأحنى شورا رأسه بوقار .
تابع ميشا قائلا :
سنقدم تمثيليتنا الاولى يوم الاحد القادم . انها مسرحية رائعة ! تعالى مع اخيك . ستقدمان عرضكما بعد انتهاء التمثيلية .
قالت لينا :
– حسنا ، سأبلغ بوش .
وفكرت قليلا ثم سألت :
– وما هو ثمن الخروج ؟
لم يفهم ميشا فسأل :
– ماذا ؟
– كم ستدفعون لنا من اجل العرض ؟
– ماذا حدث لك ، هل فقدت عقلك ؟ ان دخل التمثيلية مكرس للجياع فى منطقة الفولغا . ان كل ممثلينا سيقومون بالتمثيل مجانا .
هزت لينا رأسها وهى تقول :
– لا – لا اعلم . من المحتمل الا يوافق بوش على ذلك .

- سيمشى الحال بدونكم ! يضحى الآخرون من اجل مساعدة الجياع اما انتم فتريدون ان تتسلبطوا عليهم .

بدأت لينا تضحك وقالت لميشا :

- لا تغضب ، لا تغضب ! يا لك من انسان سريع الغضب ! سنفعل هكذا : نستأذن انا وايغور للذهاب الى النزهة وسنأتى لعندكم . اتفقنا ؟

- اتفقنا .

- ارجوك فقط الا تغضب .

اجاب ميشا :

- لست غضبان .

وعندما انصرفت لينا قال لشورا :

- ان الوقت يمر ببطء مع البنات !

الفصل الثلاثون

شراء ادوات التمثيل

بدأ الولدان باختيار الأصبغة .

قلب شورا بين يديه علبة من الاقلام وقال :

- ان هذه تناسبنا اكثر من غيرها . يطلق على هذا اللون اسم «احمر داكن» . خذ يا ميشكا .

مد ميشا يده فى جيبه فتملكه الرعب فى نفس اللحظة لأنه احس بعدم وجود كيس النقود هناك . ودارت الدنيا امام عينيه . لمح بين الجمهور شبح طفل متشرد فصاح ميشا منطلقا فى أثره .

افلت المتشرد من بين الصفوف وانعطف فى الزقاق راكضا وهو يتخبط فى معطف طويل ممزق . اختفى فى فناء له مخرجان الا ان ميشا لم يتركه حتى لحق به فى مكان خال . امسك به من معطفه وقال له وهو يتنفس بصعوبة :

- اعطنى اياه !

- لا تلمسنى ، انى مجنون ! - صرخ المتشرد صراخا وحشيا وفتح بياض عينيه المرعبتين فى وجهه الاسود المدهون بالشحار .

اشتبكا مع بعضهما البعض . كان المتشرد يولول ويعض ، اما ميشا فقد اوقعه الى الارض وبدأت يده تبحث عن كيس النقود فى ثيابه الرثة القذرة . كان المتشرد يدافع عن نفسه بيأس . جذبه ميشا من كمه ، فانقطع الكم ووقع كيس النقود على الارض . وعندما التقط ميشا الكيس تملكه غضب هائل . كم بذل من الجهود لتشكيل الحلقة المسرحية ! لقد سعى وتوسل وامتنع وضحى بكتاب غوغول ! وكاد هذا اللص الحقير ان يحطم كل شيء ! كان يمكن للاولاد ان يظنوا بأنه «قلفط» النقود لنفسه . اجل ! يجب ضربه مرة اخرى !

كان المتشرد منبطحا على وجهه . بدت رقبته النحيفة القذرة رقيقة جدا فى ياقة المعطف الرجالى الواسعة ، اما يده العارية القذرة التى امتلأت بالخدوش فقد تدلت من الممزق بشكل غير طبيعى .

حسنا . لا يمكن ضرب المستلقين على الارض . . . دفعه ميشا بقدمه بلطف من اجل الشكليات وقال له :

– ستتعلم كيف تسرق .

ظل المتشرد منبطحا على الارض .

ابتعد ميشا بضع خطوات ثم عاد وقال فى وجوم :

– انهض وكفاك تظاهرا !

جلس المتشرد وقال وهو ينشج ويمسح وجهه بيديه :

– لقد تغلبت علي ؟ أليس كذلك ؟

– لماذا اخذت كيس النقود ؟ انى لم امسك .

– اذهب الى الشيطان !

فقال له ميشا :

– اشتم ، اشتم سأضربك مرة اخرى !

ولكن غضبه زال وكان يعلم بأنه لن يضربه .

رفع المتشرد كمه الممزق وهو يستمر فى النحيب . انفتح معطفه كاشفا عن جسده النحيل واضلاعه الناتئة . لم يكن المتشرد يرتدى حتى قميصا .

جلس ميشا القرفصاء وسأل :

– كيف ستخيطه ؟

قلب المتشرد الكم بين يديه وصمت وهو متجهم .

قال ميشا :

– اتعلم ؟ هيا معى الى البيت وستقوم امى بخياطته .

نظر المتشرد اليه بارتياب وقال :

– تريد الامساك بى . . .

– هاك كلمة شرف ! ما اسمك ؟

– ميخائيل .

بدأ ميشا بالضحك وقال :

– جميل ، ان اسمى ميخائيل ايضا . هيا معى الى النادى .

– لست بحاجة الى ناديكم !

– هيا بنا ! ستخيط لك البنات الكم بسرعة .

– لا حاجة لى ببناتكم !

– هيا بنا الى البيت اذا لم تكن تريد الذهاب الى النادى . ستتناول طعام الغداء عندنا .

– لا اريد غداءكم !

جر ميشا المتشرد من كمه السليم وهو يقول :

– اقول لك هيا بنا ! انهض !

صاح المتشرد :

– دعنى !

ولكن الوقت كان متأخرا ، فقد تقطعت الخيوط ووجد ميشا الكم الثانى فى يديه .

تمتم ميشا :

– هاك النتيجة ، لقد قلت لك هيا بنا رأسا .

– هل جمعت القوة لتفعل ذلك ؟ اليس كذلك ؟ . .

اصبح معطف المتشرد دون اى اكمام الآن وقد تدلت منه يداه العاريتان .

اخذ ميشا الكمين وقال :

– حسنا ، هيا بنا الى بيتى ! فاذا رفضت فلن اعطيك اياهما ، واذهب بدون اكمام .

الفصل الحادى والثلاثون

كوروفين المتشرد

كان ميشا يفكر : «كيف ستستقبلنا ماما ؟ يمكن لها ان تطردنا ، ولكن لا بأس فليحصل ما يحصل» .

ها هو غينكا فى مركزه للمراقبة .

نظر غينكا بدهشة الى ميشا ورفيقه الممزق الثياب .

وحملق الاولاد فى الفناء كذلك فيهما . عد ميشا النقود وسلمها الى سلافا وقال :

– خذها فليشتر شورا بنفسه ، فليس لدى الوقت لذلك . . .

وصلا الى البيت . دفع ميشا بالمتشرد الى داخل الغرفة وقال :

– سيتناول هذا الصبى طعام الغداء معنا ، يا ماما .

لم تجب ماما بشىء .

اضاف ميشا :

– لقد مزقت كمى معطفه دون قصد . ان اسمه ميشا كذلك .

سألت ماما :

– وما هى كنيته ؟

نظر ميشا الى المتشرد فشرق هذا بانفه وقال بعظمة :

– ان كنيتنا هى كوروفين .

تنهدت ماما وقالت :

– هيا اذن اغتسل على الأقل ايها الرفيق كوروفين .

ذهب ميشا معه الى المطبخ ولكن كوروفين لم يظهر رغبة كبيرة فى الاغتسال وبالاضافة الى ذلك لم يكن هناك اية امكانية لغسل الأقذار العالقة به .

توقفا برهة امام صنبور الماء ثم عادا الى الغرفة وجلسا الى المائدة . وظهرت بقعتان قاتمتان على غطاء المائدة فى المكان الذى اسند فيه كوروفين مرفقيه .

اكل ميشا وهو صامت ينظر بطرف عينه الى امه . علقت معطف كوروفين على ظهر الكرسى وبدأت تخيط الكمين عليه . وقد فهم ميشا

من تعـابير وجههـا العابس ان حديثـا مزعجـا سيجرى بعد ذهاب كوروفين .

بعد الحساء قدمت ماما مقلاة فيها بطاطا مقليـة ، فأبعد ميشا صحنه وهو يقول :

– شكرا يا ماما ، لقد شبعت .

قالت ماما :

– كل ، يوجد ما يكفى للجميع .

كانت قد انتهت خياطـة الكمين الى المعطـف وبدأت بخياطـة البطانة الممزقة .

انتهى كوروفين من تناول طعامه ووضع الملعقة على المائدة .

قالت ماما وهى تسوى من كمى المعطف :

– ها هى الفروة جاهزة . – واضافت وهى تعطيها لكوروفين :
– ألا تشعر بالحر فيها ؟

ارتدى كوروفين المعطف بصعوبة وتمتم :

– لقد اعتدنا . . .

– هل لديك اقارب ؟

لم يجب كوروفين بشىء .

– هل لديك أم او أب ؟

توقف كوروفين وقد اصبح امام الباب . شرق بأنفه ولكنه مرة اخرى لم يجب بشىء .

فكر ميشا : «اين يعتزم الذهاب الآن ؟»

سأله دون ان ينظر الى امه :

– الى اين انت ذاهب الآن ؟

لف المتشرد معطفه حول جسده وغادر الغرفة .

ذهب ميشا لمرافقته .

– انتظر ، ان المكان معتم هنا . – فتح باب الخروج وافسح له الطريق لكى يمر وقال له مودعا : – قم بزيارتنا عندما تجد رغبة بذلك . تجدنى دائما اما فى البيت واما فى الفناء .

لم يجب المتشرد بشىء وبدأ يهبط الدرج .

الفصل الثانى والثلاثون

حديث مع ماما

كان ميشا يقرأ ولا يعكر الهدوء الذى يسود الغرفة الا صوت ماكينة الخياطة وهى تعمل فترات متقطعــة . وكانت اشعة الشمس تنعكس على الأجزاء المعدنية فى الماكينة وعجلتها الفولاذية وعلامة الشركة المذهبة . ان الحديث المنتظر مزعج طبعا ولكن ماما ستتكلم على كل حال ، والأفضل ان يكون ذلك بسرعة .

سألته اخيرا دون ان تلتفت اليه :

– اين تعرفت به ؟

– فى السوق . لقد سرق منى النقود .

اوقفت ماما الماكينة والتفتت الى ميشا وسألته :

– اية نقود ؟

– نقود اليانصيب . لقد حدثتك عنها . كنا نشترى الاصبغة انا وشورا .

– وهل اعاد اليك النقود ؟

– طبعا ! لقد ادركته .

– وهكذا تعارفتما ؟

– وهكذا تعارفنا .

هزت برأسها قائلة :

– منظر جميل : تتعارك مع المتشردين فى الشارع .

– لقد عصرته قليلا .

– ولماذا اتيت به الى هنا ؟ ألكى يسرق شيئا ما هنا ايضا ؟

– انه لن يسرق .

– ولماذا تعتقد بذلك ؟

– لانى اعتقد بذلك .

حل الصمت من جديد وارتفع وقع الماكينة المنتظم ثم سؤال :

– ما الذى حملك مع ذلك على الاتيان به الى هنا ؟

هز ميشا كتفيه وقال :

– لقد مزقت له كمى المعطف ، ويجب خياطتهما .

– طبعا يجب ذلك . . . – قالت ذلك وعادت الى ادارة ماكينة الخياطة . وقعت قطعة القماش الابيض ، التى كانت تخيطها ، الى الأرض واستقرت على شكل موجات بالقرب من قائمة الكرسى .

– امستاءة أنت ؟

– انه تعارف لا يبعث على السرور . وقد كدت ان تدعوه للبقاء عندنا .

– انى اشفق عليه .

فوافقت ماما :

– طبعا يستحق الشفقة . . . ان الكثير من الناس الآن يأخذون هؤلاء الاولاد لتربيتهم ، ولكنك تعرف ان ذلك ليس بامكانى .

قال ميشا :

– سترين كيف سيقضى على التشرد قريبا . لو انك تعرفى كم عدد ملاجئ الاطفال التى بنيت !

– اعرف ذلك ، لكن اعادة تربية هؤلاء الاطفال أمر صعب . لقد افسدهم الشارع .

قال ميشا :

– يوجد فى موسكو فرقة اسمها «فرقة الطلائع الاحداث» . ان الاولاد هناك كالكومسوموليين تماما منشغلون بالتشرد ، وبشكل عام ، – وأتى ميشا بحركة غير معينة ، – يقومون بمختلف الاعمال . لقد قررنا انا وغينكا وسلافا الانتساب الى الفرقة . ان مقرها فى بانتيلييفكا . سنذهب الى هناك يوم الاحد .

كررت الأم متسائلة :

– الى بانتيلييفكا ؟ ولكنها بعيدة جدا .

– وماذا فى ذلك ؟ نحن فى الصيف ويوجد الكثير من الوقت . وعندما نصبح فى الرابعة عشرة من اعمارنا سننتسب الى الكومسومول .

التفتت ماما الى ميشا ونظرت اليه قائلة :

– اتعتزم الانتساب الى الكومسومول ؟

– ليس الآن طبعا ، انهم لن يقبلوننى الآن ، اما فيما بعد . . .

تنهدت ماما وقالت :

– وهكذا تنتسب الى الكومسومول وتتراكـم عليك الاعمال وتهملنى تماما بلا شك .

– ماذا تقولين يا ماما ؟ أهل استطيع اهمالك ؟

ونظر ميشا الى امه .

انحنت على ماكينـــة الخياطـــة ، فلامست عقدة شعرهـــا الكستنائى المجدول بشدة بلوزتها الخضراء اللامعة ذات القبـــة المستوية .

نهض ميشا واقترب من امه واحتضنها والصق خده بشعرها . ابعدت ماما يديها عن الماكينــــة ووضعتهما على ركبتيهـــــا وقالت :

– ماذا ؟

– اتعرف يا ماما ماذا يبدو لى ؟ غير انـــه عليك الاجابـــة بصراحة نعم او لا ؟

– حسنا ، سأجيب .

– يبدو لى انك لست غاضبة على ....

ضحكت ماما بصوت خافت وابعدت يديه واصلحت شعرها وقالت :

– لست غاضبة . ورغم ذلك لا تجلب متشردين الى هنــا اكثر من اللازم .

الفصل الثالث والثلاثون

المروحة السوداء

– ميشا – ا – ا !

اطل ميشا من النافذة فوجد غينكا واقفا وقد رفع رأسه الى الاعلى .

– ماذا تريد ؟

– تعال بسرعة ، انى بحاجة اليك ! – واشار غينكا بطرف عينه الى جهة مستودع فيلين .

صاح ميشا بصوت ملهوف :

– ماذا تريد ؟

– تعال بسرعة ! .. ألا تفهم .

وحاول ان يفهمه بجميع الاشارات بأن الأمر لا يحتمل اى تأجيل .

هبط ميشا الى الفناء فدنا منه غينكا حالا قائلا :

– اتعرف اين ذلك الرجل الطويل ؟

– اين ؟

– فى المقصف .

اندفع الولدان الى الشارع واقتربا من المقصف ، فلاح لهما من خلال الزجاج العريض المحجر اناس يجلسون حول طاولات من الرخام ، والرسوم المنقوشة على السقف تسبح فى امواج دخان التبغ الزرقاء ، ونادل قصير القامة يسير بين الطاولات يحتفظ بتوازنه بصعوبة حاملا صينية عليها اقداح من الجعة تسيل رغوتها البيضاء على صداريته . وكان فيلين يجلس الى طاولة فى طرف المكان .

سأل ميشا :

– اين الرجل الطويل اذن ؟

اجاب غينكا مرتبكا :

– لقد كان هنا منذ وقت قليل ، كان يجلس مع فيلين ... اين اختفى ؟ ...

قال ميشا بسرعة :

– حسنا ، انه لم يذهب بعيدا . اتجه انت الى اليسار ، الى ساحة سمولينسكايا اما انا فالى اليمين ، الى ساحة الأربات .

اتجه ميشا مسرعا نحو ساحة الأربات وهو يتفرس فى وجوه المارة . وعندما وصل الى نهاية زقاق نيكولسكى لاح له رجل يرتدى قميصا ابيض ينعطف خلف كنيسة انتقال العذراء ، فركض ميشا حتى الكنيسة وتوقف هناك وبدأ يتلفت حوله . كان الرجل الطويل يسير فى زقاق ميورتفى ، فتعقبه ميشا . اجتاز الرجل الطويل شارع بريتشيستينكا وتابع مسيره فى زقاق فسيفولوجسكى . ادركه ميشا فى شارع اوستوجينكا نفسه ، الا ان حافلة الترام مرت فى

هذه اللحظة فأخفته عن عينى ميشا وعندما ذهبت الحافلة لم يعد للرجل الطويل إثر فى الشارع .

اين اختفى ؟ تفحص ميشا الشارع مليا وهو حائر . كان متجر بائع الطوابع البريدية يقع فى الجهة المقابلة ، وقد سبق لميشا ان اشترى من هنا بعض الطوابع من اجل مجموعته . والى هنا يتردد بوركا فيلين لسبب ما حسب اقوال غينكا . عبر ميشا الشارع ركضا واجتاز باب المتجر فرن جرس معلق فوق الباب رنة قصيرة .

كان المتجر خاليا والطوابع البريدية مصفوفة تحت زجاج الطاولة وقد امتلأ الرف بالعلب والألبومات .

خرج صاحب المتجر على صوت الجرس من غرفة داخلية . كان رجلا عجوزا اصلع ذا انف احمر . اغلق باب الغرفة الداخلية باحكام وسأل ميشا عن حاجته ، فقال له ميشا :

– هل يمكننى ان اتفرج على الطوابع ؟

القى العجوز على الطاولة ببضع مغلفات فيها طوابع وعاد الى الغرفة تاركا الباب مفتوحا فتحة صغيرة .

كان ميشا يقلب بين يديه طابعا بريديا من البوسنة والهرسك وينظر بطرف عينه الى الغرفة التى توارى فيها العجوز .

كانت الغرفة مظلمة تماما الا من طاولة يضيئها مصباح كهربائى باهت .

وكان شخص ما يتحدث مع العجوز بصوت خافت . كانت الطاولة تعيق ميشا من النظر الى هناك ، الا انه كان واثقا بان هذا الرجل الطويل ذا القميص الابيض هو بالذات موجود هناك . ولم يستطع ميشا كذلك ان يميز الحديث الجارى بينهما . ثم صدر صوت ابعاد الكرسى . الآن سيخرجان ! احنى ميشا رأسه على الطوابع وانتظر بتوتر . سيرى الآن هذا الرجل . ارتفع صرير الباب فى داخل الغرفة وبعد ذلك خرج العجوز . يا للمشكلة ! لقد خرج الرجل الطويل من المدخل الخلفى . . .

سأله العجوز مقطبا :

– هل انتقيت ؟

اجاب ميشا وهو يتظاهر بأنه يتفحص الطوابع :

– حالا .
قال العجوز :
– بسرعة ، لأنى سأغلق المتجر .
وعاد الى الغرفة ، الا انه لم يغلق الباب فى هذه المرة .
كان طرف الطاولة مضاءا بالمصباح الكهربائى . ورأى ميشا على ضوئه يدى العجوز الهزيلتين تجمعان اوراقا على الطاولة وتضعانها فى درج مفتوح . ثم ظهر فى يدى العجوز مروحة سوداء امسك بها مفتوحة بعض الوقت ثم لفها فتحولت المروحة الى شيء طويل بعض الشيء ...
وبعد ذلك التمع فى يدى العجوز شيء يشبه حلقة وكرة ، وضعهما مع المروحة فى درج الطاولة .

الفصل الرابع والثلاثون

اغريبينا تيخونوفنا

عاد ميشا الى البيت بخطى وئيدة . وهكذا فانه لم ير الغريب الغامض . لقد خرج الرجل من المدخل الخلفى ، وتصرف العجوز بحرص ، وبوركا البخيل يتردد على المتجر ...
عندما اقترب ميشا من البيت فكر فى المروحة . وخطر فى رأسه خاطر فجائى . لقد اصبحت المروحة تشبه الغمد عندما لفها العجوز ، اما الحلقة فتشبه الطوق .
أهو الغمد يا ترى ؟
اقلق ميشا هذا الظن فركض يبحث عن غينكا وسلافا فوجدهما فى شقة غينكا .
كان سلافا يسطر ورقة ، اما غينكا فقد كان يكتب شيئا تمليه عليه اغريبينا تيخونوفنا من ورقة ترفعها عاليا فوق الطاولة حتى مستوى عينيها ، وتضع على انفها نظارة ذات اطار معدنى .
قرأت اغريبينا تيخونوفنا :
– «... روبتسوفا آنا غريغورييفنا» ، هل كتبت ؟ باتقان

اكثر ، اكتب باتقـــان اكثر ، ولا تستعجل ، بعـــد ذلك . . .
«سيميونوفا يفدوكيا غافريلوفنا» .

صاح غينكا :

– انظر يا ميشا ، انى اقوم بوظيفة جديدة هى سكرتير القسم النسائى !

القى ميشـــا نظرة مـــن فوق كتف غينكا فقـــرأ :
«اسماء عاملات ورشة اللف اللواتى انهين مدرسة محو الأمية» .
وامام اسم كل امرأة ذكر العمر . ولم تكن هناك واحدة يقل عمرها .

نهرته اغريبينا تيخونوفنا قائلة :

– كفاك تململا والا افسدت الورقة ! هل كتبت ؟

– كتبت ، كتبت . . . هيا واصلى . كيف خطر لك ان تعلمى العجائز ؟

نظرت اغريبينا تيخونوفنا الى غينكا نظرة عتاب وقالت :

– أجاد انت فى ذلك ؟

– طبعا جاد . هاك ،– واشار بالريشة الى الورقة وقال :– اربع وخمسون سنة . ما فائدة القراءة والكتابة لها ؟

وهنا نزعت اغريبينا تيخونوفنا نظارتها وقالت ببطء :

– ها هى حقيقتك اذن !

ارتبك غينكا وقال :

– ماذا ، ماذا بك ؟

– اذن هكذا الأمر . . . يعنى ان القراءة والكتابة لك وحدك ؟

– انى لم . . .

– لا تقاطعنى ! يعنى ان القراءة والكتابة لك وحدك ؟ اما سيميونوفا فعليها ان تموت امرأة جاهلة ؟ وينتج من ذلك انى تعلمت انا نفسى عبثا ؟ يعنى انى دفنت ابنين استشهدا فى الحرب الاهلية حتى يتعلم غينكا وابقى انا كما كنت ؟ لقد انتقلت اسافييفا من القبو الى شقة بلا فائدة ايضا . كان بامكانها ان تموت فى القبو الذى عاشت فيه ستين سنة . . . يعنى ان الأمر هكذا حســـب رأيك ؟ اليس كذلك ؟ قل؟

صاح غينكا بصوت باك :

– انك لم تفهمينى يا عمتى ! لقد كنت امزح .
فبترت اغريبينا تيخونوفنا كلامه بقولها :
– لقد فهمتك تمام الفهم . لم اكن اظن ان لديك مثل هذه الفكرة عن الانسان الشغيل يا غينادى .
فهمس غينكا بصوت منخفض دون ان يرفع عينيـــــه عن الطاولة :
– يا عمتى ، يا عمتى ! لقد قلت ذلك دون تفكير ... لقد تفوهت بحماقة دون ان افكر .
فقالت اغريبينا تيخونوفنا بلهجة واعظة :
– أرأيت ؟ فكر فى المرة القادمة .

الفصل الخامس والثلاثون

فيلين

ذهبت اغريبينا تيخونوفنا الى المطبخ وجلس غينكا منكس الرأس .
قال ميشا :
– هل نلت جزاءك ؟ انها لم تؤنبك بما فيه الكفاية . ان لسانك يستحق اكثر من هذا بكثير .
فقال سلافا محاولا تهدئة الجو :
– لقد اعترف بانه لم يكن على حق .
قال ميشا :
– حسنا ، هل ادركت ، يا غينكا ، ذلك الرجل الطويل ؟
فأجاب غينكا فى وجوم :
– كلا ، لم ادرك احدا .
فقال ميشا بلا اكتراث :
– ها كما اذن . لقد رأيت الغمد .
لم يفهم سلافا فسأل :
– اى غمد ؟

– الغمد المألوف ، غمد المدية .

رفع غينكا رأسه ونظر الى ميشا بارتياب ، فقال ميشا :

– لدى بائع الطوابع البريدية فى شارع اوستوجينكا .

– الا تكذب ؟

– انى لا اكذب .

حدثهما ميشا بسرعة قبل ان تدخل اغريبينا تيخونوفنا عن بائع الطوابع وعن الغريب الطويل وعن المروحة السوداء . . .

قال غينكا بخيبة أمل :

– لقد كنت اظن انك رأيت الغمد حقا ، فاذا به مروحة ما . . .

وهنا تدخل سلافا قائلا :

– اذن ، لقد كانت معادلة ذات مجهولين اما الآن فقد اصبحت ذات ثلاثة مجاهيل . المجهول الاول فيلين والثانى نيكيتسكى والثالث المروحة . وبوجه عام اذا لم يكن هذا هو فيلين المقصود فان ما بقى كله ايضا هو خيال .

فقال غينكا مؤيدا سلافا :

– صحيح يا ميشكا . لعلك تخيلت هذا كله ؟

اتكأ ميشا بمرفقيه على طرف كومادينة مغطاة بمنديل ابيض مطرز الحواشى وعليها مرآة مربعة فى طرفها الأعلى ورقة زهرة خضراء ومكب من الخيطان تخترقه ابرة طويلة وصور قديمة ببراويز بيضاوية الشكل كتبت عليها اسماء المصورين بماء الذهب . كانت الأسماء مختلفة ، الا ان خلفية الصور كانت واحدة، وهى عبارة عن بركة وعريشة بعيدة يلفها الضباب .

قال ميشا :

– لو لا انك تشاجرت مع عمتك لعرفنا كل شىء عن فيلين .

– وكيف ذلك ؟

– لأنها تعرف فيلين ، ولقالت على الاقل : أهو من بلدة ريفسك أم لا .

– ولماذا لا تقول ؟ ستقول .

– انها لن تريد حتى الحديث معك .

– هل لن تريد ؟ معى ؟ انك تجهلها تماما . لقد نسيت

كل شيء منذ زمن بعيد ، ولا سيما انى اعتذرت . فقط يجب معاملتها بشكل خاص . سترى الآن . . .

عندما عادت اغريبينا تيخونوفنا الى الغرفة ترتب الطاولة ، تظاهر غينكا بانه يستمر فى الحديث :

– لقد قلت له : «ان اباك مضارب وكل اسرتك من المضاربين . اقول لك ان كل اهل ريفسك يعرفونكم . . .»

سألته اغريبينا تيخونوفنا :

– عمن تتكلم ؟

فرفع غينكا عينين بريئتين وقال :

– عن بوركا فيلين . لقد قلت له : «ان كل اهل ريفسك يعرفون عائلتكم» . اما هو فيجيب : «قلت لك اننا لم نكن ابدا فى ريفسك هذه . ولا نعرف شيئا» .

نظر الاولاد الى اغريبينا تيخونوفنا بتساؤل فنفضت غطاء المائدة بغضب وقالت :

– ما هى العلاقات بينك وبينه ؟ كم مرة قلت لك الا تصادق بوركا هذا . ان صداقتك معه لن تؤدى الى الخير .

– ولماذا يكذب ؟ اذا كان من ريفسك فليقل ذلك . لماذا الكذب اذن ؟

قالت اغريبينا تيخونوفنا :

– ربما لم يكن هو نفسه فى ريفسك .

– انى لم اقل انه كان فى ريفسك ، غير ان اباه من ريفسك . فلماذا الكذب اذن ؟

– ربما لا يعرف عن ابيه شيئا .

– لكن فيلين نفسه اشترك فى الحديث وقال وهو يضحك : «اننا من سكان موسكو الاصليين ، من البروليتاريين . . .»

لم تتحمل اغريبينا تيخونوفنا اكثر من ذلك فصاحت :

– هم من البروليتاريين ؟ ان ابا فيلين كان دركيا فى ريفسك .

طوت اغريبينا تيخونوفنا غطاء الطاولة وغادرت الغرفة .

غمز غينكا بعينه فى اثرها وقال :

– ارأيتما ؟ لقد قالت كل شيء ! انى اعرف طباعها . لقد

اصبح واضحا انه فيلين نفسه . يعنى ذلك ان نيكيتسكى هنا والغمد هنا . انى اشعر ، انى اشعر بان الكنز قريب منا جدا !
قال سلافا معترضا :
– ليس الأمر واضحا تمام الوضوح ، اذ انك قلت بنفسك ان اسم فيلين شائع فى ريفسك ، وربما هذا هو فيلين آخر .
اجاب ميشا بمرح :
– حسنا ، ربما كان هو او ربما لم يكن هو . انه من ريفسك على كل حال . ان علينا ان نعرف الآن : هل خدم على البارجة «الامبراطورة ماريا» ؟
سأل غينكا :
– كيف يمكننا معرفة ذلك ؟
– لا يوجد اسهل من ذلك . اتظن انه لا يمكننا استدراج بوركا البخيل الى الكلام ؟

الفصل السادس والثلاثون

فى حى كراسنايا بريسنيا

قرر الاولاد الذهاب يوم الاحد الى المطبعة فى شارع بانتيلييف للاستعلام عن الطلائع الأحداث . لم تكن حافلات الترام تعمل ايام الاحد لعدم كفاية الطاقة الكهربائية . نهض الاولاد فى الصباح الباكر فى وقت كانت فيه الشوارع خالية من الناس تماما ، وحتى الكناسون لم يكونوا قد خرجوا بمكانسهم بعد . سار الاولاد فى شارع الأربات الملتف بضباب رمادى خفيف وقد تملكتهم النشوة من طراوة الصباح . كانت كعوب احذيتهم تطرق الأسفلت البارد وصدى خطواتهم يتردد فى الشارع الخالى وتمر خيالات اجسامهم الصغيرة منعكسة فى زجاج واجهات المتاجر .
كان ميشا يفكر : «كم هو غريب منظر شارع الأربات وهو مقفر !» لا يمكن رؤية الابنية على حقيقتها الا فى مثل هذا الوقت .
ها هى دار سينما «الكرنفال» وبعدها مبنى المحكمة

العسكرية . وها هو البيت الذى عاش فيه الكسندر سيرغييفيتش بوشكين . بيت عادى ذو طابقين لا يختلف بشىء عن غيره . حتى انه من الغريب كون بوشكين قد عاش فيه ... لقد سار بوشكين فى شارع الأربات كما يسير جميع الناس ، ولم يكن هذا يدهش احدا . اما لو ظهر بوشكين الآن فى شارع الأربات لأقام الدنيـــا واقعدها ولتقاطرت موسكو كلها الى هنا !

تمتم غينكا :

– فلنر ما هم هؤلاء الطلائع . ربما لا يوجد فيهم ما يميزهم عن غيرهم : يقومون بتطريز الورود كما تفعل البنـــات فى دار الأيتام .

اجاب ميشا :

– ماذا تقول ! انهم منظمة شيوعية ، أتفهم ؟ ان ذلك يعنى انهم منشغلون بأشياء اكثر جدية .

فقال سلافا :

– انى اجد بعض الحرج فى الذهاب الى هناك .

– لماذا ؟

هز سلافا كتفيه قائلا :

– سيسألون من نحن ولماذا اتينا .

اجاب ميشا بحزم :

– مناسب جدا ! ربما نريد نحن ايضا الانخراط فى صفوف الطلائع . اليس لنا الحق فى ذلك ؟

صمت الاولاد . ارتفعت شمس الصباح البديعة بشكل غير مرئى خلف الابنية وغمرت شارع الأربات بضوء ساطع وهـــاج يبعث الانشراح فى النفس .

ودبت الحياة فى الشارع .

خرج سعاة البريد من مراكزهم وقد امتلأت حقائبهم الجلدية بالجرائد حتى حافتها .

وسارت الحلابات وهن يقرقعن بصفائح الحليب الفارغة .

ومرت قافلة من خيول الجر .

انعطف الاولاد الى شارع بوفارسكى .

ها هى ساحة كودرينسكايا .

قال ميشا وهو يشير الى بيت فى ناصية الشارع ظهرت عليه آثار طلقات الرصاص وشظايا القنابل :

– انظر يا غينكا ! لقد جرت هنا اشد المعارك اثناء ثورة اكتوبر ، واطلق جماعتنا نيران المدافع على الكاديتيين * . لقد رأينا ذلك انا وسلافكا . اتذكر يا سلافكا ؟

قال سلافا معترفا :

– انى لم اكن هنا وقتذاك ، واظن انك لم تكن انت ايضا .

– انا ؟ كم من المرات اتيت الى هنا ! كنا نأتى انا وشوركا . وقد جمعنا فى احدى المرات ملء طاقية من الطلقات الفارغة . كان هذا منذ زمن بعيد حقا ، فقد كان عمرى وقتها ثمانى سنوات . اما انت فانك لم تر ذلك طبعا لأن امك لم تكن تسمح لك بذلك .

وصل الاولاد الى شارع بانتيليييف .

لاحت لهم من خلال نوافذ المطبعة العريضة آلات الطباعة الموضوعة فى قاعات كبيرة . كانت اقسام المطبعة خالية من الناس ، وفوق البوابة علقت لوحة كتب عليها : «مطبعة مؤسسة مطابع موسكو» . دخل الاولاد الى كشك المراقبة .

فى غرفة خشبية ضيقة جلس الخفير خلف حاجز منخفض يتناول حساء من قصعة كبيرة .

وفى نفس الغرفة كانت تتحرك بنت يبلغ عمرها حوالى عشر سنوات ذات ضفيرتين قصيرتين معقودتين بشريطة حمراء .

رفع الخفير رأسه ومسح شاربيه بظهر يده ونظر الى الاولاد متسائلا .

توجه ميشا اليه قائلا :

– قل لنا من فضلك ، اين توجد فرقة الطلائع الاحداث هنا ؟

اخذ الخفير الملعقة ثانية وهو يقول :

---

* حزب الكاديت (الحزب الدستورى الديمقراطى) وهو الحزب الرئيسى للبرجوازية الملكية الليبيرالية فى روسيا القيصرية ، وقد تحول فيما بعد الى حزب للبرجوازية الامبريالية . (المترجم) .

- الطلائع ؟ ومن اين انتم ؟ أمن لجنة المنطقة ام من اين ؟
ارتبك ميشا وقال :
- نعم ... نحن ... هنا ... لقد جئنا لشأن من الشؤون .
كانت البنت تنظر الى الاولاد بفضول ، اما الخفير فقد انهى حساءه وابعد القصعة وقال :
- يوجد لدينا طلائع كهؤلاء . انهم موجودون فى ناديهم .
- ايمكنك ان تقول لنا اين يقع النادى ؟
أظهرت البنت دهشتها .
سأل الخفير :
- الا تعرفون نادينا ؟
- نحن من منطقة اخرى ، من خاموفنيكى .
مط الخفير فى كلامه وهو يقول :
- آ - آ ... ان ناديهم فى شارع سادوفى ، ليس بعيدا من هنا .
- اى سادوفى ؟ يوجد كثير من شوارع سادوفى .
قالت الفتاة وهى تسخر منهم :
- يا لهم من مضحكين ! لا يعرفون النادى !
فنهرها الخفير وقال :
- انك تعرفين كثيرا ! هيا دليهم عليه . - ثم اضاف بارتياب : - لعلهم فى حاجة الى ذلك حقا .
غسلت البنت القصعة والملعقة ولفتهما بمنشفة وخرجت مع الاولاد الى الشارع .
بدأت البنت بالثرثرة :
- انى اعرف الطلائع جيدا . ان صاحبنا فاسكا هو الشخص الرئيسى هناك ، فهو قارع الطبل .
نظر ميشا اليها بازدراء ولكنه لم يقل شيئا . فكيف يمكن مجادلة الاطفال الصغار ؟
واسترسلت البنت :
- ولديهم بوق ايضا . انكم لا تعرفون مدى صرامتهم ! ان تبادل الشتائم ممنوع والتعلق على «طبون الترامواى» ممنوع ووضع الايدى فى جيوب البنطلون ممنوع وضرب البنات الصغيرات

كذلك ممنوع . اما العراك فممكن مع اعضاء الكشافة فقط ، ويجب نزع ربطة العنق حينذاك لأن العراك بربطة العنق ممنوع ايضا .

قال لها ميشا :

– كفاكى مضايقة !

الا انها استمرت بالثرثرة :

– يمكن للبنـــات الانتساب ايضا ، ولكن فقط من بلغن منهن السن المناسبة .

سألها سلافا :

– كم يبلغ عمر فاسياكم هذا ؟

– اربعة عشر عاما وربما خمسة عشر . انه انسان جدى ! يأتى مباشرة الى الشقة ويأخذ كل شىء .

نظر الاولاد اليها مندهشين ، وسألها غينكا :

– كيف ذلك ، يأخذ ؟

اجابت البنت :

– بكل بساطة ، من اجل المتشردين فى دور الأيتام . يمر الطلائع لجمع الحوائج . – واعلنت بفخـــر : – لقد انتزعوا منى بلوزة .

قال غينكا :

– لا يمكن ذلك . ليس لأحد الحق فى انتزاع اى شىء .

– لم يأخذوها بانفسهم ، بل ماما اعطتهم اياها .

فضحك سلافا وقال لها :

– وهل تأسفت عليها ؟

– ابدا لم اتأسف . لقد كنت اود اعطاءهم القبعة التى كنت ارتديها السنة الماضية الا ان فاسكا قال : «لا يجب ذلك ، والا فلن يبقى لديك ما تقدميه فى المرة القادمة . لا تنزعجى ، سنأتى قريبا لنجمع مرة اخرى» . وهذا ما حدث ، فقد اخذوا البلوزة فى الصباح وعادوا فى المساء لأجل القبعة . – وتنهدت البنت وتابعت : – لأن المتشردين كثيرون . والباسهم يتطلب وقتا ليس بالقصير .

وصلوا الى بيت كبير جميل يقع فى شارع سادوفى .

اشارت البنت الى البيت وقالت وهى تتعجل الذهاب :
– ها هو هنا ، فى الطابق الثالث . سأذهب والا رآني فاسكا .

الفصل السابع والثلاثون

سوء تفاهم بسيط

انصرفت البنت ووقف الاولاد امام المدخل ، فقد تملكهم الوجل فجأة . اطل ولد من البوابة ونظر اليهم ثم اختفى ، وبعد ذلك اطل رأس ولد آخر اشقر الشعر واختفى هو ايضا .

وقف الاولاد حائرين . وتملكت ميشا فجأة الرغبة بالذهاب الى البيت . من يدرى انهم لن يطردوهم ...

ولكن غينكا وسلافا كانا الى جانبه ، ولم يكن يريد اظهار مثل هذا التخاذل امامهما ! صعد ميشا الدرج بعزم ومن ورائه غينكا وسلافكا .

صعدوا حتى الطابق الثالث وفتحوا بابا من خشب البلوط المحفور امضى بهم الى غرفة كبيرة مربعة الشكل ، انتصب فيها امام الجدار المقابل ركيزة التفت عليها راية بـ«دناديش» مذهبة وتنتهى بسنان من البرونز بيضاوى الشكل . ومن الراية امتدت على طول الحائط قطعة من القماش الاحمر كتب عليها : «ان تنظيم الاطفال هو احسن الطرق لتربية اعضاء الكومونة . لينين» . والى جانب الراية كومودينو عليها طبل وبوق . وانتصبت فى زوايا الغرفة اعلام صغيرة برسوم مختلفة ، وعلى الحائط صور واعلانات .

لم يكن فى الغرفة احد .

وعلى الدرج كذلك .

ارتفع وقع اقدام من الطابق الاعلى ثم عاد الهدوء .

دخل الاولاد الثلاثة الى الغرفة .

كان على كل علم من الاعلام الصغيرة الاربعة رسم لحيوان : بومة وثعلب ودب وفهد . وعلقت على الحائط المجاور صور وقصاصات من الصحف وصفيحة كبيرة من الورق فيها تعليمات

الاشارات بالاعلام وابجدية مورسى . كما علقت دفاتر كتب على كل منها : «سجل الفريق» .

سمع الثلاثة فجأة حفيفا من خلفهم فالتفتوا فشاهدوا اولادا بأربطة عنق حمراء يقتربون منهم بحذر .

اتخذ الاصدقاء حالا وضعية «الدفاع» .

عندما رأى الطلائـــع ان الاولاد لاحظوهم هجموا عليهم وهم يصرخون . . .

دافع الأصدقاء عن انفسهم دفاع المستميت بعد ان اتخذوا وضعا منيعا فى زاوية الغرفة متراصين الى بعضهم البعض بشكل كان فيه ميشا فى الوسط وغينكا وسلافا فى الجناحين .

قام الطلائع بهجومهم الثانى يقودهم غلام اشقر الشعر بربطة على ذراعه ، يتحرك بسرعة من جانب الى آخر وهو يصيح :

– هدوءا . . . هكذا . . . هدوءا . . . لا تدعهم يهربون ! . . هدوءا . . . فرقهم عن بعضهم . . . هدوءا ! . .

كان الهجوم الثانى ناجحا ، فقد استطاع الخصوم ان يسحبوا سلافا . اندفع ميشا لانقاذه فتمزقت صفوف الاصدقاء واضطروا الى القتال منفردين .

صاح الغلام الاشقر الذى كان يمسك بسلافا :

– هدوءا . . . هدوءا . . . طبق الملاكمة ! اعلن النفير العام يا سيريوجا !

قرع الطبل بعنف .

نجح ميشا فى استرداد سلافا وعاد الاصدقاء الى مواقعهم فى زاوية الغرفة .

كان الجانبان مهلهلى الثياب يتنفسون بصعوبـــة . كانت ربطات عنق افراد الطلائع تميل الى جانب ، وتمزقت ياقة قميص سلافا ، اما غينكا فقد كان يتحسس رأسه بيده وهو يشعر بنقصان فى كمية شعره الاحمر .

قال ميشا وهو يتنفس بصعوبة :

– ماذا بكم ؟

فصاح به الغلام الاشقر :

– فليصمت الاسرى ! سنقوم الآن . . . بتربيطكم .

استمر الطبل يقرع قرعا رهيبا .
اندفع الى الغرفة بعض افراد الطلائـــع ومن خلفهم آخرون وآخرون . . .
صاح الغلام الاشقر وهو يستمر فى التحرك بسرعة من جانب الى آخر :
— هدوءا ! لا تقتربوا منهم ! انهم اسرى فريقنا وليس احد آخر . . . اما انتم يا فريق الدب وفريق الثعلب فلا تتدخلوا . انهم ليسوا اسراكم بل اسرانا ، ونحن قبضنا عليهم . . .
دخل الغرفة فتى عريض الكتفين يرتدى قميصا رياضيـــا وبنطالا طويلا اسود وعلى عنقه ربطة حمراء ايضا .
ادى الغلام الاشقر التحية امامه وقال مضطربا :
— لقد قبض فريقنا على ثلاثة جواسيس من الكشافة كانوا يريدون سرقة راية الفرقة . لقد لاحظناهم ولما يزالوا فى الشارع . كانوا يتشاورون فيما بينهم امام المدخل وقد عاينوا كل شىء . . .
أمر الفتى قائد الطلائع قائلا :
— دعوهم .
تفرق حشد الطلائع وخرج الاولاد من الزاوية التى كانوا فيها .
قال القائد وهو يتفحص الاولاد :
— تابع يا فاسيا .
عاد الغلام الاشقر الى الحديث وقال :
— لقد عاينوا كل شىء وبعد ذلك صعدوا الدرج ، اما نحن فقد صعدنا الى فوق من المدخل الخلفى . وقد القوا نظرة على هذه الغرفة وعندما لم يجدوا احدا تملكهم السرور ودخلوا ، اما نحن فقد هجمنا عليهم واسرناهم جميعا .
توجه القائد الى الاولاد بالسؤال :
— من انتم ؟
اجاب ميشا بتجهم :
— لسنا بأى كان . لقد دخلنـــا لكى نرى من هم هؤلاء الطلائع .
ضحك الجميع ، الا ان الغلام الاشقر صاح :
— انهم لا يعترفون ! انهم من افراد الكشافة . — ولمس

باصبعه سلافا وتابع : – انى اعرف هذا . انه يستكشف المكان .
احمر وجه سلافا وقال :
– ليس صحيحا ! لم اكن ابدا فى فرقة الكشافة !
– لم تكن ! . . تحدث كما شئت ! انى اعرفك . كم مـــرة رأيناك . . . اليس صحيحا يا سيريوجكا ؟
اجاب الولد الذى كان يقرع الطبل دون ان يرف له جفن :
– صحيح .
صاح الغلام الاشقر :
– وتنكر ايضا ! انى اعرفهم جيدا ، فهم يسكنون فى شارع برونى .
قال ميشا :
– ان هذا ليس صحيحا ، فنحن نسكن فى شارع الأربات .
قال القائد مندهشا :
– فى شارع الأربات ؟ وكيف جئتم الى هنا اذن ؟
– لقد جئنا . . . اذ لا يوجد فرقة للطلائع الا هنا .
قال القائد :
– لا ، ليس هنا فقط . لديكم فى منطقة خاموفنيكى فرقة ايضا فى دار صك النقود . وقد أسست دار للطلائع فى ديفيتشييه بوليه . لماذا لم تذهبوا الى هناك ؟
ارتبك ميشا وقال :
– حقا ؟ اننا لم نكن نعرف ذلك . لقد قيل لنا انه يوجد فرقة واحدة فى موسكو هى فرقتكم .
– ومن قال لكم ذلك ؟
– الرفيق جوربين .
– ومن اين تعرفونه ؟
– انه يسكن فى بنايتنا .
ابتسم القائد بود وقال :
– هكذا اذن . . . انى اعرف الرفيق جوربين . اذن هو الذى قال لكم . غير ان فرقتنا ليست الوحيدة ، اذ توجد واحدة فى منطقة سوكولنيكى فى ورشات السكة الحديدية ولديكم فى دار صك النقود واحدة . واين يعمل اهلكم ؟

تدخل غينكا فى الحديث واجاب :
– فى مصنع سفيردلوف . ولدينا فى البناية ناد وحلقة مسرحية .
ضحك القائد وقال :
– لقد توضح كل شىء الآن . لقد وقع خطأ بسيط . فاولادنا يتقاتلون مع افراد الكشافة كما فى السابق ، ووقعتم انتم . لا بأس سنسوى هذه القضية الآن .
نفخ فى صفارة رياضية منبسطة فاصطف افراد الطلائع على طول الجدران مشكلين مربعا وقف فى وسطه القائد والى جانبه ميشا وغينكا وسلافا .
نظر الاولاد مسحورين الى الطلائع الذين وقفوا بصفوف كل حسب الفريق الذى ينتمى اليه والى يمين كل فريق رايته .
ودوى أمر القائد :
– يا بواق ، اد التحية !
ارتفع صوت البوق بالتحية .
قال القائد :
– يا اولاد ! لقد جاءنا ضيوف من منطقة خاموفنيكى . انهم يريدون ان يصبحوا طلائع ايضا . فلنرجوهم ان يبلغوا تحيتنا الطلائعية الملتهبة الى الاولاد فى منطقة خاموفنيكى .
وترددت صيحة «أورا» ثلاث مرات يحيى بها طلائع كراسنايا بريسنيا طلائع المستقبل من منطقة خاموفنيكى .

الفصل الثامن والثلاثون

انطباعات

لم يغادر الاولاد نادى الطلائع المضياف الا فى آخر النهار . وعادوا الى البيت فى الطرق المظللة بالاشجار فى شارع سادوفى وهم معجبون اشد الاعجاب بكل ما رأوه .

قال غينكا متشدقا وهو يلوح بيديه :

— «افراد الطلائع صحيحوا الجسم شديدو التحمل» — ان هذا القانون هو اكثر القوانين صحة ، اكثرها صحــــة ! يجب زيادة ممارسة الرياضة البدنية وتنمية العضلات .

فقال سلافا :

— يوجد قوانين اهم من ذلك .

— وما هى ؟

— مثلا «افراد الطلائع يسعون الى المعرفة ، فالمعرفـــــة والقدرة هما قوة فى النضال من اجل قضية العمال» .

— هل هذا اهم ؟ انك لا تفهم شيئا ! اذا كنت ضعيفا فان البرجوازيين يحطمونك فى لحظة ، ولن تنفعك اى معرفة او قدرة . اليس كذلك يا ميشكا ؟

قال ميشا بلهجة المرشد :

— ان اهم القوانين هما اثنان . اولا : «الطلائع شجعـــان مثابرون ولا تخور عزائمهم ابدا» . ولكن الأمر الرئيسى هو كلمات لينين . لقد سمعتما القائد وهو يرددها : «يجب على اطفال النشئ البروليتارى ان يساعدوا الثورة» . ان هذا هو الأمر الرئيسى .

فقال سلافا :

— الم تلاحظا كيف تحدث عنهم خفير المطبعة ؟ لقد تحدث باحترام .

قال ميشا :

— طبعا ، المنطقة كلها تعرفهم ، فما بالك المطبعــــة التى يعمل بها اهلهم .

سأل غينكا حائرا :

— ولكن لماذا لا يوجد لديهم اى سلاح ؟ بندقية على الاقل من اجل المنظر .

قال ميشا :

— عندما نشكل فرقة سنطلق على الفرق اسمــــاء اخرى . فلماذا كل هذه الحيوانات ؟ الافضل ان يكون اسما ثوريا مثل كارل

ليبكنيخت * او سبارتاك ** . هل سمعتما ما قاله القائد ؟ — «سنقدم احسن افراد الطلائع الى منظمة الكومسومول بمناسبة عيد الشباب العالمى» . اتريان ؟ سيصبح ذلك الغلام الاشقر عضوا فى الكومسومول بينما اننا لم ننخرط حتى فى منظمة الطلائع بعد .

فتمتم غينكا :

يجب تأديب هذا الولد الاشقر كما يلزم .

فاعترض ميشا :

— لماذا ؟ لقد دافعوا عن رايتهم حيث انهم لم يعرفوا من نحن .

قال سلافا :

— يجب الذهاب الى دار صك النقود ، فلعلهم يقبلوننا فى فرقة الطلائع .

فقال ميشا معترضا :

— لن نذهب الى اى مكان لأن لدينا مصنعنا الخاص بنا . لقد قال قائدهم ان الفرق ستتشكل فى جميع المصانع .

اقترب الاولاد من بنايتهم فترامت الى اسماعهم فى البوابة اصوات ضجيج وصياح آتية من الفناء الخلفى .

تراكضوا الى هناك فشاهدوا جمعا من الاولاد يحيطون بالمتشرد كوروفين الذى وقف وظهره الى الحائط كذئب صغير حصرته الكلاب .

كان بوركا فيلين ينقض عليه ويقول له :

— اجئت هنا للسرقة ؟! اليس كذلك ؟ للسرقة ؟! اضربوه يا اولاد !

شق ميشا طريقه بين الاولاد ووقف الى جانب المتشرد وقال :

— لماذا تضايقوه ؟

صاح غينكا :

---

* (١٨٧١ ـ ١٩١٩) شخصية بارزة فى الحركة العمالية الالمانية والعالمية واحد مؤسسى الحزب الشيوعى الالمانى . (المترجم) .

** زعيم انتفاضة الأرقاء فى الامبراطورية الرومانية (٧٤ ـ ٧١ ق . م .) . (المترجم) .

– دعه يا ميشكا ، فهذا هو الذى سرق منك النقود ! لا يجب الدفاع عنـــه . انى اعرف هؤلاء المتشردين ... انهم مجرمون صغار !

فشرق كوروفين بأنفه وتمتم :

– انت نفسك المجرم الأحمر الشعر .

قهقه الاولاد .

قال ميشا :

– تعال الى النادى ، هيا معنا . – وجذب المتشرد من كمه ولكنه تراجع حالا لأنه تذكر ان الكمين ليسا جيدى الالتصـــاق بمعطف كوروفين .

القى كوروفين نظرة عابسة على غينكا وقال بتجهم :

– لن اذهب .

فتدخل بوركا فجأة موجها الحديث الى المتشرد وقال :

– لا تذهب معهم يا ولد . هيا نلعب بالفن افضل .

وضع ميشا يده على كتف كوروفين وقال له :

– هيا بنا ، لا تشاغب ، هيا بنا .

الفصل التاسع والثلاثون

الرسامون

كان افراد الحلقة المسرحية منهمكون فى رسم الديكورات فى النادى ، وعلى خشبة المسرح امتدت اشرطة طويلـــة من الورق الابيض . وكان فوفكا بارانوف الصغير الملقب بـ«المأماء» يحاول دون جدوى رسم بيت فلاحى مترف حيث يعيش الفلاح الغنى .

قال له شورا الكبير مؤنبا :

– يا لك من حمل سىء الحظ ! ابن رسام ولا تستطيع رسم بيت بسيط !

قال المأماء الصغير معتذرا :

– وما علاقة «ابن الرسام» فى ذلك ؟ ان الوراثة لا تظهر الا فى الجيل الثالث فقط .

نظر كوروفين مدة ثم اخذ قطعة من الفحم دون ان يتوقع احد منه ذلك وشرع يرسم . بدأت تظهر على الورق الابيض خطوط المدفأة والنوافذ والمقاعد الطويلة .

قال ميشا وهو يدفع غينكا بمرفقه :

– أرأيت ؟

نفض غينكا شعره باستخفاف وقال :

– وماذا ينتج من معرفته للرسم ؟ ... اى حاجـة لك فى الارتباط به ؟

قال ميشا برزانة :

– لو ان كلا منا ارشد متشردا واحدا على الأقل الى السراط المستقيم لما بقى هناك متشردون .

انهى كوروفين الرسم التمهيدى وقال :

– ان فرشاة الرسم غير صالحة .

جلب له شورا عددا من الفراشى الا ان كوروفين رفضهـــا كلها وقال بالحاح :

– يجب الحصول على غيرها .

اخرج ميشا ما تبقى من نقود اليانصيب من جيبه وناولهـــا لكوروفين وهو يقول له :

– اذهب واشتر الفراشى اللازمة .

نظر كوروفين الى ميشا دون ان ينبس ببنت شفة الا ان ميشا قال له :

– اذهب ، لماذا تحملق بى هكذا ؟

اخذ كوروفين النقود بتردد ونظر الى الاولاد بصمت ثم غادر النادى .

اطلق غينكا صفيرا يدل على الأسف وهو يقول :

– لقد طارت نقودنا !

اعلن شورا قائلا :

– اذا كنت ستتصرف بالأموال بهذا الشكل فانى القى عن نفسى مسؤولية التمثيلية .

اجاب ميشا :

– لا يجب القلق قبل الاوان ، فلننتظر .

حل انتظار متعب وبدأ الكبار يتوافدون .

بدأت الأفكار تتوارد على رأس ميشا : «هل سيهرب بالنقود يا ترى ؟ - تذكر كيف نظر كوروفين اليه عندما اخذ النقود . - كلا . سيأتى» .

الا ان كوروفين لم يأت .

قال شورا :

- لا داعى للانتظار اكثر من ذلك . هيا ، ارسم ايها المأماء .

بدأ فوفكا يذيب الاصبغـــة عندما انفتح الباب فجأة وظهر كوروفين الذى لم يكن لوحده . كانت تمسك به من كتفه فتـــاة سمراء طويلة القامة ذات شعر قصير اسود ترتدى تنورة زرقاء وقميصا خاكى اللون وتتحزم بحزام عريض مما يرتديه الضباط . واهم ما فى الأمر انها كانت ترتدى ربطة عنق حمراء . كانت الفتاة تمسك كوروفين بقوة بيد وبالاخرى علبة الفراشى وكان منظرها يدل على العزم . سألت بحزم :

- من ارسله من اجل الفراشى ؟

اجابها ميشا :

- انا .

- ولماذا تريدون الفراشى ؟

- اننا نرسم الديكورات .

اخلت الفتاة سبيل كوروفين واقتربت من خشبـــة المسرح وسألت وهى تمعن النظر فى الديكورات :

- اى مسرحية تقومون باخراجها ؟

تقدم شورا الكبير الى الامام وقال :

«الفلاح الغنى والاجير الزراعى» . اسمحى لى اقدم نفسى : الكسندر اوغوربيف . مرشد فنى ومخرج .

شدت الفتاة على يد شورا وقالت :

- فاليا ايفانوفا ، من دار الطلائع الاحداث فى المنطقة . - واشارت بيدها الى كوروفين : - اننا نجعل هؤلاء الاولاد يقلعون عن السرقة اما انتم فتشجعونهم على ذلك . لقد سرق الفراشى من عندنا .

فتمتم كوروفين :

– انى لم اسرقها . لقد اخذتها على ان اعيدها فيما بعد .
كان ينظر ميشا الى الفتاة بدهشة . كان يبدو انها لا تتجاوز السابعة عشرة من عمرها ، الا انها قائدة وتعمل فى دار الطلائع الاحداث .
سألها بارتياب :
– اين تقع داركم ؟
– فى ديفيتشيه بوليه ... ما هى هذه الحلقة الغريبة الطور لديكم ؟ ومن يوجهكم ؟ والى اية منظمة تنتسبون ؟
صاح غينكا :
– اننا نتبع لجنة البناية !
فسألت الفتاة :
– اتعرفون من هم الطلائع الاحداث ؟
صاح ميشا وغينكا وسلافا : «نعرف !» – الا ان اصواتهم ضاعت فى صيحات الاولاد الآخرين : «كلا ، لا نعرف !»
رفعت الفتاة يدها وقالت :
– هدوءا !
وعندما صمت الجميع قالت :
– ان الطلائع هم خلف الكومسومول .
صاح غينكا :
– نحن ايضا سنصبح من الطلائع فى القريب العاجل !
قالت الفتاة :
– طبعا ستصبحون . اما فى الوقت الحاضر فواظبوا على الحضور الى دار الطلائع . تعالوا . وعندما تأتون اجلبوا الفراشى معكم .
قال ميشا :
– حسنا ، سنأتى . اما انت فتعالى لمشاهدة مسرحيتنا يوم الاحد ...
انصرفت الفتاة ، واعاد كوروفين النقود الى ميشا وبدأ يرسم .
سأله ميشا :
– لماذا لم تشترها من الدكان ؟

— ولماذا ادفع ثمنها عبثـــا ؟ انى لم افعل ذلك من اجلى شخصيا .

قال غينكا باستهزاء :

— انه غير معتاد على الدفع . — ثم اضاف مسترضيا : — حسنا ، ارسم . . . ايها البقرة * . . .

الفصل الاربعون

مخبرون محنكون

همش غينكا قائلا :

— انه قادم !

خرج فيلين من البوابة وانعطف فى زقاق نيكولسكى واتجه نحو شارع بريتشيستينكا .

اقتفى غينكا وسلافا اثره .

همس غينكا باذن سلافا :

— انه يسير متهاديا . انه بحار سابق تماما . أترى كيف يباعد ما بين ساقيه وكأنه على ظهر السفينة .

اعترض سلافا بقوله :

— انه يسير سيرا عاديا لا غرابة فيه . ثم انه يرتدى جزمة ، والبحارة الاصيلون يرتدون بنطالا واسعا من الاسفل .

— وما دخل البنطال الواسع هنا ؟ ها هو يتلفت حواليه ، انظر الى وجهه فقط . انه احمر مثل الجزرة ملوح من الهواء على السفينة .

قال سلافا موافقا :

— ان وجهه احمر حقا ، ولكن لا تنسى انه سكير . ثم انظر كيف يضع يديه فى جيبيه ، وهل يضع البحارة الحقيقيون ايديهم فى جيوبهم ؟ ابدا . انهم يلوحون بايديهم لانهم تعودوا على الاحتفاظ بتوازنهم اثناء تلاعب الامواج بالسفينة .

---

* كنية كوروفين هى من كلمة «كوروفا» الروسية والتي تعني البقرة . **(المترجم)** .

– دعك من هذا ارجوك ! «الايدى فى الجيوب» . . . اعلم ان وضع اليدين فى الجيوب والغليون فى الفم اثناء العواصف من اشيك ما يكون لدى البحارة .

كان حديث الولدين يجرى على هذا المنوال وهما يقتفيان اثر فيلين .

اجتاز فيلين شارع بريتشيستينكا ووصل الى شارع اوستوجينكا وهناك دخل دكان بائع الطوابع البريدية .

قال سلافا :

– يكفى ، هيا بنا نعود .

تردد غينكا برهة ثم قال :

– هيا بنا ندخل الدكان .

– يا للعار ! الم يحذرنا ميشا من دخول الدكان . . . لقد سبق وان طرده العجوز مرة وسيطردنا ايضا . . .

– لن يطردنا !

دخل غينكا الدكان وهو يدفع الباب بعزم فاضطر سلافا الى الدخول وراءه .

كان العجوز واقفا خلف الطاولة يتحدث مع فيلين ، واخلدا الى الصمت عندما دخل الولدان .

سألهما العجوز :

– ماذا تريدان ؟

فاجاب غينكا :

– نريد ان نتفرج على الطوابع .

فصاح العجوز بتهيج :

– لا يوجد شىء للفرجة ! تتفرجون كل يوم ولا تشترون شيئا ! اى طوابع تريدان التفرج عليها ؟

قال غينكا بارتباك :

– غواتيمالا .

القى العجوز بمغلف على الطاولة وقال :

– انتقيا !

بدأ غينكا ينتقى الطوابع بتردد بينما كان الجميع ينظرون اليه بصمت . ارتبك غينكا تماما واشار الى احد الطوابع وقال :

– اريد هذا .
قال العجوز :
– عشرون كوبيكا !
لم يكن لدى غينكا نقود كما لم يكن لدى سلافا «المعاملة» .
نظر العجوز وفيلين الى الولدين بترقب .
وكرر العجوز : – عشرون كوبيكا !
وعوضا عن ان يجيب بشيء اندفع غينكا راكضا من الدكان ووثب سلافا وراءه .
بدأ سلافكا يقول :
– لقد قلت لك انه لا يجب علينا الدخول . . .
اجاب غينكا دون اكتراث :
– وماذا في ذلك ؟
– كيف ذلك ؟ لقد فهما اننا نقتفي اثرهما .
– انهما لم يفهما شيئا ! ان كثيرا من الاولاد يأتون لعنده بدون نقود .
قال سلافا :
– سوف تأكلها من ميشكا .
– ان ميشكا ليس رئيسا عليّ .
– انك تفسد كل شيء بمشاكلك الحمقاء .
قال غينكا بخشونة :
– اني اعرف ماذا يجب علي ان افعل . ان عندي رأسا فوق كتفيّ .
اقتربا من البيت فشاهدا ميشا .
صاح غينكا وكأن شيئا لم يحدث :
– ميشكا ! ان لدينا اخبارا !
– ماذا ؟
همس غينكا :
–كل شيء على ما يرام . لقد اقتفينا اثر فيلين ، وقد ذهب لعند العجوز . تحققنا من مشيته . انه بحار ، بحار تماما ، انه شيء ثابت .
قال ميشا :

– عظيم ! يجب الآن معرفة هل خدم فيلين على البارجة ام لا ؟ وبعد ذلك نتولى امر بائع الطوابع . غير أنه يجب عليكما ان تقوما بذلك ، لانه لن يسمح لى بدخول الدكان .

وهنا تدخل سلافا فى الحديث وقال :

– نحن ايضا لا يمكننا القيام بذلك . لن يسمح لنا ايضا بدخول الدكان بعد ذلك .

حول ميشا نظره بذهول من غينكا الى سلافا ومن سلافا الى غينكا وهو يقول :

– ما الأمر ؟ لماذا لن يسمح لكما ؟

اومأ سلافا برأسه الى غينكا وقال :

– فليتحدث .

تحدث غينكا بسرعة :

اتفهم يا ميشا ، كنا نقتفى اثر فيلين . دخل الزقاق فتبعناه واتجه نحو شارع اوستوجينكا فتبعناه . دخل الدكان فتبعناه . وظهر أنه لم يكن لدينا نقود لشراء الطوابع ونحن فى الدكان ، فدرنا على اعقابنا بهدوء وخرجنا ، وهذا كل ما فى الأمر .

قال ميشا وهو يمط بكلامه :

– مفهوم . . . وقعتما . . . لقد قلت لكما الا تدخلا الدكان . ها هى المرة الثانية التى تحبط فيها الامور ! ثرثرت عن الصناديق امام بوركا والآن احبطت كل شىء فى الدكان . كفى ! سنضطر الى السير بالقضية بدونك . لا يمكن التحمل اكثر من ذلك .

لم يناقش غينكا لانه كان يعرف ان ميشا سيغضب وبعد ذلك سيروق ، الا انه لن «يسير بالقضية» بدونه .

الفصل الحادى والاربعون

التمثيلية

كان اعلان تمثيلية الاطفال التى ستجرى يوم الاحد معلقا منذ بضعة ايام على باب النادى .

ستقدم مسرحية «الفلاح الغنى والاجير الزراعى» بثلاثة فصول .

مرشد الاستديو الكساندر اوغوربيف . اخراج الكساندر اوغوربيف.
الممثل الرئيس الكساندر اوغوربيف .
وفى اسفل الاعلان كتب بحروف صغيرة : «الديكورات من رسم ميخائيل كوروفين بتوجيه الكساندر اوغوربيف» .
كان كوروفين فخورا جدا من ان اسمه قد ذكر فى الاعلان الامر الذى جعل المتشردين يأتون جماعات لرؤية ذلك .
بيعت البطاقات قبل وقت طويل من يوم عرض التمثيلية ، وحمل الاولاد كل الدخل الوارد من هذه الحفلة الى هيئة تحرير جريدة «الازفيستيا» وقدموه لصندوق مساعدة الجائعين فى حوض الفولغا .
وفى يوم الاحد امتلأ النادى بالاولاد منذ الصباح .
جاء اطفال الابنية المجاورة وجماعة كبيرة من المتشردين من مركز روكافيشنيكوفسكى لرعاية المتشردين كما جاء البهلوانان ايغور ولينا بوش .
جلبت فاليا ايفانوفا معها كومسومولیا يرتدى قبعة وسترة جلدية غير مزررة برزت من جيبها رزمة من الجرائد ولاح من تحتها قميص روسى ازرق علقت عليه شارة الكومسومول .
مد الكومسومولى يده مقدما نفسه الى ميشا :
– لنتعارف . سيفوستيانوف كوليا .
كان يتحدث وهو ينظر الى ميشا بنظرة ثاقبة وقد انحنى قليلا الى الامام ، لطوله وتقوس ظهره ، وعلى جبينه الشاحب تهدلت من تحت القبعة بشكل مائل خصلة من شعره الاشقر الناعم . كانت عيناه الرماديتان تعبتين ، وبدا لميشا انهما شديدتا الذكاء .
قالت فاليا :
– سيتفرج الرفيق سيفوستيانوف على التمثيلية ثم يحدثكم عن بعض الاشياء .
تكلم ميتيا ساخاروف رئيس النادى قبل رفع الستارة .
قال وهو يلقى بشعره الى الوراء :
– ايها الرفاق ! ستشاهدون الآن تمثيلية وضعت بجهود حلقة الاطفال المسرحية فى نادينا . ايها الرفاق ان ادارة النادى لم تبخل بالاموال من اجل اخراج التمثيلية لان العمل مع الاطفال قضية

هامة وبشكل خاص بالنسبة للنادى . ان الادارة تأمل بان تغطى كل نفقاتها . والآن ايها الرفاق ، نرجو . . . – ورفع يديه مصفقا .

نجحت التمثيلية نجاحا باهرا .

وقد قامت زينا كروغلوفا فى اثناء مجرى حوادث التمثيلية بضرب شورا بالمحراك بشكل طقطق فيه ظهره .

كان المتفرجون يصيحون مبهورين : «اضربيه يا زينا ، زيدى من ضربه !»

غير ان شورا كممثل حقيقى لم يكن يظهر حتى اشارة بأنه يتألم .

رقص جميع ممثلى المسرحية وغنوا فى الخاتمة . وبعد انتهاء التمثيلية قدم لينا وايغور بوش عرضا بهلوانيا .

اعتلى كوليا سيفوستيانوف خشبة المسرح بعد ذلك وسأل :

هل اعجبتكم ؟

اجاب المتفرجون بصوت واحد :

– اعجبتنا !

فقال كوليا :

– هكذا ترون ان اولاد هذه البناية ساعدوا رفاقنا الصغار فى حوض الفولغا . ماذا تعتقدون : آهل ما فعلوه هو امر حسن ؟

اجاب الاولاد مرة اخرى بصوت واحد :

– حسن !

فتابع كوليا :

– حسنا ، والآن أتعرفون من هم الطلائع الاحداث ؟ – ضج الجميع . صاح البعض : «نعرف !» والبعض الآخر : «لا نعرف !»

رفع كوليا يده ، وعندما هدأ الجميع قال لهم :

– ان على الطلائع ان يكملوا قضية الشيوعية التى بدأها اباؤهم واخوتهم الكبار . لقد اصبح فى منطقتنا ثلاث فرق : واحدة فى مصنع الكاوتشوك واخرى فى مصنع «ليفرس» والثالثة فى دار صك النقود . . .

فسأل ميشا :

– ولماذا لا يوجد لدينا فرقة ؟

– كنت اريد ان احدثكم عن هذا . ان ناديكم يقع تحت اشراف مصنعنـــا الذى يجرى اعداد فرقـــة طلائع تابعـــة لـــه . من يرغب الانتساب الى الطلائع الاحداث يستطيع الآن تسجيل اسمه لدى .

قال غينكا بصوت خافت :

– سالقى عليه الآن سؤالا صغيرا .

فالتفت ميشا اليه وقال له بحذر :

– وما هو هذا السؤال الصغير ؟

– هل يحق للطلائع ان يضربوا افراد الكشافة ؟

فقال ميشا غاضبا :

– سؤال سخيف . وبشكل عام من اين اكتسبت هذه العادة : ضرب ، ضرب . . . ان الضرب ايضا يجب ان يكون ذا مغزى .





القسم الرابع

الفرقة السابعة عشرة

الفصل الثانى والاربعون

خلوة الفريق

قال غينكا متشدقا وهو يلوح بالمطرقة :

– الطلائع يقومون بعملهم بسرعة واتقان .

كان يقف على الدرجة العليا لسلم خشبى عند سقف النادى مباشرة يسمر لافتة على الحائط .

قال له سلافا الذى يمسك بالسلم :

– هكذا تماما ، بسرعة واتقان ، اما انت فتتلكأ منذ ساعة كاملة .

تدلت من السقف ضفائر من اغصان الشوح انتشرت فيها مصابيح مختلفة الالوان . انتهى الطلائع من تجهيز خلوات الجماعات وانتشرت رائحة الشوح العبقة والغراء والاصبغه .

كان الطلائع فى بزات جديدة خاكية اللون قدمتها لهم ادارة المصنع .

قال لهم مدير المصنع وهو يوقع امر تسليم القماش :

– هاكم يا اولاد ، ان سكان بلادنا حفاة عراة ولم نكد نخرج من الخراب . ولكن تذكروا اننا لن نبخل بشىء فى سبيلكم .

هبط غينكا السلم ووقف الى جانب ميشا وسلافا ونظر الاولاد الى نتيجة عملهم بارتياح .

ظهرت فى وسط خلوة الفريق لوحة من خشب البلاكيه كتب عليها : «الفريق رقم ١ المسمى باسم الاسطول الاحمر» ، وقد قورت الحروف بالخشب والصق ورق احمر من الخلف . ومن وراء اللوحة وضع مصباح كهربائى فتلألأت الحروف بلون احمر ساطع .

قال غينكا متباهيا :

– جيد جدا ، أليس كذلك ؟ ان احدا لم يبتكر مثل هـــذا الابتكار من قبل !

مر فوفكا بارانوف الصغير بجانبهم مسرعا يحمل بيديه علبة من الاصبغة وكاد ان يصطدم بغينكا ، الا ان غينكا قفز الى جانب ونظر بذعر الى كمى قميصه الرسمى الجديد .

تلمس غينكا قميصه الرسمى بارتياح وهو يقول :

– ايها المأماء التعيس ! لقد كدت ان تلوث القميص ، انك تثير كمجنون ! انه قماش من الصنف الاول ! – وتمطق بشفتيه وتابع : – انه نسيج ممتاز !

اقترب منهم كوليــا سيفوستيــانوف قائد الفرقــة . فقال له غينكا :

– كوليــا ، انظر ما احسن الابتكار الذى ابتكرنــاه . احسن مما لدى الجميع .

اجاب كوليا بلا اكتراث :

— ليس سيئا ، ولكن لا داعى للمباهاة . ان فريقكم هو المتقدم لذلك يجب ان يكون العمل لديكم احسن ... بولياكوف ! بسرعة ! الى الساحة مع الفريق . لقد جاء كوروفين وجماعته الى هناك .

اجاب ميشا :

— حاضر !

— ان اللقاء الاول هو اهم لقاء . اذا استطعتم مصادقة الاولاد فسيأتون . واذا لم تنجحوا فلن يأتوا ابدا . حاولوا جذبهم الى اللعبة من المرة الاولى .

صاح ميشا :

— جماعة الاسطول الاحمر ، تراصف !

الفصل الثالث والاربعون

الساحة

اندفع الطلائع من النادى متراكضين الى الساحة ، كما اصبح الفناء الخلفى يسمى الآن . غير ان شيئا لم يتغير فيه ما عدا شبكة الكرة الطائرة التى علقت هناك . وقد جلس المتشردون على الاسفلت بالقرب من البناية ممزقى الثياب بشعر اشعث قذر غير مقصوص ، ما عدا فتى منهم يرتدى قبعة جديدة رمادية ما من شك انه حصل عليها اليوم فقط . وكانوا نادرا ما يتبادلون الكلام غير مكترثين بالاطفال الصغار الذين يحيطون بهم وينظرون بفضول الى هؤلاء الدخلاء الغريبين .

انقسم الطلائع الى فريقين ، اتخذا اماكنهما فى ساحة لعب الكرة الطائرة .

صاح ميشا داعيا بذلك المتشردين الى الاشتراك فى اللعب :

— ينقصنا ستة لاعبين !

لم يتحرك احد منهم . وقد جلسوا فى اوضاعهم السابقة غير مبالين لا باللعبة وبما يحيط بهم خلال كل الوقت الذى كان الطلائع يلعبون فيه .

همس غينكا :

– انهم لا يريدون الاستسلام !

وعوضا عن أن يجيبه ميشا بشيء ارسل بالكرة نحو المتشردين مباشرة ، ولكن هذا ايضا لم يحدث فيهم اى تأثير ما عدا كوروفين الذى دفع الكرة بقدمه بكسل .

لعب الطلائع بحماسة . الا ان ذلك ايضا لم يحدث اى تأثير فى المتشردين ، وقد اغفى البعض منهم وهم مستندون الى الحائط .

فكر ميشا : «انهم يراقبون ، ولا يمكن جذبهم رأسا . ولكن فقط على الا يغادروا المكان» .

ها هى صفرة الحكم الاخيرة ، فقد انتهت اللعبة . دخلت البنات الصغيرات ساحة اللعب وجلس الاولاد الى جانب المتشردين .

قال ميشا :

– مرحبا يا كوروفين ! كيف الاحوال ؟

اجاب كوروفين دون رغبة :

– لا بأس .

وفجأة سأل متشرد ظهر النمش الغزير فى وجهه على الرغم من طبقة الاوساخ الكثيفة التى تكسوه ، مشيرا الى انبوب للمياه ثبت بين شجرتين :

– ما هذه العصا لديكم ؟

فشرح ميشا قائلا :

– انها عارضة .

– لماذا ؟

– انظر لماذا .

قال ميشا ذلك واقترب من العارضة وتطاول ووثب بعد ذلك الى الارض وقال :

– هل تستطيع عمل ذلك ؟

– لا اعرف ، لم احاول .

قال له ميشا مقترحا :

– حاول الآن .

نهض المتشرد بكسل وتقدم من العارضة متهاديا ونظر اليها

من اسفل وقفز قفزة وتعلق بها ثم ارتفع بشكل قائم فتهدل معطفه على رأسه وبرزت قدماه الحافيتان القذرتان فى الهواء .

قفز بعد ذلك الى الارض وعاد كذلك متهاديا وجلس فى مكانه . ابتسم المتشردون ونظروا بسخرية الى الطلائع .

قال ميشا :

— عظيم ! هيا يا غينكا ، قم انت بذلك .

لوح غينكا بيده قائلا :

— أتظن انى استطيع ذلك ؟

— هيا ، هيا !

وقف غينكا تحت العارضة ورفع رأسه ومط جسمه ثم جلس القرفصاء وقفز ممسكا بالعارضة . وبعد ذلك القى بقدميه الى الامام وبدأ يتأرجح دون ان يثنى ركبتيه .

اخذ يتأرجح بسرعة اكثر واكثر واكثر . . . واحد ! — ارتفع بشكل قائم . اثنان ! — ارتفع مرة ثانية . ثلاثة ! — ومرة ثالثة . ورسم بجسده دوائر سريعة وربطة عنقه الحمراء تطير من خلفه . ثم تأرجح من جديد ولكن ببطء متزايد وبعد ذلك قفز الى الارض .

قال كوروفين معلقا :

— لا بأس ، طيب .

شرح ميشا بقوله :

— ان هذا يسمى «الشمس الدوارة»

قال المتشرد ذو القبعة :

— ان هذا لا يفيدنا بشىء .

فتدخل شوركا الكبير فى الحديث قائلا :

— لا يوجد ما «لا يفيد بشىء» . يجب القدرة على عمل كل شىء ومعرفة كل شىء .

قال احد المتشردين الصغار وهو يضحك هازئا :

— آه ، «الفلاح الغنى» ؟ لقد ضربوك بشدة بالمحراك .

قال شوركا :

— يجب على الممثل الحقيقى ان يجرب كل شىء . ان الفن يتطلب التضحية .

قال المتشرد ذو القبعة مؤكدا :

— بالضبط . لازارينكو يكاد ان يدق عنقه بين لحظة واخرى ومع ذلك يستمر القفز .

وواصل المتشرد ذو النمش الحديث :

— فى السيرك يتشقلبون عند السقف مباشرة ومع ذلك لا ينتابهم الخوف .

تشعب الحديث الذى ادار دفته شوركا الكبير . كان يريد قص محتويات الفلم الجديد «قائد الفريق ايفانوف» الا ان حالة فجائية قطعت الحديث الذى كانت بدايته موفقة كل التوفيق .

الفصل الرابع والاربعون

دراجة يوركا

دخل يوركا الكشاف وبوركا الفناء راكبين دراجة . كانت الدراجة نسائية الا انها كانت دراجة حقيقية جديدة بدولابين بطن الخلفى منهما بالحرير البراق .

كان يورا واقفا يدير الركابتين اما بوركا فكان يجلس على السرج جلسة المنتصر يبتسم ملء فمه مفلج الاسنان .

دارا فى الفناء الخلفى ثم هبط بوركا عن الدراجة وبدأ يورا يدور بها لوحده وهو يقوم بألعاب مختلفة عليها .

سار دون يمس المقود بيديه ثم ركع على ركبتيه على السرج ثم سار بها بيدين منشورتين وبقدم مدفوعة الى الوراء ، ثم سار بها بركابة واحدة وقفز بها الى الخلف .

كان بوركا يصيح بملء صوته وهو يسعى الى جذب اهتمام الجميع : «يا للروعة !» ، «يا للمهارة !» ، «هيا يا يوركا ، مرة اخرى !» ، — ويضرب بيديه على سرواله معجبا .

كان الجميع ينظرون الى يورا . لقد توقف الحديث بين الطلائع وبين المتشردين .

دار فى خاطر ميشا : «لقد فعلا ذلك عمدا لكى يحبطا العملية» .

اقترح عليه غينكا همسا :

- هيا بنا نطردهم الآن من هنا .
غير ان ميشا رفض ذلك لانه لم يكن يريد البدء بالعراك ، فهذا يفسد القضية . ما العمل اذن ؟
وفجأة رأى امام البوابة الدكتور ستوتسكى ابا يورا .
لم يلاحظ يورا اباه وراح يحكم وضع جنزير الدراجة .
صاح به ميشا :
- يوركا-ا-ا ، تعال الى هنـــا ! - وغمز غينكا مشيرا بعينه الى ابى يورا .
نظر يورا بارتباك الى ميشا .
صاح به ميشا مرة اخرى :
- تعال ! مم تخاف ؟
اقترب يورا بتردد وهو يمسك الدراجة بيده .
اومأ ميشا برأسه الى الدراجة وسأل :
- ما ماركتها ؟
- اينفيلد .
لمس ميشا الدراجة وهو يقول :
- آه ، انفيلد ! لا بأس بها .
بدأ كوروفين والمتشرد ذو القبعة يلمسان الدراجة كذلك .
وفجأة وضع غينكا اصبعيه فى فمه واطلق صفيرا حادا ، فالتفت الدكتور الواقف امام البوابــة فاقترب عندمــا رأى يورا . كان رجلا وسيما ذا وجه عليه آثار النعم ويدين بيضاوين ممتلئتين ، وتتصاعد منه رائحة تختلط بين رائحة ماء الكولونيا ورائحة الادوية .
وقف يورا امام الدراجة ينظر الى ابيه بحيرة .
قال الدكتور بصرامة :
- يورا ، الى البيت !
- انى لم . . . - بدأ يورا يقول ، دون ان يتم حديثه .
- الى البيــت ! - كرر الدكتــور بصــوت بــارد ونظــر الى المتشردين وصعر وجهه بتقزز واستدار مغادرا الفناء .
سار يورا وراءه بتثاقل وهو يمسك الدراجة بيده .
قال كوروفين :

– لقد ضحكت عليه كما يجب !
واضاف المتشرد ذو النمش بلهجة واعظة :
– لكى لا يتعجرف مرة اخرى .

الفصل الخامس والاربعون

الشريطة

انصرف المتشردون بعد ان وعدوا بالقدوم فى اليوم التالى .
وناقش الطلائع فيما بينهم سلوك المتشردين وهم مسرورون بنجاحهم الاول . وكان بوركا يلعب لوحده لعبة «الفن» ليس بعيدا عنهم على الممر الاسفلتى .
صاح به غينكا :
– ايه ، يا بخيل ! لماذا لا تسير على الدراجة ؟
لم يرد بوركا بشىء .
تابع غينكا كلامه :
– ضع نصب عينيك ... ضع نصب عينيك انت بنفسك وبلّغ كشافك المنحوس بانكما اذا فكرتما باحباط اعمالنا مرة اخرى فانكما ستأكلان علقة لن تنسياها ما حييتما .
ظل بوركا صامتا .
قال ميشا بتحبب :
– لم تزعجه يا غينكا ؟ لماذا تضايقه ؟ ان بوركا فتى لا بأس به ، الا انه يصادق الكشاف دون فائدة .
نصب بوركا اذنيه خشية المقلب .
تابع ميشا حديثه :
– ان يورا لا يعتبره حتى انسانا . أرأيتم كيف نظر ابوه الينا ؟
رد بوركا اخيرا :
– لماذ تجذبنى اليك ؟ أتريد منى ان انتسب لمنظمة الطلائع ؟ لست بحاجة الى طلائعكم ، وعبثا تحاول .
تدخل غينكا :

– ان احدا لن يقبلك .
قال ميشا :
– انى لا اجذبك ، بل اقول هكذا فقط . ولكنى كنت اود ان اقوم بعمل واياك ، عمل خطير . لقد تكلمت عن ذلك بالامس مع سلافا . اليس كذلك يا سلافكا ؟
لم يفهم سلافا شيئا الا انه اكد انهما حقا قد تكلما بالامس .
سأل بوركا بارتياب :
– وما هو هذا العمل ؟
تابع ميشا :
– اننا نضع تمثيلية عن حياة البحارة ونحن بحاجة الى بزة بحرية : قميص مخطط وبنطال وطاقية . لا يهم قديمة كانت ام جديدة ، المهم ان تكون الشريطة على الطاقية وعليها اسم سفينة . ربما تستطيع الحصول عليها ؟
ضحك بوركا بخبث وقال :
– ولاى مناسبة سعيدة ساسعى من اجلكم ؟ او تريدون ذلك بالبلاش ؟ اتبحثون عن مجانين ليعملوا ذلك لكم ؟
– سندفع ثمنها .
استغرق بوركا فى التفكير وقال :
– م م م ! كم ستدفعون ؟
– يجب ان نرى اولا . هل يمكنك ان تحصل عليها ؟
– استطيع الحصول على اى شيء تريد ولو من تحت الارض . . . أتعطينى سكينا لو جلبت الشريطة الآن ؟
– هل هى حقيقية ؟
– حقيقية .
– احضرها .
نهض بوركا واقفا وهو يقول :
– بدون خداع ؟
– اقول لك صدقا . اجلبها وستحصل على السكين .
اتجه بوركا الى البيت مسرعا .
قال شوركا الكبير ممتعضا :

– ما الامـر يا ميشـا ؟ مـا هى هذه التمثيليـة التى تعتزم وضعها ؟ لماذا لا اعرف شيئا عن ذلك ؟

– سأحدثك عن هذا فيمـا بعد . ان ذلك . . .من اجل عمل آخر .

– كيف ذلك «فيما بعد» ؟ انى مرشد الحلقة المسرحية ، وليس لك الحق فى عدم استشارتى . انى مسؤول عن الناحية الفنية .

هز غينكا كتفيه وقال :

– فلتكن مسؤولا ، فان احدا لا يضايقك .

اوقفهما ميشا قائلا :

– اصمتا ، بوركا . . .

اقترب بوركا مسرعا وهو يمسك فى قبضة يده شيئا .

– اعطنى السكين !

– ارنى اولا .

فتح بوركا يده قليلا واظهر طرف شريطة سوداء مجعدة .

مد ميشا يده وهو يقول :

– اعطنى لكى اراها . لعلها غير حقيقية .

ضم بوركا قبضة يده وقال :

– اعطنى السكين اولا . لا تقلق فانها حقيقية .

ايخ فليكن ما يكون ! مد ميشا بالسكين الى بوركا ، فامسك هذا بها واعطى ميشا الشريطة .

فتح ميشا الشريطة التى عفا عليها الزمن فرأى الاولاد عليهـا آثار كلمتى «الامبراطورة ماريا» المكتوبة بحروف فضية اللون .

الفصل السادس والاربعون

مشاريع

اصبـح المتشردون الآن يـاتون كل يوم الى الساحـة .كانوا يجلبون معهم رفاقـا جددا ويلعبون مع الطلائع فى الكرة والمضرب والكـرة الطـائرة ويستمعـون الى قصص شورا ، الا انـه كان من

المستحيل جعلهم يخلعون ثيابهم الرثة على الرغم من ايام تموز الحارة .

كان الهواء مشبعا بالرائحة المقبضة للاسفلت الساخن الذى كان يسيّح فى مراجل كبيرة ويتصاعد بخاره من الارصفة التى سيجت بالحبال .

وكانت حافلات الترام المدهونة حديثا وقد نصبت اللوحات الاعلانية على اسقفها ، تزحف ببطء فى الشوارع وهى تطنطن بشدة محذرة العمال الذين يقومون برصف الطرق . وكانت الافنية مكدسة بالمراجل البخارية ومدافئ الشوفاجات والانابيب والآجر والبراميل الملأى بالاسمنت والكالسى . فقد بدأ انهاض مدينة موسكو .

صرح غينكا الذى يدعى معرفة كل شيء وهو يشير الى دخان يتصاعد بعيدا من مدخنة المصنع المختفى وراء البيوت :

— لقد شغلوا مصنع «تسيندل» وغدا سيبدأ مصنع «تريوخغوركا» بالعمل .

فاجابه ميشا متهكما :

— انك تعرف كل شيء ، حتى من مدخنة اى مصنع يتصاعد الدخان . — واشار الى عمال يعملون على عواميد وسأل : — ما هذا اذن ؟

— كيف — ما هذا ؟ انهم يصلحون الكهرباء . لقد تعطلت بلا ريب .

— يا عينى عليك ! «تعطلت» . . . لقد شغلت محطة كاشيرا الكهربائية . من الآن فصاعدا ستبقى المصابيح مشتعلة طول الليل ، وليس فى جانب واحد من الشارع بل من الجانبين . أتفهم ؟ وقد بدئ ببناء محطة شاتورا الكهربائية فى مناطق الفحم النباتى . اما على نهر فولخوف فستدار المحطة الكهربائية بالماء .

قال غينكا :

— انى اعرف ذلك بدونك . اتظن انك الوحيد الذى يقرأ الجرائد ؟

وقد كان لدى غينكا فعلا رزمة من الجرائد هى بعض نسخ «الازفيستيا» الصادرة فى يوم واحد ، كتب فيها تحت عنوان «لصالح صندوق مساعدة الجائعين فى حوض الفولغا» قائمة طويلة بالمنظمات

المشتركة فى جمع الاموال ، ومن بينها : «من اطفال تعاونية السكان رقم ٢٦٧ مبلغ ٨٧ روبلا» . كان هذا فخرا كبيرا للاولاد . وقد حمل غينكا الجريدة معه اينما ذهب وعرضها على الجميع .

. . . ومرت الايام ، الا ان الاولاد لم يستطيعوا ايجاد طريقة للحصول على الغمد . لقد اصبح الآن واضحا ان فيلين هو فيلين ذاك نفسه . ولكن كيف يمكن معرفة ما رآه ميشا لدى بائع الطوابع البريدية : أهو الغمد ام مروحة عادية ؟

قال غينكا :

— ما علينا الا ان نتسلل الى دكان العجوز وكفى . فلا داعى لمجاملة اللصوص .

— وكيف تتسلل اليه ؟

— بكل بساطة : من خلال الطاقة . والاحسن من ذلك ان نكلف كوروفين بالامر .

— لا داعى لاشراك كوروفين . التسلل من خلال الطاقة ! وماذا سيظن فى الطلائع ؟ بالاضافة الى انه لا يعرف شيئا عن المدية . يجب ايجاد طريقة اخرى هنا .

ووجد ميشا الطريقة . غير ان الفكرة لم تخطر على باله الا بعد بضعة ايام ، حين كانت الفرقة فى رحلة تستغرق يومين الى معسكر يقع على شاطئ بحيرة سينيج .

الفصل السابع والاربعون

الاستعدادات للمعسكر

نهض ميشا مبكرا ، ولاحت له من خلال النافذة عبر ضباب الصباح الجدران الرمادية للبناء المجاور .

كانت اضواء الصباح الباهتة القلقة مشتعلة فى بعض النوافذ .

قفز ميشا من السرير وهو يصيح :

— ماما ، كم الساعة الآن ؟

— الخامسة ، استمر فى النوم فما زال لديك الوقت .

كانت ماما تتحرك فى الغرفة وهى تعد طعام الافطار .
قال ميشا وهو يرتدى ثيابه بسرعة :
– كلا ، يجب ان انهض ، فعلىّ ان امر على الاولاد . فلا ريب انهم ما زالوا نائمين .
قالت له ماما :
– كُلْ اولا .
– حالا .
اغتسل ميشا على عجل وجمع كيس حوائجه .
صاح بصوت مضطرب :
– ماما ، اين الملعقة ؟
– انها فى المكان الذى وضعتها فيه .
– انها غير موجودة ! – وجاس بعجلة فى الكيس ثم قال : – اجل ، ها هى .
تثاءبت ماما وهزت كتفيها من البرد وقالت :
– ان احدا لم يمس كيسك ، وكفاك نبشا هناك ، فسوف تخربط كل شيء . اشرب الشاى وسأطوى البطانية بنفسى .
– لا ، لا ، انت لا تعرفين كيف ، يجب ربطها هكذا ! – قال ميشا ذلك وهو يربط البطانية الى الكيس الذى كان القدر والقدح يتدليان منه .
– حسنا ... ولكن لا تفقد شيئا هناك وارجوك الا تسبح بعيدا عن الشاطىء .
اجاب ميشا وقد احترق فمه وهو يرتشف الشاى على طرف المائدة بغطائها المثنى .
– اعرف ذلك بنفسى . انك ما زلت تعتبريننى صغيرا ...
غادر ميشا الشقة والكيس على كتفه فاصطدم بغينكا امام الباب ، وارسله الى الفناء ليجمع بقية الاولاد وصعد لعند سلافا .
لم يكن سلافا قد استيقظ بعد كما كان ميشا يظن .
قال ميشا غاضبا :
– لقد كنت اعرف ذلك ! كم للمرء ان ينام ؟
قال سلافا يبرىء نفسه وهو يتمطى ويفرك عينيه :

– لقد اتفقنا ان تمر انت على .
– يجب على المرء ان يعتمد على نفسه . ارتد ثيابك بسرعة !
خرج قسطنطين اليكسييفيتش ابو سلافا من غرفة النوم . كانت كرشه الكبيرة تتدلى عن الحزام الذى يمسك ببنطاله وفتحة قميصه المطرز تكشف عن صدره الممتلئ المكسو بالشعر الاحمر . وبدت عيناه الصغيرتان الآن كشقين ضيقين من اثر النوم فى وجه ممتلىء يدل على الطيبة .
تثاءب وهو يمد يده لميشا مصافحا وقال :
– اتذهب فى رحلة ؟ ربّ الاولاد منذ الصباح ! دربهم تدريبا قاسيا ، دربهم !
اجابه ميشا :
– لقد كنا نتحدث فقط لا اكثر .
كان يرتبك دائما عندما يلتقى بقسطنطين اليكسييفيتش ، فقد كان يبدو لميشا انه يضحك من الاولاد فى باطنه ، بالاضافة الى انه المدير الفنى للمصنع او الخبير كما دعته اغريبينا تيخونوفنا .
– هيا ، تحدثا .
ذهب قسطنطين اليكسييفيتش الى المطبخ وهو يخفق بخفيه ، وسرعان ما سمع من هناك صوت ازيز بابور الكاز . . .
فكر ميشا بأسى : «انهم يعدون الشاى ! سنتأخر بسبب سلافا هذا !»
جاء صوت آلا سيرغييفنا من غرفة النوم :
– سلافا ! سلافا !
– ماذا ؟
– قل لابيك ان يلف اقراص اللحم بورق منشى .
اجاب سلافا وهو يربط حذاءه :
– حسنا .
ليس «حسنا» ، بل اذهب وقل له !
لم يرد سلافا بشىء .
تردد صوت آلاّ سيرغييفنا مرة اخرى :
– من جاء لعندك ؟
– ميشا .

– اهلا بك يا ميشا !
اجاب ميشا بصوت عال :
– وبك يا آلا" سيرغييفنا !
قالت دون ان تنهض من الفراش :
– يا عزيزى ميشا ، ارجوك كل الرجاء الا تدع سلافا يسبح ، فقد منعه الاطباء من ذلك .
احمر وجه سلافا وبدأ يجذب شريط الحذاء بعنف .
قال ميشا وهو يبتسم :
– حاضر .
وتابعت آلا" سيرغييفنا :
– وبشكل عام ، در بالك عليه . لولاك لما سمحت له بالذهاب . انك فتى عاقل وهو يصغى اليك .
قال ميشا وهو يلاوق سلافا :
– حاضر ، سأدير بالى عليه .
دخل قسطنطين اليكسييفيتش الغرفة وهو يحمل ابريق الشاى والمنصب بيديه وقال :
– هيا ، اشربا الشاى .
اجاب ميشا :
– شكرا ، لقد تناولت طعام الافطار .
ارتفع صوت آلا سيرغييفنا مجدداً من غرفة النوم :
– كوستيا ، لماذا تقوم انت بذلك ؟ ايقظ داشا !
اجاب قسطنطين اليكسييفيتش وهو يقطع الخبز :
– لا حاجة لذلك فقد اعد كل شيء .
وتابعت آلا سيرغييفنا :
– قل لداشا ان تأخذ كيلة حليب واحدة عندما تأتى الحلابة .
– حسنا ، سأقول لها . اما انت فنامى ، نامى . . .
اجابت آلا سيرغييفنا بصوت مجلوق :
– أو هل استطيع النوم ! لماذا سمحت له بالذهاب ؟ سنعيش يومين فى وجع الرأس .
– فليذهب .

– سمحت للطفل بالغياب يومين لوحده لا ادرى الى اين ولاى سبب . . . سلافا ! حاذر ان تمشى حافيا هناك !

قال سلافا متنمرا وهو ينتهى من شرب الشاى :

– حاضر .

الفصل الثامن والاربعون

فى المعسكر

انتهى الاولاد فى آخر الامر من بناء الطوف وسبحوا وجلسوا على الشاطئ للاستراحة .

كانت البحيرة تمتد امامهم الى ما لا نهاية وقد توضعت الغيوم على جانبها غير المرئى كجبال ثلجية شعثاء ، طيور النورس تشق زرقة الماء المحدبة باجنحتها المدببة ، وآلاف مؤلفة من صغار السمك تروح وتغدو فى الماء الضحل . وقد غفت زهور الزنبق على هدهدة الامواج الخفيفة وتشابكت سيقانها الطويلة الخضراء مع اعواد القصب الساحلية التى يتصاعد من بينها نقيق الضفادع ويتردد احيانا صوت سمكة كبيرة تتحرك هناك .

قال غينكا باهتمام وهو يدهن صدره وكتفيه بالزيت :

–الشىء الرئيسى هو ان يكتسب الجسم لون البرونز . ان لون الجسم البرونزى اولى علامات الصحة . هيا يا ميشا ، ادهن لى ظهرى وسأدهن لك ظهرك بعد ذلك .

تناول ميشا العلبة من غينكا وشمها ثم عوج وجهه بتقزز وقال :

– يا لها من رائحة كريهة !

– انك تفهم كثيرا ! انه زيت الجوز من الصنف الممتاز . ان الرائحة الكريهة هى من العلبة ، وقد كان فيها بويا للاحذية .

استمر ميشا يتفحص الزيت وقال :

– يوجد هنا فتات خبز وقشر بيض . . .

– لقد اختلط كل شىء فى الكيس . هذا لا يهم ، هيا ، ادهن !

اعاد ميشا العلبة الى غينكا وهو يقول :

– كلا ، ادهن نفسك بنفسك .

– سأقوم بذلك . وحتى المساء سأكون مثل البرونز .

قال سلافا :

– هيا بنا يا اولاد .

توجه الاولاد الى الخيام الرمادية المدببة المنصوبة فى طرف الغابة

انتصبت فى وسط المعسكر سارية ، تميزت الارض الرمادية المعزوقة حولها والتى دكنتها اقدام الاولاد عن بقية ارض الساحة .

ترامت من خلف الخيمة الموجودة فى طرف الساحة الاصوات الصادرة عن انشغال البنات حول النار التى علقت فوقها قدور على عصوات نصبت على شعوب الاغصان . وانتشرت رائحـــة شياط العصيدة فى المعسكر كله .

قال غينكا :

– امر بسيط ، العصيدة تطهى وهن يصحن وكانما يقمن بشئ ثور .

خرج كوليا من الغابة يحيط به المتشردون بثيابهم الرثة ما عدا كوروفين الذى كان عاريا حتى وسطه .

توجه ميشا الى كوروفين بالسؤال :

– اين كنتم ؟

– فى القرية .

–ولماذا ؟

– كنا نتفرج على دراسة القمح . . . –وتنهد وتابع . –لقد كانت لدينا نحن ايضا بقرة .

وقف كوليا امام النار تحيط به البنات . كان نتذوق، العصيدة ويبتسم وهو ينفخ على الملعقة .

فكر ميشا : «انه ذكى على كل حال . لقد اخذ الاولاد الى القرية حتى يتذكروا بيوتهم وعائلاتهم» .

وتابع كوروفين :

– وذهبنا الى المحطة ايضا .

– ولماذا ؟

– هناك دار الاتيام . لقد شاهدنا كيف يعيش الاولاد . يعيشون حياة لا بأس بها ، لائقة . ولديهم بستان خاص بهم .

وفكر ميشا : «وقادهم الى دار الاتيام عن قصد» .

اقترب ميشا من النار .

كانت زينا كروغلوفا تقول بصوت باك :

- كيف يمكنني التقسيم ؟ يوجد هنا مئة نوع مختلف من الاغذية ! لم يجلب احد شيئا يشبه ما جلبه آخر . هاكم ، - واشارت الى الاطعمة الموضوعة بالقرب من النار ، - خمسة اقراص لحم وثماني سمكات مملحة واثنتي عشرة بيضة وتسع قطع من اللحم واربع سمكات مجففة ومختلف انواع الحبوب . - وفجأة انفجرت ضاحكة . - اما الفريق رقم ٢ فقد اصطاد سمكا - ستة عشر فرخا نهريا . . . - واصبح وجهها الاحمر من الحر بانفها الافطس الصغير مستديرا تمام الاستدارة .

قال كوليا موافقا :

- نعم انها سميكات تافهة . ولكن لا بأس ، سنأكلها وسنلحس اصابعنا وراءها . . .

الفصل التاسع والاربعون

ضابط الادارة

كانت العصيدة تفوح بالرائحة الرائعة للدخان والسمك المجفف المطبوخ وعلى سطح الشاي تعوم ابر شجر الصنوبر وقطرات الدهن وقشور البيض .

تناولوا طعامهم بملاعق مصنوعة من لحاء شجرة البتولا وهم جالسون حول النار ، وقد تحركت الاغصان من فوقهم ونعقت الغربان قلقا . وقوّم كوليا قطعة من السلك وشك فيها قطعا من اللحم واعد لحما مشويا تناول كل من الحاضرين قطعة صغيرة وكان ذلك لحما مشويا حقيقيا .

قال كوليا بعد الغداء :

- سنلعب غدا لعبة حربية هي لعبة «الاستيلاء على بيريكوب»* مع دار الاتيام ، وسنتدرب عليها اليوم . - وقال مشيرا الى دغلة

* شريط من اليابسة يصل شبه جزيرة القرم بالبر كان يحتله البيض اثناء الحرب الاهلية . (المترجم) .

تقع على شاطئ البحيرة الايمن ، – ستكون هناك هيئة اركان البيض . ومهمتنا هى اختراق هيئة اركانهم والاستيلاء على علمهم . سيقوم شورا اوغورييف بدور فرانغيل * اما غينكا بيتروف فبدور رئيس الاركان .

قال غينكا محتجا :

– ولماذا يجب علينا ان نقوم نحن بدور البيض ؟

وقال شورا :

– حقا ، ليس هذا من العدل بشىء . زد على ذلك انه لم يكن لدى البيض منصب رئيس الاركان بل كان يسمى بضابط الادارة .

ابتسم كوليا وقال :

– حسنا ، ان غينكا سيكون اذن ضابط الادارة . ولكن نفذا الامر ! وعندما تسمعوا اشارة البوق انهوا اللعبة وليجتمع الكل فى المعسكر .

استاء شورا وغينكا جد الاستياء من هذا المنصب وعندما تم الاستيلاء على بيريكوب وسحق مقر اركان البيض اختفى فرانغيل وضابط ادارته .

بحثوا عنهما طويلا ونفخوا بالبوق عدة مرات غير انهما لم يظهرا الا عند المساء .

سار شورا فى المقدمة ومن خلفه غينكا منكس الرأس يتأوه ويتنهد وهو يجر قدميه جرا وكأنما ضرب ضربا مبرحا .

سألهما كوليا بخشونة :

– لماذا اتيتما ؟

فأعلن شورا :

– اننا نستسلم .

– ولماذا لم تظهرا عند صدور الاشارة ؟

بدأ شورا يقول كلاما معدا من قبل :

– لقد قررنا التزام حقيقة تاريخية . فقد فر فرانغيل من القرم

---

* فرانغيل – احد قادة الثورة المضادة فى جنوب روسيا . (المترجم) .

وها نحن اختفينا . – وصمت فترة ثم تابع : – واذا كان هذا فى رأيكم تفسيرا غير صحيح للدور فارجو الا تعطونى دور فرانغيل فى المستقبل .

– ومع ذلك لماذا جئتما ؟

قال شورا وهو يشير الى غينكا :

– لقد اصيب ضابط ادارتى بمرض خطير .

كان لـ«ضابط الادارة» منظر يرثى له . فقد اشتعل وجهه وكأنه اصيب بالحمى وارتعش جسمه وكأنه وخز بالابر .

سأله كوليا :

– ماذا بك ؟

صمت غينكا ، وقال شورا مجيبا عنه :

– اصابة شديدة فى الجلد .

رفع غينكا قميصه فكان ظهره مغطى بفقاعات كبيرة .

سأله كوليا :

– هل دهنت نفسك بشىء ؟

فأجاب غينكا متلعثما :

– نعم . . . دهنت .

– بماذا ؟

– بز . . . يت الجوز .

– ارنى اياه .

سحب غينكا العلبة من جيبه بوجه متجعد من الالم واعطاها لكوليا الذى اشتمها ثم سأله :

– ومن اين حصلت عليها ؟

– لقد . . . حضرتها . . . حضرتها بنفسى . . . بناء على وصفة.

– اى وصفة ؟

– الوصفة التى اعطانى اياها بوركا البخيل .

قال كوليا :

– انه خليط من مرهم الزنك وبويا الاحذية . يا لك من صيدلى . . .

دهنوا غينكا المسكين بالبوزلين وارقدوه فى الخيمة .

الفصل الخمسون

النيران

جلست الفرقة فى المســـاء حول نيران اضرمت على شاطئ البحيرة .

ومد القمر طريقا فضية التمعت على سطح البحيرة .

وظهرت الخيام الصغيرة بيضاء فى طرف سواد الغابة الضخمة النائمة .

وكانت النجوم التى تحرس الكون النائم تتغامز فيما بينهـــا مرسلة الى بعضها البعض ومضات اشارات قصيرة .

حدثهم كوليا عن البلاد البعيدة : عن الاطفال الصغار العاملين فى حقول الشاى فى سيلان وعن الشحاذين الذين يموتون فى شوارع بومباى وعن عمال التعدين المتعبين فى مناجم منطقة سيليزيا وعن الزنوج المعدومى الحقوق فى الولايات المتحدة الاميركية .

كان لهيب النيران يضىء وجوه الاولاد فى الظلام وربطات اعناقهم ووجه كوليا النحيل وخصلة شعره الناعم المائلة على جبينه الشاحب، والحطب الجاف يتفتت فى النار الى قطع صغيرة من الفحم الاحمر مرسلا ومضات قصيرة من اللهب البنفسجى ، وكانت قطع الفحم المشتعل تقع احيانا بعيدا عن النار فيدفع بها احدهم الى النار ، بين الاغصان الملتهبة الحارة .

وحدثهم كوليا ايضا عن الشيوعيين والشبيبة الشيوعية فى البلدان الرأسمالية ، جنود الثورة العالمية البواسل .

كان ميشا مستلقيا على بطنه وقد اسند ذقنه بيديه . وكان وجهه حارا لقربه من النار اما قدماه وظهره فقد كانت تسرى فيهم برودة آتية من البحيرة . كان يستمع الى كوليا ويفكر بالناس الشجعان الذين حطموا العالم القديم . وتملكته الرغبـــة باجتراح المآثر وحلم بحياة مقدمة الى الثورة .

انهى كوليا حديثه وامر باطلاق بوق النوم فحرك الهواء الساكن وتردد صداه فوق قمم الاشجار . وتفرق الجميع الى خيامهم وهدأت الحياة فى المعسكر .

لم ينم ميشا . كان مستلقيا على اغصان اشجار السرو العبقة الرائحة وينظر الى النجوم عبر باب الخيمة المفتوح .

كان شورا الكبير نائما الى جانب ميشا وقد تمدد بكل طوله ورأسه مغطى بالبطانية . ومن بعده سلافا وقد رقد منكمشا دافنا رأسه فى مخدة بسيطة الصنع حشيت بالحشائش . اما غينكا فقد كان يئن ويتقلب فى مرقده .

طقطق غصن خارج الخيمة فاصغى ميشا السمع . كان الصوت صادرا عن الخفراء . وسمع من خيمة البنات صوت ضحك خافت مكتوم . لا ريب انها زينا كروغلوفا ، فكل شيء لديها مثير للضحك .

تذكر ميشا لينا وايغور بوش . اين يوجد البهلوانات الجوالون الآن ؟ لم يرهم الاولاد منذ زمن بعيد ، طوال الصيف تقريبا . اين جحشهم وعربتهم ؟ ان غينكا كان يحلم دائما بهذه العربة ، لانه كان يريد التجول بدعاية السينما فيها كى يسمح له بالدخول الى السينما مجانا . ان غينكا غريب الاطوار !

تخيل ميشا كيف يقوم غينكا بالتجوال بالعربة فى شوارع موسكو ،وفجأة خطر على باله خاطر فجائى . العربة ... العربة ... كيف لم يدرك ذلك من قبل ؟ ! حتى ان ميشا نهض جالسا من الاضطراب . يا لها من فكرة ! سيكون ذلك فى غاية الروعة . اللعنة على الشيطان ، يا للروعة !

تملكته الرغبة فى ان يوقظ غينكا وسلافا حالا وان يشاركهما خطته ... الا انهما كانا مستغرقين فى النوم استغراقا شديدا وعليه ان ينتظر حتى الصباح . ان الامر الرئيسى الآن هو ايجاد عائلة بوش، وعندها ... لم يتطرق النعاس الى عينى ميشا مدة طويلة وهو يفكر بخطته الرائعة .

ابتعدت خطوات الخفراء وتوقف الضحك فى خيمة البنات وهدأ كل شيء .

بدت النار الخامدة كبقعة سوداء دائرية على الشاطىء المرتفع المغمور بضوء القمر واستمرت شرارات صغيرة تتطاير فى الرماد مدة طويلة وهى تشتعل وتنطفىء وكانها تلعب الاستغماية بين قرامى الحطب المحترقة .

الفصل الحادى والخمسون

الاستعدادات السرية

اقترب شهر آب من نهايته وتغطت البولفارات ببساط زاه من اوراق الشجر التى قد سقطت وسبحت خيوط العنكبوت فى الهواء المشبع بعبير الصيف الراحل .

اقترب ميشا وغينكا وسلافا من مقبرة دير نوفوديفيتشى .

كانت الغربان تعشش فى شقوق الجدار العالى ونعيقها المرتفع يملأ المقبرة الموحشة ، وذبلت الحشائش الكئيبة على ركام القبور واصفر لونها واهتزت اسوار القبور المعدنيـة تحت ضربات الريح الشديدة .

قال ميشا :

– سنضطر الى الانتظار فلا ريب انهما سيأتيان قريبا .

جلس الاصدقاء على مقعد التصق بالارض .

اعلن غينكا وهو يتطلع الى القبور :

– ان نصف الاموات يدفنون احياء .

سأله سلافا :

– لماذا ؟

– لانه يبدو على الانسان انه مات الا انه فى الواقع استغرق فى حالة سبات ، ويستيقظ منها فى القبر . وعندها فليحاول ان يثبت بانه حى .

قال ميشا :

– ان هذا يحدث ولكن نادرا .

اعترض غينكا قائلا :

– بالعكس ، انه يحدث غالبا . يجب امرار تيار كهربائى فى الميت وعندها لن يحدث اى خطأ .

اعلن ميشا قائلا :

– نظرية جديدة للدكتور فى الطب غينادى بيتروف !

واضاف سلافا :

– ساعات الاستقبال من الثانية حتى الرابعة .

قال غينكا :

– اضحكا ، اضحكا . ستدفنــان حيين وعندهــا تعرفــان . اضحكا ! – وبعد برهة سأل بصبر نافد :

– متى يأتيان ؟

اجاب ميشا :

– سيأتيان . لقد وعدا وهذا يعنى انهما سيأتيان .

قال سلافا :

– لعل من الافضل لنا ان نذهب الى الميليشيا ونحدثهم بكل شيء .

قال غينكا غاضبا :

– لابد انك فقدت عقلك ! حتى تحصل الميليشيــا على الكنز كله ونبقى نحن على الحصيرة !

قال ميشا :

– ما زال لدينا الوقت للذهاب الى الميليشيا . علينــا اولا توضيح كل شيء كمــا يجب . وبشكل عــام سنفعل كمــا سبق وان قررنا .

ظهر ايغور ولينا بوش من بوابة الدير ، وحيا الاولاد وجلسا الى جانبهم .

كانت لينا ترتدى معطفا خفيفا وعلى رأسها منديل زاهى الالوان ، اما ايغور فقد كان ببدلة وربطة عنق وقبعة على الموضة وعليه مظهر الجد كعادته . وعندما جلس نظر الى ساعته وقال :

– يبدو اننا لم نتأخر .

نظرت لينا الى الاولاد مبتسمة وسألت :

– كيف حالكم ؟

اجاب ميشا بالنيابة عن الجميع :

– لا بأس . وكيف حالكما ؟

– لا بأس ايضا . لقد عدنا مؤخرا من جولة طويلة .

– واين كنتم ؟

– فى كورسك واوريول والقفقاس . . .

قال غينكا :

– يا عينى على القفقاس ! ان النقوع ينبت هناك .

فقال سلافا :
– فلنقل ان النقوع لا ينبت هناك .
سأل ميشا :
– ماذا قررتما بشأن ما طلبناه ؟
اجاب ايغور بصوت عميق :
– لقد رتبنا كل شيء .
واكدت لينا كلامه بقولها :
– نعم ، لقد اتفقنا . يمكنكم ان تأخذوها . ولكن لماذا تحتاجون اليها ؟ انها مخربة تماما .
قال ميشا :
– سنصلحها .
سألت لينا مستفسرة :
– ولكن ما حاجتكم بالعربة ؟
اجاب ميشا مراوغا :
– لأمر ما .
قالت لينا فجأة :
– انا واثقة بانكم تبحثون عن كنز .
ذهل الاولاد :
– ولماذا تعتقدين ذلك ؟
– لان منظر الذين يبحثون عن كنز يبدو ابله للغاية .
قال غينكا :
– انك لم تحزرى ، فنحن لا نبحث عن اى كنز . انك تدركين بنفسك ان كلا يستطيع الانشغال بما يريد اما انا فلن انشغل بمثل هذه السفاسف .
قال ميشا :
– حسنا ، فلندع المزاح جانبا . متى نستطيع اخذ العربة وكم يجب علينا ان ندفع ثمنا لها ؟
قالت لينا :
– تستطيعون اخذها فى اى وقت ولا يجب ان تدفعوا شيئا ، فلم يعد السيرك بحاجة اليها .
واضاف ايغور برزانة :

– لقد شطبت من الحسابات . – ونهض ثم نظر الى ساعته وقال :

– لينا ، لقد حان وقت ذهابنا .

اوصلهما الاولاد حتى الترام . وبالقرب من الموقف كان بائع متجول يضرب الارض بقدميه ويدلك يديه من البرد . كانت قبعته تصل حتى اذنيه . اشترى الاولاد منه حلوى وضيفوا لينا وايغور اللذين ركبا الترام بعد ذلك وذهبا . ثم توجه الاصدقاء الى بيوتهم عبر شارع بولشوى تساريتسينسكى الذى يخترق ديفيتشيه بوليه .

الفصل الثانى والخمسون

عربة الدعاية

كانت رياح الخريف تلعب باوراق الاشجار المتساقطة فى الحديقة الخالية فتجمعها فى كومة وتدور بها حول الاشجار العارية وتلقى بها بعد ذلك على الدرجات الغرانيتية الرمادية التى تصعد الى الكنيسة ثم تحف بها فوق المقاعد المنفردة وترميها بين اقدام المارة وتسحبها اكواما قذرة الى اعلى عبر شارع اوستوجينكا وتطرق بها دولابى عربة دعاية زاهية الالوان تقف عند ناصية زقاق فسيفولوجسكى . كانت على العربة لوحتان من خشب البلاكية ثبتتا بشكل مائل وعلقت عليهما اعلانات الفلم الجديد «قائد الفريق ايفانوف» . وفى الاعلى حيث تلتقى اللوحتان اهتزت حروف من البلاكية : «سينما آرس فى الاربات» .

تعود المارة فى شارع اوستوجينكا على رؤية العربة التى تلزم الناصية منذ بضعة ايام ، وفى المساء يأتى ولد ويذهب بها . كان العجوز الاصلع صاحب دكان بيع الطوابع يشتم الولد لأنه يترك العربة مقابل الدكان ، الا ان الولد لم يكن يجيبه بشىء بل كان يضع احجارا تحت الدولابين وينصرف بهدوء .

ظهر الولد فى مساء احد الايام وسحب الاحجار من تحت دولابى العربة ودفعها الى فناء الدكان وذهب الى مسكن البواب .

كان البواب تتريا نحيلا احمر الشعر يجلس على سرير عريض مدليا بقدميه الحافيتين على الارض .

قال له الولد :
– لقد تعطلت عربتي يا عمو . هل يمكنني ان ادعها في الفناء؟
نظر البواب بكسل من النافذة وقال :
– تعطلت مرة اخرى ، تعطلت مرة اخرى . – وتثاءب وربت بكفه على شفتيه وتابع قائلا : – فلتبق هناك ، فذلك لا يضايقنا .
خرج الولد وتفحص العربة ومس الفطية الموجودة في اعلاها ونقر اللوحة نقرة خفيفة وانصرف .
خلا الفناء من الناس واطفئت الاضواء في النوافذ .
عندما حل الظلام تماما خرج بائع الطوابع العجوز من مدخل الباب الخلفي يرافقه فيلين .
توقفا امام العربة تماما وسأل العجوز بصوت خافت :
– يعني ان الامر قد تقرر ؟
اجاب فيلين بهمس يغلب عليه الهياج :
– نعم . ما الذي يدعوه للانتظار ؟ لقد مر عام وانت تجرجر بالقضية .
تمتم العجوز :
– انها شيفرة معقدة ، انها ليتوريبيا ولا استطيع قراءتها دون مفتاح .
همس فيلين وهو ينحني نحو العجوز :
– لو انك تعرف ماذا يوجد هناك لبذلت جهدك في قراءتها .
قال العجوز وهو يفتح يديه معبرا عن عجزه :
– افهم ، افهم ، ولكن ما العمل ! لعل فاليرى سيغيزموندوفيتش ينتظر بعض الوقت .
– لا يستطيع الانتظار اكثر من ذلك . مفهوم ؟ لا يستطيع . وهكذا فيجب ان تعد كل شيء حتى يوم الاحد . لن آتي انا بل سأرسل ابني .

انصرف فيلين ، ومشى العجوز متثاقلا الى البيت وهو يتمتم بفمه الخالي من الاسنان . ظهر خياله المحدب في النافذة المضاءة . تحرك ببطء في المطبخ وانحنى ودق بابور الكاز فارتفعت الالسنة الحمراء الطويلة تلعق جوانب ابريق الشاى .

ظل العجوز مدة طويلة يقشر البطاطا ببطء وعناية وكانت القشور الطويلة المنكسرة تقع فى سطل القاذورات .
انتقل العجوز من المطبخ الى الغرفة وانحنى فوق الطاولة . بقى دون حراك بعضا من الوقت ثم رفع رأسه ونظر الى النافذة التى تقف العربة امامها وارخى الستارة . ارخى الستارة بيد واحدة اما اليد الاخرى فقد كانت تمسك بالغمد . كان ظاهرا بشكل واضح . كان غمدا من الجلد الاسود ذا طوق معدنى من الاعلى وينتهى بكرية صغيرة فى اسفله . . .
خرج البواب وهرش جسمه وهو ينظر الى القمر وتثاءب وتوجه نحو البوابة . وعندما هم باغلاقها ظهر غينكا وسلافا .
قال البواب :
– خذ عربتك ، انها على ما يرام ولم يمسها احد . خذها .
سحب الولدان الاحجار من تحت دولابى العربة ودفعا بها الى الشارع فاغلق الرجل بوابة الفناء . . .
ادخل الولدان العربة فى زقاق مقفر ورفعا الفطية العلوية وفتحا اللوحتين فانسل ميشا من العربة .
عاد ميشا الى البيت فى وقت متأخر من المساء ولم تكن ماما موجودة هناك اذ انها كانت تعمل فى النوبة الليلية .
خلع ميشا ثيابه واندس فى الفراش بسرعة وبقى مدة طويلة مستلقيا دون ان يراوده النوم .
ما احسن الفكرة التى ابتدعوها بالعربة ! كانوا يراقبون منها دكان العجوز يوما بعد يوم خلال اسبوع . وعندما كان العجوز يودع زواره ، كان يتحدث واياهم بالقرب من العربة دون ان يخمن ان احدا يجلس هناك . وكانت العربة تترك فى الفناء اثناء الليل ، وبهذا الشكل عرفوا كل نظام حياة العجوز ، وشاهدوا الغمد عدة مرات . واذا نزع الطوق المعدنى واديرت الكرية الصغيرة فان الغمد يصبح بشكل مروحة ، كتب عليها شيء ما . ان شيئا واحدا غير مفهوم وهو قول العجوز لفيلين بانه لا يستطيع قراءة الشيفرة دون مفتاح ، مع ان مفتاحها موجود فى الغمد نفسه . فماذا يقرأ اذن ؟
ان الرجل الطويل يدعى فاليرى سيغيزموندوفيتش . وواضح انه نيكيتسكى . والواقع انهم لم يروه بعد ذلك ابدا ، الا ان الامر

الهام هو الاستيلاء على الغمد ، وبعدها لن يستطيع نيكيتسكى الاختفاء . وسيصبح الامر اسهل الآن . انهم يستطيعون خداع بوركا ، فهو يطمع فى العربة منذ زمن بعيد .

وسيتوجب ترك العربة طبعا . انهم يدخلون حقا الى السينما مجانا مقابل التجوال بها ، الا ان افتتاح المدارس سيكون يوم الاثنين على كل حال ، وليس من اللائق ان يتعاطى الطلائع مثل هذه المهنة .

الفصل الثالث والخمسون

الغمد

سار بوركا البخيل فى زقاق نيكولسكى وهو يصفر . كان يحمل فى يديه رزمة مربوطة بخيط من المصيص . كان يسير دون ان يتوقف لان اباه امره بألا ينشغل باى شىء وهو فى طريقه من عند بائع الطوابع الى البيت .

لقد كان من الممكن ان يجرى تنفيذ هذا الامر بدقة لو لا ان انتباه بوركا لم ينجذب الى العربة التى تقوم بالدعاية لسينما «آرس» ، الواقفة فى فناء الكنيسة ، وقد اجتمع حولها ميشا وغينكا وسلافا والمتشرد كوروفين . كانوا يتفحصون العربة وهم يتناقشون فيما بينهم بحدة .

اقترب بوركا منهم وتطلع الى الشلة بفضول .

قال ميشا وهو يخبط بقدمه على الدولاب :

— انظر الى الكاوتشوك ، ان الاطار وحده يساوى الكثير .

شخر كوروفين :

— انه الثمن النهائى .

فقال غينكا :

— دعك من هذا ! خمسة روبلات لمثل هذه العربة !

اقترب بوركا اكثر من الاولاد وسأل :

— أتبيعون العربة ؟

التفت ميشا نحوه وهو يقول :

— اننا نبيعها ، وما شأنك انت ؟

– وهل السؤال ممنوع ؟
– لا تسأل اسئلة بدون «طعمة» .
– ولكن ربما استطيع شراءها !
– افعل اذا كان بامكانك .
– كم تطلبون ثمنا لها ؟
– عشرة روبلات .
جلس بوركا القرفصاء واخذ يتفحص العربة ويتلمس الدولابين ، وقد وضع الرزمة الى جانبه .
امسك ميشا العربة من العريش وقال لبوركا :
– لماذا تتلمس ؟ ان الدولابين برولمانين . انظر اليها كيف تسير . – ودفع العربة الى امام وتابع :
– أتسمع كيف تسير ؟
تحرك بوركا مع العربة وهو يستمع الى صوت الدولابين وعليه مظهر الخبير المتضلع .
توقف ميشا وقال :
– انها تسير لوحدها . جرب بنفسك .
دفع بوركا العربة فسارت بسهولة كبيرة فعلا .
سار غينكا وسلافكا خلف العربة ايضا مخفيين كوروفين بجسديهما .
قال ميشا وهو ينزع الفطية ويفتح اللوحتين :
– انظر الى اهم ما فيها . أترى ؟ يمكنك النوم بسهولة هنا . توقف العربة وتستلقي فيها متى اردت .
قال بوركا :
– كفاك اطراء لها . لقد اصبح الكاوتشوك باليا تماما .
– اصبح الكاوتشوك باليا ؟ انظر الى ما هو مكتوب عليه : «مصنع «ترىاوغولنيك» ، نخب اول» .
– مكتوب عليه ! وحتى الدهان انقشر عنها . انكم تطلبون ثمنا مرتفعا لها .
ارتفع فجأة صوت كوروفين :
– حسنا يا ميشا ، سآخذ العربة انا .
اختفت حدة ميشا دون انتظار فقال :

– ان هذا احسن . خذها . امـا انت يا بخيل فقد طارت منك العربة .

– يمكنني ان ادفع اكثر .

– لا ، لم يعد ذلك بامكانك الآن .

اقترب بوركا من رزمته واخذها وهو يقول :

– وليش ؟

فضحك ميشا ضحكة ساخرة واجاب :

– بشان فطيش !

تطلع بوركا بحيرة الى الاولاد الذين كانوا يبتسمون باستهزاء الا كوروفين الذى كان ينظر بوجوم كعادته .

قال بوركا :

– اذا لم ترغب فانت حر ! سوف تسألنى بنفسك فيما بعد ، وعندئذ لن اعطيك اكثر من عشرين كوبيكا .

اختفى بوركا وراء البوابة وهرع الاولاد نحو محراب الكنيسة الجانبى واجتمعوا وراءه حول كوروفين الذى اخرج الغمد من جيبه .

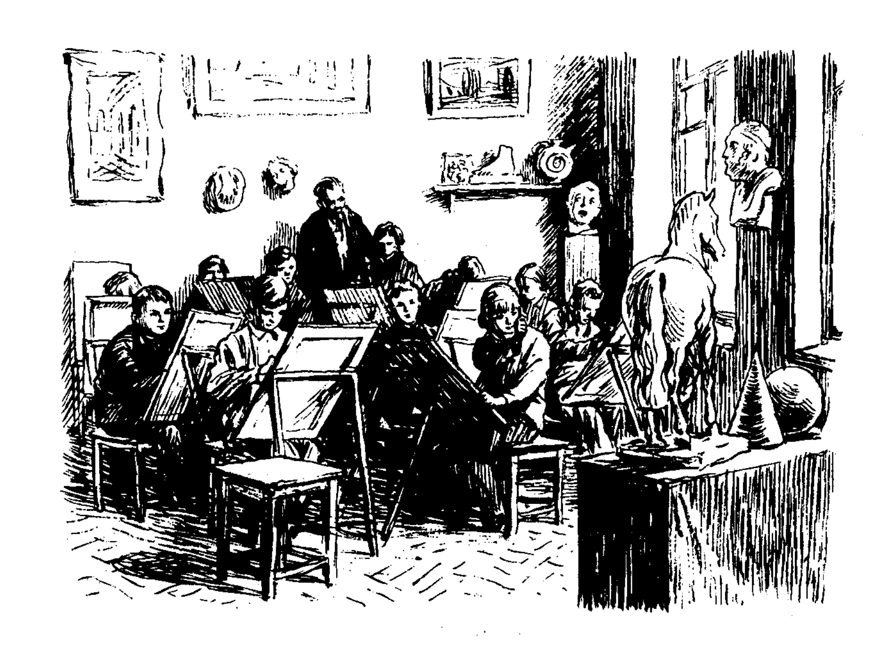
اختطف ميشا الغمد منه فاقد الصبر وقلبه بين يديه ثم انتزع الطوق المعدنى بحذر وادار الكرية .

اصبح الغمد بشكل مروحة . نظر الاولاد بعيون مفتوحة الى الغمد ثم تبادلوا نظرات الدهشة فيما بينهم ...

ارتسم على الوجه الداخلى للغمد علامات بشكل عمود ، هى عبارة عن نقاط وشرطات ودوائر ، كالموجودة على شريحة المدية تماما .

ولم يكن هناك شيء آخر فى الغمد .





القسم الخامس

الصف السابع «الشعبة الثانية»

الفصل الرابع والخمسون

الخالة بروشا

اتضح انه لا يوجد طباشير اثناء درس الرياضيات .
نظرت المعلمة الكسندرة سيرغييفنا بصرامة الى ميشا وقالت :
– لماذا لا يوجد طباشير ايها العريف ؟
قفز ميشا من مكانه ودور عينيه متصنعا الاستغراب وهو يقول :

— أحقا لا يوجد ؟ لقد كانت موجودة قبل بداية الدرس مباشرة.

قالت المعلمة بتهكم :

— يعنى ذلك انه هرب . هيا عد به الى هنا .

خرج ميشا من الصف واخذ يعدو نحو غرفة خلع المعاطف لجلب الطباشير ، وعندما وصل اليها شاهد الخالة بروشا المسؤولة عن الغرفة منخرطة فى البكاء .

سألها ميشا وهو ينظر الى عينيها :

— ماذا بك يا خالتى بروشا ؟ لماذا تبكين ؟ من اساء اليك ؟

لم يكن احد يعلم بالضبط لماذا سميت المسؤولة عن غرفة خلع المعاطف بالخالة بروشا * . لعل ذلك كان اسمها الحقيقى ، ام لعله بسبب الدبوس الاصفر الكبير الذى كانت تشبك به بلوزتها المقلمة عند ذقنها تماما ، او لعله من الممكن انها سميت كذلك لانها كانت هى نفسها تشبه البروش — عجوزة صغيرة الحجم ، سمينة . كانت تجلس دائما امام غرفة خلع المعاطف تحوك جوربا طويلا وتبدو مثل كومة وجدت لها مكانا فى قعر بئر درج عميقة صفحت فتحتها بالحديد المشبك . كان يبدو كأنها تستطيع قراءة تعويذة على شحاذ العين . والواقع انها كانت تنظر الى العين المصابة وتتمتم بشىء ما فيختفى الشحاذ احيانا فى اليوم التالى واحيانا بعد اسبوع .

وها هى الخالة بروشا الآن تجلس امام الغرفة باكية .

حاول ميشا ان يستفسر منها فسألها :

— قولى لى من اساء اليك ؟

مسحت الخالة بروشا عينيها بالمنديل وهى تقول :

— انى اخدم منذ ثلاثين عاما لم يوجه لى احد خلالها كلمة نابية ، وقد اصبحوا الآن يلقبوننى بالعجوزة الحمقاء .

— من ؟ من ؟

لوحت الخالة بروشا بيدها قائلة :

— الله يهديه !

غضب ميشا وصاح :

---

* لا يجهل القارئ ان كلمة «بروشا» تعنى بروش اى مشبك او دبوس كبير . **(المترجم)** .

— ولماذا يهديه الله ؟ ليس لاحد الحق فى توجيه الاهانات . من تجرأ على شتمك ؟

— لقد شتمنى يورا ستوتسكى . جاء متأخرا ولدى اوامر بعدم السماح للمتأخرين بالدخول . قلت له : اذهب الى المدير . فقال لى بانى عجوزة حمقاء ! مع العلم بان ابويه طيبان . . . وقد تعلمت امه فى هذه المدرسة اثناء العهد القيصرى . ولكن ارجوك يا ميشينكا ، — تمتمت الخالة بروشا مذعورة — لا تخبر احدا بالامر .

لكن ميشا لم يسمع كلماتها الاخيرة لانه كان قد اختطف الطباشير اختطافا واندفع نحو الصف صاعدا ثلاث درجات فى كل قفزة.

كان فيليا كيتوف الملقب «بالحوت» يتعذب امام السبورة والكساندرة سيرغييفنا تقف صامتة ومنظرها ينذر بشر مستطير . فللبرهنة على تساوى زاويتين فى مثلث متساوى الساقين قام الحوت بضرب مربع الوتر فى مجموع مربعى الضلعين الآخرين وحملق السبورة مذهولا من النتيجة . كان الحوت يعيد السنة فى الصف السابع وسيعيدها مرة ثانية على الارجح . كان دائم النوم اثناء الدروس ويحفر خشب الرحلاية بالمطواة ويستعطى الطعام من الاولاد اثناء الفرصة . ولم يكن يستعطى لانه جائع بل لانه كان شرها كبيرا .

— وبعد ذلك ! — قالت الكسندرة سيرغييفنا ذلك بلهجة العارف بانه لن يكون بعد ذلك ما يبشر بالخير .

نظر الحوت متوسلا الى الاولاد .

قالت له الكساندرة سيرغييفنا :

— انظر الى السبورة لا الى الاولاد .

أدار الحوت من جديد ظهره السمين العاجز والذؤابة المرتبكة لشعره الاشقر .

كانت الكساندرة سيرغييفنا دائمة التمشى بين الرحالى تنظر نظرة ثاقبة الى الجميع . كانت صغيرة الحجم نحيلة ذات تسريحة عالية وانف طويل مطلى بالبودرة ، تلاحظ كل شيء ولا تصفح عن اى خطأ مهما كان تافها . وعندما اشاحت بوجهها رفعت زينا كروغلوفا يدها بسرعة مشيرة باصابعها لكل الموجودين فى الصف الى الدقائق الباقية حتى يقرع الجرس . وكانت زينا ، الوحيدة فى الصف التى لديها ساعة يد ، تجلس على الرحلاية الاولى .

نظر ميشا الى يورا بسخط : «هذا الشقى يعتد بنفسه ! ما زال يخرج بالشورت ليظهر انه قوى يتحمل البرد . لقد كتب فى الطلب : «اريد ان اصبح مثل بيتشورين» * . سأريك كيف يكون بيتشورين بعد انتهاء الدرس !»

اقتطع ميشا ورقة من الدفتر واخفاها براحة يده وكتب فيها :

«يورا شتم بروشا قائلا لها انها حمقاء ، بروشا تبكى ، يجب بحث الامر» . وكان ينظر الى السبورة اثناء ذلك فجاءت الكلمات على الورقة ملخبطة تماما .

دفع بالورقة الى سلافا الذى قرأها وهز برأسه علامة على الموافقة . اخذ ميشا الورقة وطواها ثم كتب عليها : «الى شورا اغورييف وغينكا بيتروف» — ورمى بها الى الرحلاية المجاورة .

قرأها شورا الكبير وفكر برهة ثم كتب : «الافضل عقد محاكمة مثالية . انى مستعد لان اكون مدعيا عاما» . ثم طوى الورقة والقى بها الى الشقيقتين نكراسوفا ، غير ان الكساندرة سيرغييفنا شعرت بحركة ما وراء ظهرها فالتفتت بسرعة . هدأ الجميع بسرعة ما عدا زينا كروغلوفا التى استطاعت بالكاد انزال يدها المفتوحة الاصابع .

قالت لها الكساندرة سيرغييفنا :

— كروغلوفا ، الى السبورة .

اما الحوت فقد توجه الى مكانه متثاقلا .

اتجهت الورقة من عند الشقيقتين نكراسوفا ومرت على ليوليا بودفولوتسكايا وانتهى بها المطاف عند غينكا الذى قرأها وكتب فى اسفلها : «يجب ضربه ضربا مبرحا بشكل لا ينسى فيه ذلك ابدا» .

عادت الورقة الى ميشا بنفس الطريق الذى جاءت به . قرأ جوابى شورا وغينكا واطلع سلافا عليهما ، الا ان سلافا هز رأسه علامة على النفى . سحب ميشا الورقة اليه وبدأ يكتب عليها شيئا ما ، واذا بسلافا يدفعه بقدمه تحت الرحلاية فجأة غير ان ميشا لم ينتبه فدفعه

---

* الشخصية الرئيسية فى رواية «بطل من هذا الزمان» للشاعر الروسى الشهير ميخائيل ليرمونتوف (١٨١٤ـ١٨٤١) . وقد ترجمتها دار التقدم الى العربية . وشخصية بيتشورين معروفة فى الادب بانها شخصية انسان انانى لا يجد مكانا له فى الحياة . **(المترجم)** .

سلافا مرة اخرى الا ان ذلك جاء متأخرا لان الكساندرة سيرغييفنا مدت يدها نحو الورقة وهى تقول :

— ماذا تكتب ؟

دعك ميشا الورقة ونهض وهو صامت .

— ارنى ما فى يدك!

كان ميشا صامتا لا يحول بصره عن لوحة للرسوم البيانية معلقة على الحائط .

قالت الكساندرة سيرغييفنا بصوت منخفض تماما :

— انى اتوجه اليك بالسؤال ، ماذا كنت تكتب اثناء الدرس ؟

— لاحظت وجود كتاب تحت الدفاتر فاخذته وسألت : — وما هذا ايضا ؟ — وقرأت بصوت مرتفع : — «مرشد فى تاريخ الاسلحة اليدوية ووصفها ورسومها منذ اقدم العصور حتى بداية القرن التاسع عشر» . أتقرأ كتبا خارجة عن الموضوع اثناء الدرس ؟

حاول ميشا تبرئة نفسه فقال :

— لقد كان ملقيا هنا فقط ولم اكن اقرأه .

— ولم تكتب الورقة ايضا اليس كذلك ؟ الا تخجل من نفسك؟ عريف وعضو فى منظمة الطلائع وفى لجنة التلاميذ . ستأخذ هذا الكتاب من عند المدير . اما الآن فغادر الصف .

وغادر ميشا الصف دون ان يتطلع الى احد .

الفصل الخامس والخمسون

اجتماع للتلاميذ

خرج من الصف وجلس على حافة النافذة التى لاح منها الجانب المقابل لزقاق كريفو ارباتسكى وفيه مصباحان مشتعلان على الرغم من عدم حلول الظلام بعد ، ولاح من النافذة ايضا ساحة المدرسة التى غمرها الثلج .

لم يكن يعكر هدوء الممر الا القطرات المتساقطة من برميل للماء المغلى فى سطل معدنى واصوات البيانو الآتية من قاعة الرياضة، فى الطابق الاعلى ، يتردد معها فى السقف بخفوت وقع خطوات متزنة.

لم تجر الامور على ما يرام ! كيف اظهر الآن امام المدير آليكسى ايفانوفيتش ؟ انه سيسأل بلا شك عن الكتاب ... لماذا ولاى سبب ...

وكل هذا بسبب ذلك المعتد بنفسه يوركا الكشاف !

قرع الجرس ، وشق الهدوء صوت قرع ابواب كثيرة وخطوات التلاميذ وصياحهم وزعيقهم .

خرج يورا من الصف .

اوقفه ميشا وسأله :

— لماذا شتمت الخالة بروشا ؟

نظر اليه يورا بازدراء وقال :

— وما شأنك انت ؟

— لا تنظر الى بهذا الشكل والا ستقبض اجرك بسرعة !

احاط بهما الاولاد .

تابع ميشا :

ما هذا العادة التى تعودت عليها بشتمك للمستخدمين ؟ لست هنا كما فى البيت حيث تصيح فى وجه الخادمة .

وقف غينكا مقابل يورا وهو يقول :

— لا يجب التحدث معه يا ميشا ، وانما يجب معاملته بهذا الشكل !

وتهيأ للعراك الا ان ميشا اوقفه وقال :

— اسمع يا يورا ، يجب عليك ان تعتذر من الخالة بروشا .

رفع يورا حاجبيه الدقيقين مندهشا وقال :

— انا اعتذر من خادمة ؟

— تماما !

— انا اشك فى ذلك !

— سوف نرغمك واذا لم تعتذر سأطرح القضية فى اجتماع للتلاميذ .

— ان اجتماعكم لا يهمنى !

— سوف نجعله يهمك كما يجب !

— سنرى ذلك .

— سنرى ذلك .

دخل غينكا الصف مسرعا قبل بداية الدرس الاخير وهو يصيح :
– هورا ! ان آلما لن تأتى ، ولن يكون هناك درس اللغة الالمانية ، اجمعوا الكتب وهيا بنا !
اوقفه ميشا قائلا :
انتظر . هدوءا يا جماعة ! سنجرى الآن اجتماعا .
قال غينكا باستياء وهو يمط بكلامه :
– هاد اللى ناقص ! . . فلنذهب الى البيت ابكر بساعتين !
اما ليوليا بودفولوتسكايا ، وهى بنت جميلة ذات شعر اشقر ، فقد قالت :
– يبدو وكأنه لا يمكن عقد الاجتماع فى وقت آخر ، بل اليوم حتما !
اعلن الحوت :
– لن احضر الاجتماع ، اريد ان آكل .
اغلق ميشا الباب وهو يقول :
– انت دائما تريد الاكل . سيجرى الاجتماع وكفى .
وعندما اتخذ الجميع اماكنهم قال :
– سنبحث امرا يتعلق بيورا . الكلمة لغينكا بيتروف .
نهض غينكا وبدأ الكلام وهو يلوح بيديه :
– ان يورا قد جلب العار لصفنا . لقد دعا الخالة بروشا بالعجوزة الحمقاء . انها فضيحة ، لسنا الآن فى عهد القيصرية . اعتقد انه لن يجرؤ على قول ذلك لاليكسى ايفانوفيتش لانه يخافه ، اما الخالة بروشا–عاملة النظافة البسيطة فيمكن شتمها بهذا الشكل ؟ لقد حان الوقت لوضع حد لهذا السلوك المتعجرف . وافراد الكشافة هم بشكل عام الى جانب البرجوازيين . انى اقترح طرد يورا من المدرسة .
نهض سلافا ليقول كلمته :
– لقد حان الوقت ليورا بان يحدد طريقة تفكيره فى الحياة . انه انسان فردى منعزل عن الجماعة . ليس هناك ما يدعوه لتقليد بيتشورين . ان بيتشورين هو نتاج انحلال مجتمع النبلاء ، وذلك ما يعرفه الجميع . يجب على يورا ان يعتذر من الخالة بروشا ، اما طرده من المدرسة فانه عقاب اقسى من اللازم .

تقدمت ليوليا بودفولوتسكايا وقالت :
– انا لا افهم لاى شيء يقوم الطلائع بمهاجمة يـــورا . ان غينكا يعفرت اكثر منه بالف مرة مع انه فى الطلائع . ان هذا ليس من العدل بشيء . يجب ان نستمع الى يورا قبل كل شيء . فربما لم يكن هناك اى شيء .
قال يورا دون ان ينهض من مكانه ودون ان يحيد ببصره عن النافذة :
– انى اولا لم اعد منتسبا للكشافة . واذا كان غينكـــا لا يعرف فليصمت . وبالاضافة الى ذلك انه لم يصبح مديرا بعد لكى يطرد من المدرسة من يشاء . وليس من داع لان تعتدّ بنفسـه بهذا الشكل . وثانيـــا لا اوافق من حيث المبدأ على ان تغلق غرفة المعاطف لان ذلك يحدد من حريتنا . وثالثا لا اريد مطلقـــا تقديم حساب عن اعمالى امام احد . لن اعتذر لانى لا اريـــد اذلال نفسى امام كل عاملة نظافة . تستطيعون ان تقرروا ما طاب لكم ، وهذا لا يهمنى اطلاقا .
اقترب شورا اغورييف من طاولة المعلم والتفت الى التلاميذ والقى هذا الخطاب :
– ايها الرفاق ! يجب ان ننظر الى حادثة الخالة بروشا بشكل اعمق من ذلك بكثير . مذا لدينا ؟ ان لدينا واقعين . الاول هـو توجيه الشتائم الى امرأة ، الامر الذى لا يمكن السماح به . والثانى هو استعمال كلمة «حمقاء» . ان مثل هذه الكلمات تجعل لساننـــا متسخا ، لساننا العظيم ، القادر ، الرائع ، كما قال نكراسوف * .
صحح له ميشا خطأه بقوله :
– ليس نكراسوف بل تورغينيف * * .
قال شورا بلهجة المطلع :
– كلا ، ان نكراسوف هو الذى قال اولا ثم اعاد تورغينيف

---

* نيكولاى نكراسوف (١٨٢١ – ١٨٧٨) . شاعر ديمقراطى روسى . **(المترجم)** .

* * ايفان تورغينيف (١٨١٨–١٨٨٣) . كاتب روسى مشهور . **(المترجم)** .

ذلك . يجب عليك قراءة المصادر الاساسية لكى تعرف . انى اقترح تحريم استعمال هذه الكلمات وما شابهها .
توجه شورا الى رحلايته بادى الارتياح من خطابه وجلس فى مكانه بمظهر مهيب .
– من يريد ابداء رأيه ايضا ؟–سأل ميشا وقد رأى ان زينا كروغلوفا تريد ذلك الا انها مترددة وقال : – تكلمى يا زينا ، مم انت خائفة ؟
نهضت زينا واخذت تتكلم بسرعة :
– ان هذا الشيء فظيع يا بنات ! لقد رأيت بنفسى كيف كانت الخالة بروشا تبكى . ولا داعى للدفاع عن يورا . واذا كان يعجب ليوليا فلتقل هذا بصراحة . وبعد ذلك يأتى شورا . لقد تكلم عن النساء بشكل جميل جدا فى حين انه هو نفسه يكتب الرسائل للبنات اثناء الدرس . وهذا سيء ايضا . – وتابعت زينا ، – اود ان اتحدث عن غينكا بيتروف . انه دائما ما يجعلنى اضحك اثناء الدروس .
تكلم ميشا بعد ان انتهى الجميع :
– ان يورا قد شتم الخالة بروشا لانه يعتبر نفسه ارفع منها. ولكن باى شيء هو ارفع ؟ لا بشيء اعتقد . انها تعمل فى المدرسة منذ ثلاثين عاما ، تجلب الفائدة للمجتمع ، اما يورا فانه يعيش عالة على ابيه . ولم يأت بشيء ذى فائدة فى الحياة بعد وها هو يشتم انسانا عاملا . اقترح : يجب على يورا ان يعتذر من الخالة بروشا واذا رفض تعرض المسألة على لجنة التلاميذ . فلتبحث المدرسة كلها فعلته الدنيئة .
وقرر اجتماع التلاميذ ارغام يورا على الاعتذار من الخالة بروشا.

الفصل السادس والخمسون

الليتوريا

توجه ميشا الى مدير المدرسة بعد انتهاء الاجتماع .
كان اليكسى ايفانوفيتش يجلس امام مكتبه يتصفح نفس

الكتاب الذى انتزعته الكساندرة سيرغييفنا من ميشا . اشار الى ميشا بالجلوس على الاريكة قائلا :
– اجلس .
وجلس ميشا .
سأل اليكسى ايفانوفيتش :
– ماذا بحثتم اثناء الاجتماع ؟
قص عليه ميشا كل شيء .
قال اليكسى ايفانوفيتش :
– ان ما قررتم هو نصف القضية . يجب ان يدرك يورا مدى دناءة فعلته .
وصمت فترة ثم سأل :
– وهل بحث سلوكك انت فى الاجتماع ؟
احمر وجه ميشا وسأل :
– اى سلوك ؟
– تقرأ كتبا غريبة وتكتب اوراقا اثناء الدرس .
قال ميشا :
– لم اكن اقرأ الكتاب بل كان موجودا بين الدفاتر فقط . اما كتابة الورقة فقد قمت بذلك بالفعل .
نظر اليكسى ايفانوفيتش بامعان الى ميشا وقال :
– قل لى يا بولياكوف ، لماذا تهتم بالسلاح الابيض .
اجاب ميشا وهو ينظر الى الارض :
– بلا سبب .
سأل اليكسى ايفانوفيتش وكأنه لم يسمع اجابة ميشا :
– أهل تهتم انت وزملاؤك بالشيفرة ؟
صمت ميشا ، واستمر اليكسى ايفانوفيتش يقول وكأنه لم يلاحظ صمته مرة اخرى :
– عندما كنت صغيرا ، كنت مشغوفا كذلك بالشيفرة . انها شغلة ممتعة جدا .
بدأ ميشا يفكر . ربما يريه الشريحة ؟ ها قد مر شهران وهم يبذلون جهودهم دون ان ينجحوا فى قراءة الكتابة . ان العلامات على الشريحتين متطابقة تماما ولا يوجد لها مفتاح . ومن الواضح ان

بوليفوى كان يعتقد ان مفتاح الشيفرة موجود فى الغمد اما نيكيتسكى فقد كان يظن انه موجود فى المدية .

اما فى الواقع فالمفتاح ليس موجودا لا هنا ولا هنـــاك ... ويمكن ان يستطيع اليكسى ايفانوفيتش حلها .

زفر ميشا زفرة عميقة واخرج من جيبه الشريحة مـن مقبض المدية وناولها لاليكسى ايفانوفيتش وهو يقول :

– هاك يا اليكسى ايفانوفيتش ، لم نستطع حل هذه الكتابة باى شكل من الاشكال . لقد سمعت ان ذلك من نوع ليتوريبيا ، ولكننا لا نعرف ماذا تعنى الليتوريبيا .

قال اليكسى ايفانوفيتش وهو يتفحص الشريحة :

– نعم ، يبدو ذلك . ان الليتوريبيا كتابة سرية استعملت فى الادب الروسى القديـــم . كانت الليتوريبيـــا من نوعين : بسيطة دعيت كذلك بالكتابة الرطينية . ومن هنا اتت كلمـــة «الرطانة» . وهذه شيفرة بسيطة . تكتب حروف الهجاء بصفين : تستعمل الحروف العليا عوضا عن السفلى والسفلى عوضا عن العليا . اما الليتوريبيا المعقدة فهى اكثر صعوبة . فقد قسمت فيها حروف الهجاء الى ثلاث اقسام فى كل منها عشرة حروف * . وكان يرمـز للعشرة حروف الاولى بنقاط . لحرف «آ» نقطة واحدة ولحرف «ب» نقطتان ، وهلمجرا . والعشرة الثانية رمز اليها بشرطات . حرف «ل» ، مثلا ، شرطة واحدة و«م» شرطتان ، وهلمجرا . ورمـز الى العشرة حروف الاخيرة بدوائر صغيرة . حرف «خ» مثلا دائرة واحدة وحرف «تس» دائرتان ... وكانت هذه العلامات تكتب عموديا . افهمت الآن ؟

قال ميشا مندهشا :

– ان ذلك سهل جدا اذن ! انى اعرف الآن كيف اقرأ الكتابة على الشريحة !

قال اليكسى ايفانوفيتش معترضا :

– لقد كان ذلك سهلا لو كان فى كل عمود من هذه الشريحة

---

* كانت الحروف الهجائية الروسيـــة تتالف من ثلاثين حرفـــا . **(المترجم)** .

كل العلامات ، من الواحد حتى العشرة . اما هنا فلا يوجد اكثر من خمسة . . .

اخذ اليكسى ايفانوفيتش بالتفكير ثم قال ببطء :

اذا كانت هذه ليتوريبيا فمعنى ذلك ان لدينـــا نصف النص فقط . ويجب ان يكون النصف الآخر فى مكان ما .

الفصل السابع والخمسون

كتابة غريبة

هذا هو السر فى الامر اذن ! تحسس ميشا الغمد الموجود فى جيبه . لقد اصبح مفهوما الآن لماذا لم يستطع العجوز قراءة النص .

نظر اليكسى ايفانوفيتش الى ميشا بتساؤل واعاد القول :

— يجب ان يكون النصف الآخر للنص فى مكان ما .

هيا ، فليكن ما يكون ! اخرج ميشـــا الغمد ونزع الطوق وفتحه على شكل مروحة ووضعه على المكتب .

جمع اليكسى ايفانوفيتش بين الشريحتين ، فرأى ميشا الآن فقط ان هناك نتوءا على احداهما وتجويفا على الاخرى يشيران الى المكان الذى يجب جمعهما فيه . كيف لم يلاحظ ذلك قبل الآن ؟

بعد ان جمع اليكسى ايفانوفيتش الشريحتين بسطهمـــا على المكتب ووضع فوقهما ثقالة الورق .

قال لميشا :

— انظر كيف اصبح لدينا ليتوريبيا ذات عشرة علامـــات . فلنحاول الآن قراءتها .

نهض واقترب من الخزانة وتناول من على رفها كتابا كبيرا وضعه امامه وبدأ يتصفحه بامعان .

وضع اليكسى ايفانوفيتش اصبعيه بين الصفحات وقال لميشا :

— وهكـذا . خذ قلما وورقة واكتب . . . «ب» هل كتبت ؟ «هـ» ، «ذ» ، «ه» . ما هى النتيجة ؟

قرأ ميشا :

— «بهذه» .

– «ا» ، «ل» ، «ز» ، «ا» ، «ح» ، «ف» ، «ة» · ماذا كتبت ؟
قال ميشا :
– «الزاحفة» .
وهكذا ، كلمة بعد كلمة ، كتب ميشا ما يلى : «بهذه الزاحفة تربط الساعة وعندما يصل العقرب الى منتصف النهار يصبح البرج مفتوحا من تلقاء نفسه» .
استغرق اليكسى ايفانوفيتش فى التفكير وقال :
– كتابة غريبة ، غريبة جدا .
تأمل الغمد وهو صامت ثم نظر الى ميشا وقال :
– ماذا تقول بهذا الصدد ؟
هز ميشا كتفيه دون ان يجيب بكلمة .
قال اليكسى ايفانوفيتش :
– انك تعرف اكثر منى على حال . مثلا : اين الخنجر ؟
نظر ميشا صامتا الى الارض .
قال اليكسى ايفانوفيتش :
– اذا كان هناك غمد فيجب ان يكون هناك خنجر .
اخرج ميشا المدية وبين كيف يوضع المحور .
قال اليكسى ايفانوفيتش :
– شىء طريف ، انه يشبه المدية .
اجاب ميشا :
– انه مدية فى الواقع .
رفع اليكسى ايفانوفيتش حاجبيه وهو يقول :
– أمتأكد انت من ذلك ؟
– كل التأكيد .
قال اليكسى ايفانوفيتش وهو يتفحص المدية :
– حسنا ، اذا كنت متأكدا فليكن ذلك . القبضة السرية شىء منتشر فى القرون الوسطى . كانت بقايا جثث القديسين توضع فى قبضات السيوف ويقوم الفرسان «بلثم البقايا» قبل المعركة تبركا . ومن هنا اتت عادة تقبل السلاح وهكذا . . . – استمر اليكسى ايفانوفيتش بتفحص المدية . – وهكذا . . . افعى برونزية ، انها على ما يظهر الزاحفة المنشودة . وبالتالى لا ينقصنا الا الساعة التى

يجب ربطها . والآن هيا يا بولياكوف ، حدثنى من اين لك بهذه المدية .

بعد ان استمع اليكسى ايفانوفيتش الى حديث ميشا اخذ يطرق باصابعه على المكتب بعضا من الوقت وهو مستغرق فى التفكير ، ثم قال :

– انى اتذكر جيدا قصة غرق البارجة «الامبراطورة ماريا» . لقد ضجت بها الصحف كثيرا ، غير ان كل شيء انتهى بذلك : لم يجدوا المسؤولين عن الانفجار . ولكن ما تحدثت به يلقى بعض الضوء على ذلك . لم يكن نيكيتسكى يستطيع قتل الضابط دون ان يلقى عقابه ، لذلك كان يعتمد على ان الانفجار سيمحى كل اثر .

نظر ميشا بدهشة الى اليكسى ايفانوفيتش ، حقا ! لماذا لم يدرك ذلك من قبل ؟ معنى ذلك ان نيكيتسكى اشترك فى تدبير الانفجار فى السفينة .

سأل اليكسى ايفانوفيتش :

– وماذا تنوى عمله ؟

اجاب ميشا :

– لا ادرى . لقد كنا نظن ان كل شيء سيتضح بعد فك رموز الشيفرة ؛ يبدو على العكس . – نظر بتساؤل الى اليكسى ايفانوفيتش : – يجب معرفة من هو الضابط القتيل . . .

قال اليكسى ايفانوفيتش ؛

– تماما . ان بوليفوى قد ذكره لك على ما اعتقد .

– نعم ، الا انه ذكر الاسم فقط ؛ فلاديمير . اما الكنية فلم يكن هو نفسه يعرفها والحقيقة . . . – وارتبك ميشا .

سأل اليكسى ايفانوفيتش :

– ماذا اردت ان تقول ؟

– لقد استوضحت انا والاولاد بعض الاشياء عن المدية . . .

– أقمتم بابحاث ؟

– نعم .

نهض اليكسى ايفانوفيتش وهو يقول :

– حسنا ، سادعوكم خلال بضعة ايام لتتحدثوا عما قمتم به من ابحاث .

جريدة الحائط

ظهر بعد بضعة ايام فى الممر العدد الاول من جريدة الحائط المسماة بـ«الجريدة الكفاحية» وافتتحت بمقالة كتبها ميشا عنوانها «الولع السىء» .

«الولع السىء

يلاحظ فى صفنا السابع الشعبة الثانيـــة ولع سىء ببعض الشخصيات مثل بيتشبورين ومارى بيكفورد .

نبدأ بمارى بيكفورد . ان كل فلم من افلامها ينتهى بزواجها من مليونير . ما الداعى الى تقليدها فى الوقت الذى يعلم فيـــه الجميع انه لا يوجد مليونيرية فى بلادنا وانهم سيختفون تماما مــن جميع الانحاء فى القريب العاجل ؟

والآن بيتشورين .

اولا انه من طبقة النبلاء وضابط ابيض .

ثانيا انه انانى مئة بالمئة . ويجلب الآلامَ للجميع فى سبيل انانيته : يسبب مصرع بيلا ويخدع مارى (الحقيقة انها بنت امير ولكن بيتشورين نفسه من طبقة النبلاء ايضا) ، ويقف موقف العجرفة من مكسيم مكسيموفيتش .

حتى ان بيتشورين لا يخفى انانيته فيقول : «اى شأن لى فى بؤس الانسان وسعادته ؟» . ومعنى ذلك انه لا يحترم المجتمع ويهتم بذاته فقط . ومن هنا نستخلص نتيجة هى ان الانسان الـــذى لا يجلب الفائدة للمجتمع يجلب له الضرر ، لانه لا يريد ان يحترم الناس الآخرين . (اننا نرى ذلك فى مثال ناقشه صفنا منذ ايام .) ويتضح من كل هذا انه لو قام الجميع بتقليد بيتشورين والتفكير بانفسهم فقط لتقاتل الناس فيما بينهم وانتهى الامر بالرأسمالية الصرفة .

بولياكوف»

وتوالت الملاحظات بعد هذه المقالة :

«حول افساد الاثاث

يحب بعض التلامذة تقطيع الرحالى بالسكين . ويبذل كيتوف جهودا كبيرة فى ذلك متصورا ان امامه قطعة مارتيديللا على الارجح . لقد حان الوقت للحد من الافساد غير المسموح به لاثاث المدرسة . ان من يقطع الرحالى يزيد من حالة الانهيار .

مخرز»

«اين العدالة ؟

من المعروف انه يوجد فى مدرستنا حلقة لدراسة المسرح والسينما . ورئيس هذه الحلقة هو الممثل البارز فى عصرنا هذا شورا اوغوريف . والحلقة موجودة منذ نصف العام الا انها لم تجتمع ولا مرة واحدة . وبالمقابل يملك شورا نفسه وثيقة دائمة للدخول الى السينما والمسرح مجانا . هو نفسه يذهب ولا يعطى احدا بطاقة مجانية . فاين العدالة ؟

متفرج»

«حول فرصة الغداء

يحاول بعض التلامذة البقاء فى الصف اثناء فرصة الغداء (لن نسمى احدا ، الا ان الجميع يعلمون ان غينادى بيتروف يفعل ذلك) . انهم بعملهم هذا يحولون دون تهوية الصف وبالاضافة الى ذلك يستهلكون بشكل اجرامى الاحتياطى القليل من الاوكسجين . لقد حان الوقت لايقاف هذا . ومن اراد ان ينسخ الوظيفة من غيره فليفعل ذلك فى الممر .

يقظ»

«حول الالقاب

يحب تلامذة صفنا اطلاق الالقاب على بعضهم البعض وكذلك على المعلمين . حان الوقت للتخلص من رواسب المدرسة القديمة هذه . ان الالقاب تحط من كرامة الانسان وتنزله الى مستـــوى الحيوان .

ايلداروف»

قرأت المدرسة كلها «الجريدة الكفاحية» . ضحك الجميـــع وقالوا بان المقصود من مقالة بيتشورين ومارى بيكفورد هما يورا وليوليا بودفولوتسكايا .

ضحك يورا بازدراء بعد ان قرأ الجريدة ، وفى اليـوم التالى ظهر الى جانب جريدة الحائط ورقة كان محتواها بهذا الشكل :

«من الانانى ؟
(رسالة من العالم الآخر)

ايها السادة !

انا الموقع ادناه غريغورى الكساندروفيتش بيتشورين . ان التلميذ ميخائيل بولياكوف من الصف السابع الشعبة الثانية قـــد ازعج رقادى الابدى . لقد خرجت من القبر وروحى تحوم منـــذ اسبوعين بشكل غير مرئى فى الصف السابع الشعبـــة الثانية . هاكم جوابى .

ان بولياكوف يزعم انى انانى . فلنفترض انه على حق . ولكن ماذا عن بولياكوف نفسه ؟ انه يستظهر دروسه طوال الليل لكـــى يكون الاول فى صفه . لماذا ؟ لكى يظهر انه احسن واذكى الجميع . ولهذا الهدف اخذ على عاتقه جميع اشكال الواجبات الاجتماعيـــة ، فهو قائد للفريق وعريف للصف وعضو لجنة التلاميذ وعضـــو فى هيئة التحرير .

ويتساءل المرء ، من منا الاناني اذن يا ترى ؟

بيتشورين»

ازعجت هذه الملاحظة ميشا كثيرا ، فكل ما فيها كـــذب فى كذب ! أهل تعتبر دراسته بشكل جيد استظهارا وانانية ؟ فمن الواضح ان على المرء ان يدرس بشكل جيد . ويورا يدرس بصورة لا بأس بها ، لكن اباه يشترى له دائما شيئا ما حين يحصل على علامات جيدة . ثم هل ميشا هو المذنب فى انه انتخب عريفا للصف وعضوا فى لجنة التلاميذ ؟

قال له غينكا :

– انظر ، انظر ماذا يفعل يوركا ! من زمان وانا اقول لك : يجب ضربه ، سيعلم ...

قال سلافا :

– لن تستطيع اثبات اى شىء بالقبضات ، يجب ان نرد على هذه الرسالة من القبر فى العدد القادم من «الجريدة الكفاحية» .

قال ميشا :

– ليس الامر فى انه كتب عنى ، بل الامر فى المبدأ : ما هى الانانية ؟ ان يوركا يريد تعقيد هذه المسألة ، وعلينا نحـــن ان نحلها .

وبدأ الاولاد فى تحضير العدد التالى من جريدة الحائط والذى كرس لمسألة : «ما هى الانانية ؟»

الفصل التاسع والخمسون

صانع الاسلحة الحربية

دخل ميشا وغينكا وسلافا فى الموعد المحدد غرفة اليكسى ايفانوفيتش .

جلس بالقرب من اليكسى ايفانوفيتش رجل يرتدى معطفـــا رسميا وسيدارة عسكرية .

قال لهم اليكسى ايفانوفيتش :

– اجلسوا . هل جلبت المدية يا ميشا ؟

نظر ميشا بتردد الى الرجل العسكرى الا ان اليكسى ايفانوفيتش قال له :

– تستطيع قول كل شىء بحضور هذا الرفيق .

تفحص الرجل العسكرى الشريحتين بامعان مدة طويلة ، وعندما وضعهما على المكتب قال اليكسى ايفانوفيتش للاولاد :

– اننا نستمع اليكم .

التفت ميشا الى صديقيه وقال وهو يتنحنح :

لقد تحققنا من ان هذه المدية تعود الى صانع للاسلحة الحربية عاش اثناء حكم الامبراطورة آنا يوهانوفنا * ، اى فى اواسط القرن الثامن عشر .

رفع اليكسى ايفانوفيتش حاجبيه مندهشا اما الرجل العسكرى فقد نظر الى ميشا بامعان .

سأل اليكسى ايفانوفيتش :

– أتقول اثناء حكم آنا يوهانوفنا ؟

– نعم ، آنا يوهانوفنا .

وتدخل غينكا قائلا :

– انها تلك التى بنت بيتا من الجليد .

واراد ان يضيف شيئا ما ، الا ان سلافا دفعه بقدمه لكى لا يتدخل .

– وكيف تحققتم من ذلك ؟

– ببساطة شديدة . – قال ميشا ذلك واخذ المدية بين يديه وسحب النصل من الغمد . – قبل كل شىء الماركات ، ويوجد منها هنا ثلاث : ذئب وعقرب وزنبقة . أتريان ؟ وهكذا . ان الذئب هو ماركة صناع زولينغين فى المانيا . كانت هذه النصال تدعى «جراء الذئاب» . وقد توقف صنعها فى اواسط القرن السادس عشر .

---

* او آنا ايفانوفنا (١٦٩٣ – ١٧٤٠) ، ابنة القيصر ايفان الخامس شقيق بطرس الاول ، حكمت روسيا منذ عام ١٧٣٠ . **(المترجم)** .

اكد اليكسى ايفانوفيتش قائلا :
– نعم ، يوجد مثل هذه الماركة من الاسلحة ، وهى مشهورة جدا .
تابع ميشا كلامه :
– لقد كان صانع الاسلحة يوليان ديل رى من توليدو فى اسبانيا يسم نصاله بصورة ذئب او كلب .
وتدخل غينكا قائلا :
– مغربى اعتنق المسيحية .
تابع ميشا كلامه :
– لقد عاش فى اواخر القرن الخامس عشر . والآن العقرب . انه ماركة الصناع الايطاليين فى مدينة ميلانو . واخيرا الزنبقة ، ماركة الصانع الفلورنسى ...
وساعده غينكا على تذكر الاسم قائلا :
– باراجينى .
– نعم ، باراجينى . لقد عاش هو ايضا فى بداية القرن السادس عشر . وهذا ما ترمز اليه الماركات . انها ترمز الى الصناع .
سأل اليكسى ايفانوفيتش :
– من منهم صنع المدية اذن ؟
اجاب ميشا اجابة الواثق :
– لا احد .
– ولماذا ؟
– لان جميع الكتب التى قرأناها تقول ان المدى ظهرت فى بداية القرن السابع عشر فقط ، اما هذه الماركات فانها جميعها تعود الى القرن السادس عشر .
قال اليكسى ايفانوفيتش :
– معقول . ولكن لماذا الماركات اذن فى هذه الحالة ؟
هز ميشا كتفيه وقال :
– ذلك ما لا نعرفه .
قال الرجل العسكرى :
– ان الاولاد على حق .

واخذ النصل من ميشا وقربه من الضوء ، فظهر على طول النصل رسوم متموجة لا تكاد تلاحظ ، وهي بشكل ورود مجدولة . وتابع الرجل العسكرى قوله :

— انه فولاذ دمشقى لا يصنع الا فى الشرق . معنى ذلك انه ليس هناك اية علاقة للصناع الاوروبيين بالنصل . يبدو ان صانع هذا الخنجر اراد ان يظهر ان نصله احسن من اى نصل مشهور آخر . لذلك وضع الماركات الثلاث هذه .

ارتبك ميشا بعض الشىء من ان الرجل العسكرى عرف رأسا ما جهد الاولاد من اجله وقتا طويلا ، الا انه استمر يقول :

— قررنا حينئذ الاطلاع على نماذج المدى التى استعملت فى روسيا . كانت ثلاثة انواع . اولا البحرية ، غير انها ذات اربعة حدود ومديتنا هذه ذات ثلاثة حدود ، ومعنى ذلك انها تسقط من الحساب . ثانيا مدى كانت تستعملها بعض الوحدات العسكرية الخاصة ، الا ان طولها كان ثلاثة عشر فيرشوكا * اما طول مديتنا فهو ثمانية فقط . معنى ذلك انها تسقط من حسابنا ايضا . واخيرا النوع الثالث وهو مدية صناع الاسلحة الحربية فى عهد الامبراطورة آنا يوهانوفنا . كان طول المدية ثمانية فيرشوكات وهو طول مديتنا كذلك . وكانت ثلاثية الحدود ومديتنا ايضا ثلاثية الحدود . وهناك الكثير من الاوصاف تتطابق ايضا ، لذلك استنتجنا ان هذه المدية تعود الى احد صناع الاسلحة الحربية فى عهد آنا يوهانوفنا .

انتهى ميشا من الكلام فوقف قليلا ثم عاد وجلس على الاريكة بجانب غينكا وسلافا .

قال الرجل العسكرى :

— حسنا ، لنحاول البحث عن صاحبها .

تناول اليكسى ايفانوفيتش كتابا مربع الشكل من على المكتب ، وقد كتب على جلدته السميكة : «الديوان البحرى . عام ١٩١٦» .

قال اليكسى ايفانوفيتش :

---

* الفيرشوك وحدة قياس روسية قديمة تساوى ٤,٤ سم . **(المترجم)** .

– وهكذا فقد هلك فى انفجار البارجة «الامبراطورة ماريا» ثلاثة ضباط بحرية يحملون اسم فلاديمير . ايفانوف – ضابط صف ، تيرينتييف – مقدم ، نيوستروويف – ملازم . ويواجهنا سؤال : من صاحب المدية منهم ؟ لننظر الآن الى ما رثى به كل منهم . – قلب اليكسى ايفانوفيتش بعض الصفحات ومر بعينيه عليها . – ايفانوف ... شاب وما الى ذلك ... نيوستروويف ... مجد ... – كف اليكسى ايفانوفيتش عن الكلام وهو يقرأ فى نفسه ثم عاد الى التحدث ببطء : – «اليكم شيئا ممتعا ، ارجو ان تستمعوا اليه :«لقد اختطف الموت بشكل فاجع فلاديمير تيرينتييف المهندس البارز فى الاسطول الروسى . ان مواهبه الفائقة ومعارفه العميقة التى اكتسبها باشراف البروفيسور بودفولوتسكى الخالد الذكر اهلته كل التأهيل لكى يكون فى تسليح الاسطول على نفس المستوى الذى كان عليه فى تسليح القوات البرية سلفه المشهور بوليكارب تيرينتييف» .

قال الرجل العسكرى :

– يبدو اننا اصبنا الهدف . هل لديكم موسوعة عسكرية يا اليكسى ايفانوفيتش ؟

قال اليكسى ايفانوفيتش :

– اذهب يا بيتروف بسرعة الى صوفيا بافلوفنا واجلب لى موسوعة «غرانات» العسكرية حرف «ت» .

احضر غينكا الموسوعة وتصفحها اليكسى ايفانوفيتش ثم قال :

موجود : «تيرينتييف ، بوليكارب ايفانوفيتش . ولد عام ١٧٠١ . توفى عام ١٧٨٤ . صانع اسلحة بارز فى زمن الامبراطورة آنا يوهانوفنا والامبراطورة يليزافيتا بتروفنا . خدم عند الفيلدمارشال مينيخ . اشترك فى معارك اوتشاكوف وستافوتشانى وخوتين . اخترع اول تصميم لجهاز غطس تحت الماء . اشتهر كواضع لمشروع ، كان خياليا بالنسبة لذلك الوقت ، فى انتشال الفرقاطة البحرية الغارقة «ترابيزوند» .

قال الرجل العسكرى :

– ها قد نفعنا صانع اسلحتكم .

وعلق اليكسى ايفانوفيتش :

– انه لتوافق غريب . ان البروفيسور بودفولوتسكى المذكور فى الرثاء هو جد احدى تلميذاتنا .

تبادل الاولاد النظرات فيما بينهم . ليوليا ! يا للغرابة !

قال لهم الرجل العسكرى :

– حسنا يا اولاد ، لقد عملتم جيدا . – نهض وتابع كلامه : اما المدية يا ميشا فسأبقيها معى الى حين ثم اعيدها لك ، فلا تقلق . ارى انك تخفى شيئا ، لعلك تقوله لى ؟

اجاب ميشا :

– لا اخفى شيئا . نريد فقط الكشف عن سر المدية

وضع الرجل العسكرى يده على كتف ميشا وقال :

– سأساعدكم على ذلك . ولكن لا تخرجوا بقضاياكم عن حدود المكتبة ولا تتدخلوا فى اى شىء بعد هذا . لقد قمتم بواجبكم . ان كنيتى سفيريدوف ، الرفيق سفيريدوف . حسنا ، أهل نتصافح ؟ – ومد يدا كبيرة عريضة كيد بوليفوى ، فهزها ميشا بقوة .

الفصل الستون

درس الرسم

قال غينكا ممتعضا وهو يهبط الدرج :

– شغلة جديدة ! لقد حصلنا على الغمد وقمنا بابحاث جدية وقضينا معظم وقتنا فى المكتبة ووضحنا كل شىء ، والآن عندما لم يبق الا الحصول على الكنز جاء صاحبنا واستولى على كل شىء !

قال سلافا :

– انه على حق ، اذ يمكن ان نفسد كل شىء .

فتمتم غينكا :

– اننا لم نفسد اى شىء حتى الآن .

قال ميشا :

– لا يجب علينا ان نضايقه طبعا ، ولكن لماذا لا نستعلم بانفسنا عن تيرينتييف ؟ اننا لن نضايق احدا بذلك .

دخل الاولاد قاعة الرسم حيث توجد التابوريهات ومنصات الرسامين عوضا عن الرحالى وعلقت على الجدران اعمال احسن رسامى المدرسة التى كانت اغلبها كروكيات لديكورات المسرحيات المدرسية . وعلى رفوف تحت اللوحات توجد «طبيعة صامتة» هى عبارة عن تماثيل لآلهة اليونان والحيوانات وفواكه من الجص . وكان موضوع اليوم هو رسم حصان .

كان درس الرسم مسليا لانه يمكن اثناءه الجلوس باية وضعية والوقوف والتحدث . كان معلم الرسم بوريس فيودوروفيتش رومانينكو ، الذى يطلق عليه الاولاد اسم «بورفيد» اختصارا ، اوكرانيا طيب القلب ممتلئ الجسم ذا شارب قوزاقى يتجول بين منصات الرسم يصحح اعمال التلاميذ .

جلس ميشا بجانب ليوليا بودفولوتسكايا وقال لها :

— اريد ان اسألك سؤالا يا ليوليا .

قالت ليوليا وهى تنقل عينيها بين الرسم والنموذج :

— وما هو ؟

— هل بودفولوتسكى ، الاميرال ، البروفيسور فى الاكاديمية البحرية — هو جدك ؟

— نعم . وما شأنك انت ؟

ارتبك ميشا وهو يقول :

— ان احد اقربائى البعيدين قد تلقى علومه على يديه فى الاكاديمية ثم انقطعت اخباره . والامر هو هل يعرف جدك شيئا عن مصيره ؟

اجابته ليوليا :

— لكن جدى قد مات منذ زمن بعيد .

فتذكر ميشا فجأة وقال :

— اذن هكذا ، لقد نسيت تماما . ومن بقى حيا من عائلته ؟

— جدتى وعمتى صونيا فقط .

— اتظنين انهما كانتا تعرفان تلاميذ جدك ؟

— لا اظن ذلك ، اذ كان يلقى محاضراته لوحده ، دون جدتى وعمتى صونيا .

فقال لها ميشا متكدرا :

– انى افهم ذلك بنفسى . لعلهما كانتا تعرفان بعض التلاميذ على كل حال .
– لا اظن . . .
فطع حديثها صوت يورا الساخر من ورائهما :
– أتتبادلان الاسرار ؟
ضحكت ليوليا وهى تقول :
– ان ميشا يهتم باجدادى .
جلس ميشا بجانب سلافا وقال :
– لم يبق بعد الجد الا الجدة والعمة صونيا . لعلهما كانتا تعرفان تيرينتييف ؟
– اطلب من ليوليا ان تعرفك على جدتها .
لوح ميشا يده :
– لقد جاء يوركا وبقّت له كل شيء . . .
اراد ميشا ان يخبر غينكا بذلك الا انه وجده منشغلا بامر هام : لقد كان يتحرش بالحوت .
– يا حوت ، يا حوت !
– ماذا ؟
– من اى محيط انت ؟ *
كان الحوت معتادا على هذا المزاح لذلك ظل صامتا . عند ذلك بدأ غينكا يطلق عليه قطعا ممضوغة من الورق بواسطة انبوب زجاجى ، كانت تصيب الحوت فى نقرته ، فيمرر هذا يده على رقبته دون ان يفهم شيئا ، وكأنه يطرد ذبابة ، الامر الذى جلب سرورا عظيما لزينا كروغلوفا . وكان على ميشا باعتباره عريفا ، ان يوقف غينكا عند حده طبعا ، غير ان الحوت كان يطرد الذبابة الموهومة بشكل مضحك الى حد جعل ميشا نفسه يغرق فى الضحك .
وفى الوقت الذى كان فيه الحوت يمرر يده على نقرته كان يحاول باليد الاخرى رسم الحصان دون جدوى ، ولم ينجح فى اى شيء .
توقف بوريس فيودوروفيتش بالقرب من الحوت ثم اقترب من السبورة وبدأ يشرح له التناسب .

---

* كيتوف من كلمة « كيت » اى « الحوت » . **(المترجم)**

قال بوريس فيودوروفيتش وهو يرسم الحصان بالطباشير :

– يجب عليك يا كيتوف ان تهتم اكثر من ذلك بفن الرسم ، وان تنمى ذوقك الفنى . الا انك لا تهتم بشىء . هيا ، عدد لى اسماء الرسامين العظام الذين تعرفهم .

لم يكن الحوت يعرف احدا من الرسامين ، ولم يصنع الا ان بدأ ينفخ وهو يحملق فى بوريس فيودوروفيتش .

قال بوريس فيودوروفيتش :

– لماذا انت صامت ؟ لقد كنت معنا فى متحف تريتياكوف . تذكر ، لوحات اى من الرسامين رأيت هناك . تذكر ، تذكر ...

قال غينكا للحوت همسا :

– الرسام ريبين * .

فكرر الحوت بصوت مرتفع :

– الرسام ريبين .

قال بوريس فيودوروفيتش وهو يخطط عرف الحصان على السبورة :

– صحيح . اية لوحة من لوحات ريبين بقيت فى ذاكرتك ؟

قال غينكا همسا :

– «ايفان الرهيب يقتل ابنه» .

فكرر الحوت بحزن :

– «ايفان الرهيب يقتل ابنه» .

قال بوريس فيودوروفيتش وهو يقسم الحصان الى مربعات :

– جيد جدا . تذكر ايضا ، تذكر .

همس غينكا وهو يغرق فى الضحك :

– رسم رومانينكو حصانا .

– رسم رومانينكو حصانا ، – اعلن الحوت ذلك فدوى الصف كله بالضحك .

تعلقت يد بوريس فيودوروفيتش فى الهواء وهو يقول :

– ماذا ؟ ماذا قلت ؟

فردد الحوت المسكين :

---

* ايليا ريبين (١٨٤٤ – ١٩٣٠) رسام روسى واقعى شهير .

(المترجم)

– لقد رسم حصانا .
– من الذى رسم ؟
– انه . . . هذا . . . ما اسمه . . . رومانينكو .
لم يضحـــك احـــد فى هذه المرة ، واحمر وجـــه بوريس فيودوروفيتش وبرز شاربه ثم رمى بقطعـــة الطباشير على الطاولة وغادر الصف .

الفصل الحادى والستون

بوريس فيودوروفيتش

دمدم الحوت :
– لم اكن اعرف ان اسمـــه رومانينكو ، وقد كنت اظن انـــه بورفيد يعنى بورفيد .
فقال غينكا وهو يقلده :
– كنت تظن ! لقد كنت اهمس بذلك لنفسى ورحت انت تقلدنى كالببغاء ! لقد تعودت على التنقيل . ولكن لا ترمينـــا . لقد وقعت فخلص نفسك بنفسك .
قال ميشا :
– انها سفالة يا غينكا !
احمر وجه غينكا وهو يقول :
– ماذا تقول يا ميشا ؟ وما شأنى انا ؟
لم يستطع ميشا الرد لان الباب انفتح فقفز الجميع الى اماكنهم ودخل اليكسى ايفانوفيتش الصف .
توقف امام طاولة المعلم بقامته الطويلـــة ونحولـــه وذقنـــه المحلوقة بشكل جيد ونظر الى التلاميذ الذين اخلدوا الى الهدوء نظرة باردة عدائية .
– انى لا اعتزم بحث فعلتكم الشائنـــة هنا ، – بدأ اليكسى ايفانوفيتش القول . – اريد ان اتحدث معكم عن شىء آخر . يجب على الاعتراف ، – ورفع حاجبيه ، – بانى لم اكن اعرف ان لدى كيتوف ميلا الى المزاح . وكان يبدو لى ان اهتمامـــه وقدرته يظهران فى مجال مختلف بعض الشىء . . .

فهم الجميع تمام الفهم القدرة التى يتحدث عنها اليكسى ايفانوفيتش فنظروا بسخرية الى الحوت .

تابع اليكسى ايفانوفيتش القول :

– من الواضح ان بقاء كيتوف عامين فى كل صف ينمى فيه روح الفكاهة ، ولكن هذه فكاهة من نوع ردىء جدا . يبدو لكيتوف ، كما ترون ، ان مقارنة الرسام العظيم بمعلم الرسم المتواضع شىء مضحك جدا . ولكنى لا اجد شيئا مضحكا فى هذا .

صمت اليكسى ايفانوفيتش ونظر الى النافذة وتابع :

– ان كيتوف يعتقد على ما يظهر ان بوريس فيودوروفيتش لم يصبح رساما عظيما بسبب انعدام الموهبة لديه . ولكنى استطيع التأكيد بان الامر ليس كذلك . ان بوريس فيودوروفيتش انسان موهوب جدا انهى فى حينه اكاديمية الفنون ، وكانت مفتوحة امامه طريق واسعة الى المجد والشهرة اى الى ما يستحق الاحترام فقط حسب رأى كيتوف . لكن بوريس فيودوروفيتش سار فى طريق اخرى . لقد اصبح معلما متواضعا للرسم اى اصبح ما لا يستحق الاحترام حسب رأى كيتوف ويمكن له ان يكون مادة لنكاته السخيفة .

كان كيتوف جالسا لا يرفع بصره عن الرحلاية .

تابع اليكسى ايفانوفيتش :

– عندما انهى بوريس فيودوروفيتش الاكاديمية انشأ مع بعض رفاقه الذين خرجوا من الشعب مثله ، مدرسة فنية مجانية لاطفال العمال . كانوا يبحثون عن الاولاد الموهوبين ويجذبونهم الى المدرسة . ما الذى جعله يتجه فى هذا الطريق ؟ ان ما جعله يفعل ذلك هو مثال حياته نفسها – حياة انسان من الشعب عانى الحرمانات الهائلة من اجل التوصل الى حق الانشغال بالفن ، لان الفن آنذاك كان سهل المنال بالنسبة للاغنياء وميسورى الحال فقط . لقد كرس بوريس فيودوروفيتش حياته للمواهب الفتية الشعبية . هذا ما انفقت بسبيله حياة بوريس فيودوروفيتش ! اننا نفهم طبعا انه اخطأ فى كثير من الاشياء . كان من الواجب تغيير النظام وتشكيل مجتمع يضمن لكل انسان تنمية مواهبه ، وهذا ما فعلته ثورة اوكتوبر . غير اننا نقول ونحن نقيم حياته ، بانه يمكننا ان نفخر بمثل هذه الحياة لان هدفا شريفا نبيلا وجهها . . .

ارتفع صوت خطوات فى الممر ثم انفتح الباب ودخل بوريس فيودوروفيتش الصف .

بعد فترة التوقف التى احدثها دخول بوريس فيودوروفيتش تابع اليكسى ايفانوفيتش الكلام :

– ها كم لماذا احدثكم عن ذلك . ان الرسام العظيم والعالم العظيم والكاتب العظيم اسماء تدوى بفخر كبير .ولكن هناك عملا عاديا لا يلاحظ فى الثقافة الا انه رئيسى هو ما يقوم به المعلم . انه يحمل الثقافة الى صميم الشعب ويلقى البذرة الاولى فى حقل الموهبة . واذا اصبح احدكم شخصا عظيما شهيرا فليرفع قبعته باجلال امام هذا المعلم القروى المتواضع ، متذكرا ان هذا الكادح المتواضع يربى ويكون احسن مخلوقات الطبيعة واروعها ، الا وهو الانسان .

سكت اليكسى ايفانوفيتش ، وبقى الصمت المتوتر فى الصف على ما كان عليه .

قال اليكسى ايفانوفيتش :

– هذا ما كنت اود ان احدثكم عنه . والآن ، – والتفت الى بوريس فيودوروفيتش وقال : – ارجو مواصلة الدرس .

وخرج من الصف .

توقف غينكا امام منصة الرسم ونظر الى بوريس فيودوروفيتش الذى سأله :

– ماذا بك ؟

قال غينكا :

– ارجوك ان تسامحنى يا بوريس فيودوروفيتش ، ارجوك كثيرا .

– علام ؟

– انا الذى لقنت كيتوف كل شىء ، سامحنى ارجوك .

قال بوريس فيودوروفيتش :

– حسنا ، ارسم . – ثم نظر الى كيتوف واضاف : حتى الحيتان تقع فى الصنارة .

وعاد بوريس فيودوروفيتش الى التجوال فى الصف وهو يبتسم ابتسامة صغيرة ناظرا الى رسوم الحصان المعلقة على منصات الرسم .

الفصل الثانى والستون

الجدة والعمة صونيا

اعطت ليوليا عنوان الجدة الى ميشا رغم كل شيء ، فتوجه هذا مع غينكا وسلافا الى جدة ليوليا مساء . وسار الاولاد يتزلقون على الممرات الجليدية الممتدة على طول ارصفة زقاق بوريسوغليبسكى .

كان غشاء خفيف من الثلج يتساقط حول الضوء الباهت للمصابيح النادرة فى الزقاق وتعلقت نجوم زرقاء فى قبة السماء .

كان غينكا بقبقابى تزلج ربطا الى جزمته اللبادية بالحبال ومعطفه العتيق مفكوك الازرار وتتدلى على كتفيه اذنا قبعة فرسان بوديونى التى يرتديها .

قال ممتعضا :

– يا لها من فوضى ! لقد كانوا سابقا يرشون الرمل فى الشوارع فقط ، اما الآن فقد اصبحوا يرشون الازقة ! كأنى بهم لا يريدون ان يتزلق المرء . الظاهر انه يتوجب على القيام بذلك فى ساحة التزلق فقط . مع الاسف انه ليس لدى قبقاب تزلق نرويجى والا لاريت يوركا كيف يكون الابطال .

وصلوا الى بيت خشبى صغير فقال ميشا :

– ليس من اللياقة ان ندخل جميعا ، لذلك فساذهب لوحدى . اما انتما فانتظرانى هنا . ,

صعد ميشا درجا ذا درابزين مهتز ، وعندما وصل الى الطابق الثانى اشعل عودا من الكبريت فلاح له فى آخر الفسحة التى تراكمت فيها مختلف انواع الخردة ، باب تمزق الجلد المغطى به شر تمزيق .

قرع ميشا الباب بلطف فارتفع من الظلام صوت شخص يهبط الدرج قائلا :

– اقرع الباب بقدمك لان المرأتين العجوزتين ضعيفتا السمع .

اخذ ميشا يضرب الباب بقدمه بشدة فسمع بعد برهة خطوات خلف الباب تلاها صوت نسائى يسأل :

– من هناك ؟

فصاح ميشا :

– اريد رؤية عائلة بودفولوتسكى !
– ومن انت ؟
– لقد جئت من طرف ليوليا بودفولوتسكايا .
– انتظر قليلا حتى اجد المفتاح .
ابتعدت الخطوات ثم عادت الى الظهور بعد حوالى خمس دقائق وصر مفتاح فى القفل مدة طويلة ثم انفتح الباب فى نهاية الامر .
سار ميشا خلف المرأة وهو يتعثر فى طريقه .لم يكن يراها بل كان يسمع صوت خطواتها ودمدمتها : «حاذر ان تتعثر ، حاذر» ، وكأنه يستطيع رؤية اى شىء فى الممر المظلم .
فتحت المرأة بابا ودعت ميشا للدخول الى الغرفة . كان مصباح ذو ضوء باهت يضىء المائدة واوراق اللعب الموزعة عليها ، وقد جلست الجدة بودفولوتسكايا تفتح البخت بها ، اما العمة صونيا فقد دخلت الغرفة وراء ميشا . فلقد كانت هى التى فتحت الباب له .
تلفت ميشا حوله فرأى غرفة تشبه حانوتا لبيع الموبيليا ، انتشرت فيها بدون نظام الخزائن والطاولات والكومودينات والكنبايات وصناديق الثياب . ولاح فى زاوية الغرفة خيال البيانو المستدير ، وامتد من المدفأة الحديدية بورى يجتاز الغرفة كلها حتى يصل الى النافذة ، وقد علق الى السقف بواسطة الاسلاك ، وانتشرت قشور البطاطا على الارض . وفى زاوية اخرى انتصبت مكنسة مهترئة تخفى كومة من الاقذار عزموا اكثر من مرة على التخلص منها ولكن دون جدوى ، وبالقرب من الباب مغسلة يوجد تحتها سطل امتلأ بالماء القذر .
قالت الجدة : – تفضل ايها الفتى ، تفضل . – وعادت الى اوراق اللعب . كانت اطراف معطفها المخملى الرث ملقاة على الارض . – لا تؤاخذنا على الفوضى فالغرفة ضيقة . – وتأملت فى اوراق اللعب . – اننا ننقذ انفسنا من البرد (فترة توقف تخللها حفيف اوراق اللعب) . وها قد انتقلنا الى غرفة واحدة لان ثمن الحطب مرتفع ولا نستطيع تدفئة جميع الغرف . . .
قاطعتها العمة صونيا التى كانت تمسك بالسطل وكلها عزم على التخلص مما فيه من ماء :
– ماما ، انه لم يدخل بعد وانت بدأت تتحدثين عن الحطب !

اجابتها الجدة دون ان ترفع بصرها عن اوراق اللعب :
– لا تعارضينى يا صونيا . اوضعت المفتاح فى مكانه ؟
– لقد وضعته ، ولكن لا تلمسيه بحق السماء . – ووضعت العمة صونيا السطل فى مكانه مخمنة على ما يبدو انه لم يمتلىء بعد وانه يتسع لكمية اخرى من الماء .
– واين وضعته ؟
اجابت العمة صونيا بنفاد صبر :
– فى خزانة ادوات السفرة .
– لا استطيع ان اقول كلمة ! – وخلطت الجدة اوراق اللعب وعادت الى توزيعها من جديد . – اخجلى على نفسك فى اثناء وجود انسان غريب فى البيت على الاقل .
توجهت الجدة بعد ذلك الى ميشا وهى تشير الى الكرسى قائلة :
– اجلس ، ولكن بحذر . ان الكراسى مصيبة . لقد قبض النجار النقود ولكنه لم يصلحها كما ينبغى . اعلم ان حولنا نصابين . . . لقد جاءنى رجل حالته لا بأس بها ، يريد شراء تواليت الزينة . طلبت منه عشرة ملايين ثمنا ، الا انه عرض خمسة عشر روبلا ، وضحك . قال ان الملايين قد بطلت . ما رأيك بذلك ؟ – واعادت المرأة العجوز وضع اوراق اللعب . – قلت له : «اعلم انه عندما ادخلت الملايين فى التداول بقيت مدة عام لا اصدق ، وكنت ابيع الحوائج بروبلات ثابتة . اما الآن فلا تؤاخذنى لان الملايين هى ملايين . . .»
قاطعتها العمة صونيا مرة اخرى وهى ما زالت تقف مترددة امام السطل :
– ماما ، من يهتم بالاستماع الى خرافاتك ؟ اسأليه على الاقل لماذا جاء .
اجابتها الجدة بنفاد صبر : – لا تعارضيننى يا صونيا . – والتفتت الى ميشا تسأله : – هل بعثت بك عائلة ابروسيموف ؟
– لا ، انى . . .
– اذن عائلة بوفزدوروف ؟
– لا انى . . .

– عائلة زاخلوبوف ؟
فاندفع ميشا يطلق كلامه بنفس واحد :
– لقد جئت من قبل حفيدتك ليوليا . قولى لى من فضلك : هل كنت تعرفين فلاديمير فلاديميروفيتش تيرينتييف ؟

الفصل الثالث والستون

الرسائل

سألت المرأة العجوز :
– ماذا قلت ؟
فكرر ميشا قائلا :
– أتعرفين فلاديمير فلاديميروفيتش تيرينتييف الضابط فى الاسطول ؟ لقد تلقى علومه فى الاكاديمية البحرية .
– تيرينتييف ، فلاديمير فلاديميروفيتش ؟ – استغرقت المرأة العجوز بالتفكير وقالت : لا ، لا اعرف احدا بهذا الاسم .
– كيف لا تذكرين يا ماما ! – قالت العمة صونيا ذلك وكانت قد رفعت السطل الا انها عندما اشتركت فى الحديث اعادته الى مكانه ففاضت المياه القذرة منه اكثر من قبل بسبب ذلك . انه فولديمار * المسكين ، زوج كسينيا .
– واحسرتاه ! – ضربت المرأة العجوز كفا بكف واندفع ميشا يجمع اوراق اللعب المتساقطة على الارض . – واحسرتاه فولديمار ! يا الهى ! كسينيـا ! – ورفعت عينيها الى السقف وقالت وهى تمط بكلامها : – فولديمار ! كسينيا ! يا الهى ! فولديمار التعيس . . . – واضافت بصوت هادئ مفاجئ : – ولكنه قتل .
فقال ميشا :
– ان ما يهمنى هو ماذا حصل لعائلته .
تنهدت المرأة العجوز وقالت :

---

* فلاديمير على طريقة المتفرنسين . **(المترجم)**

– نعم ، لقد كنت اعرف فولديمار وحرمه كسينيا سيغيزموندوفنا كذلك . ولكن ذلك كان منذ زمن بعيد .
توقف ميشا وسأل :
– عفوا ، ما اسم زوجته ؟
– كسينيا سيغيزموندوفنا .
– سيغيزموندوفنا ؟
– نعم ، كسينيا سيغيزموندوفنا . لقد كانت امرأة رائعة الحسن ، جميلة جدا مثل لوحة رسمها فنان .
سألها ميشا :
– وهل عرفت اخاها ؟
اجابت المرأة العجوز بحماس :
– وكيف لا اعرف فاليرى نيكيتسكى ! ضابط لامع ، وسيم . لقد قتل هو ايضا فى اثناء الحرب . اما والدة فلاديمير فلاديميروفيتش ، تيرينتييفا ... ما اسمها ... ماريا غافريلوفنا ، فاقول لك الحق بانى لم اكن اودها كثيرا . لقد كانت امرأة كريهة ، من البسطاء ... غير ان البسطاء هم موضة الوقت الحاضر .
سأل ميشا :
– الا تعرفين اين هم الآن ؟
هزت المرأة العجوز رأسها بالنفى وهى تقول :
– لا اعرف ، لا اعرف . ان العائلة كلها غريبة الطباع ، غامضة . اسرار واساطير وكوابيس ...
– من المحتمل انك تعرفين عنوانهم السابق ؟
– كانوا يعيشون فى مدينة بطرسبورغ ، ولكنى لا اذكر العنوان .
قالت العمة صونيا فجأة :
– ان معرفة العنوان ممكنة . – كانت تقف امام الباب تماما تحمل السطل بيدها . – يوجد عنوان المرسل فى رسائله الى ابى . ولكن هل يمكن ايجاد شىء فى هذه الفوضى ؟
قال ميشا وهو ينقل نظرة رجاء من الجدة الى العمة صونيا ومن العمة صونيا الى الجدة :
– ارجوكما ، ارجوكما رجاء شديدا . اعلما ان قريبا لى قد

انقطعت اخباره . – وقفز عن الكرسى . – سأساعدكما فلا تقلقا ، قولا لى فقط ماذا يجب على ان اعمله . ارجوكما رجاء شديدا !

– ابحثى له عن العنوان يا صونيا ، ابحثى ، – قالت الجدة ذلك بلطف وعادت مرة اخرى الى اوراق اللعب .

ترددت العمة صونيا ، ولكن الامكانية المتاحة لها فى تأجيل التخلص من المياه القذرة انتصرت ، فاعادت السطل الى بقعة المياه المتكونة على الارض وشرحت لميشا ما يجب عمله .

ازاح الخزانة والكومودينا وصعد على البيانو وتناول صندوقا من الخزانة ومن ورائه سلة .

انحنت العمة صونيا فوق السلة واخرجت من بين الاوراق رزمة كتب عليها بحبر حال لونه مع مرور الزمن : «من فلاديمير فلاديميروفيتش تيرينتييف» ، وسلمتها لميشا .

قال ميشا وهو يضع قبعته الفرائية على رأسه :

– اشكركما شكرا جزيلا ، اشكركما شكرا لا ادرى كيف اعبر عنه !

فقالت الجدة دون ان ترفع عينيها عن اوراق اللعب :

–عفوا ايها الفتى ، عفوا . قم بزيارتنا دائما .

اندفع ميشا الى الشارع ، الى حيث ينتظره صديقاه وهو يشد على رزمة الرسائل فى جيبه .





القسم السادس

بيت صغير فى بوشكينو

الفصل الرابع والستون

سلافا

كانت كل الرسائل فى مغلفات متشابهة كتب عليها بخط متأنق العنوان التالى : «دار صاحب السيادة بيوتر نيكولايفيتش بودفولوتسكى . موسكو ، زقاق روجينى . المرسل : فلاديمير فلاديميروفيتش تيرينتييف . بطرسبورغ ، مويكا ، بناية فاسيلييفا» .

كان محتوى الرسائل واحدا كذلك : تهانى بعيد الفصح وبحلول العام الجديد وما شابه ذلك . غير ان بطاقة بريدية مؤرخة فى ١٢ كانون الاول عام ١٩١٥ كانت اكثر اسهابا بعض الشيء .

«حضرة الفاضل بيوتر نيكولايفيتش ، - كتب فيها تيرينتييف ، - اكتب اليكم من المحطة . بقيت ثلاثون دقيقة على قدوم القطار ، وليس لدى الوقت مع الاسف للتعبير عن احترامى وتقديرى الشخصى لكم . لقد توقفت فى بوشكينو الا انه على ان اكون فى مكان التعيين لا ابعد من الخامس عشر من هذا الشهر . ومهما حدث لى فانى سأظل مخلصا امينا لكم . فلاديمير تيرينتييف» .

قال غينكا :

- ان كل شيء على ما يرام . يجب الذهاب الى بيتروغراد .

فقال ميشا :

- ان بوشكينو مذكورة فى البطاقة كذلك .

فاعترض غينكا بقوله :

- لا داعى للتفكير ، اذ ان لدينا عنوانا مفصلا . علينـــا ان نذهب .

قال سلافا :

- ان الرسائل كتبت منذ ثمانى سنوات ، ولربما لا يعيش احد من آل تيرينتييف هناك الآن .

فقرر ميشا قائلا :

- فلنستفسر من مكتب العناوين اولا .

وكتب الاولاد حالا رسالة وضعوها فى مغلف .

كانوا لدى سلافا ، حيث ان آلا سيرغييفنا كانت فى المسرح اما قسطنطين اليكسييفيتش فلم يكن قد عاد من العمل بعد .

قال غينكا متأملا المغلف الاخضر وفى عينيه نظرة حالمة :

نعم ، ان الكنز لن يفلت من ايدينا الآن . لقد عرفت كل شيء بالتفصيل . كان الجميع يخافون فى تلك الايام من بيرون * لذلك كانوا يخفون ممتلكاتهم الثمينة عنه .

---

* بيرون (١٦٩٠ - ١٧٧٢) كونت من حوض البلطيــق . كـــان له تأثير كبير فى عهد آنا ايفانوفنا . **(المترجم)** .

سأله ميشا بسخرية :

– وماذا عرفت ايضا ؟

استمر غينكا برباطة جأش :

– لقد عرفت ايضا ان من يجد كنزا يحصل على خمس وعشرين بالمئة منه . لذلك يجب علينا ان نأخذ نصيبنا حالا والا سنجـــرى وراءه عاما باكمله .

ضحك الاولاد وقال سلافا :

– انى لا أومن بالكنوز . ولكن لنفرض ان هناك كنزا حقا ، وسينوبنا شيء منه . فماذا سنفعل به ؟

اجاب غينكا :

– قل انت اولا ، بعد ذلك انا اقول .

– اقدمه من اجل بناء دار للايتام .

فبدأ غينكا يهز برأسه وهو يقول :

– لا ، من فضلك . يكفينا ما لدينا من دور للايتام . واذا اردت كلام الجد فيجب ان يبنى بهذه النقود ملعب كبير يحوى ساحة تزلق على الجليد وملعبا لكرة القدم والتنس ،والدخول اليه بالمجان . اما دور الايتام والمصحات فانها احلام . . . لعلك تريـــد ان تبنى مدرسة موسيقية ايضا .

فقال سلافا مستاء :

– او تظن ان الملعب اكثر فائدة من المدرسة الموسيقية ؟

– انظر اليه ، انه يقارن ! مدارس موسيقية ! يا لك من . . . على العموم يا سلافكا اذا اردت ان تقبل فى الكومسومول فعليك ان تفكر جديا فى مستقبلك .

– ولماذا ؟

– أتريد ان تصبح موسيقيا ؟

– وماذا يحصل من ذلك ؟

– كيف – وماذا ؟ ان مهمة الكومسومولیین بناء الشيوعية .

– ولكن ما دخل الموسيقى هنا ؟

– كيف – ما دخلها ؟ سيقوم الجميع بالبناء بينما ستعزف انت على البيانو . لا ياصاحبى ، ان هذه الحيلة لن تنجح .

– ستبنى انت نفسك كثيرا ! اى بناء يمكن لك ان تكون !

ابتهج غينكا وهو يقول :

– طبعا ، سانهى الصف السابع وانتسب الى مدرسة مهنية ساصبح عاملا فى صناعة المعدات المعدنيـــة ، عاملا حقيقيـــا . وسيقبلوننى فى الكومسومول دون فترة ترشيح . لقد قررنا هذا انا وميشا منذ زمن بعيد . أليس حقا يا ميشا ؟

تلكأ ميشا فى الجواب .

كان كوليا قد قرأ على الفرقة فى اجتماعها الاخير خطاب لينين فى المؤتمر الثالث للكومسومول . وقد اعجب ميشا ايما اعجاب بمقطع من هذا الخطاب يقول : «. . . اما الجيل الذى يبلغ اليوم الخامسة عشرة من العمر ، فسيرى المجتمع الشيوعى وسيعمل بنفســـه فى بنائه . ولذا ينبغى عليه ان يعرف ان كل هدف حياته هو بناء هــذا المجتمع» .

كانت هذه الكلمات موجهة اليه مباشرة والى غينكا وسلافا . ان مهمة كل حياتهم هى بناء الشيوعية . لقد قال له بوليفـــوى نفس الشىء : «اذا اردت ان تعيش من اجل الشعب فستبحر على سفينــة كبيرة» . ان هذا ما يعنى بناء الشيوعية – ان تعيش من اجل الشعب . وكيف الامر مع سلافا ؟ أهل سيضع الالحان الموسيقية لنفسه ؟ أليس الشعب بحاجة الى الاغنية ؟ ونشيد «الامية» ؟ . .

قال ميشا :

– لا تقلق يا سلافا ، اعتقد انك ستقبل فى الكومسومول .

الفصل الخامس والستون

قسطنطين اليكسييفيتش

سمع صوت انفتاح الباب ودخل احدهم وخلع ثيابه فى الممر ونزع جزمته وتمخط .

قال سلافا :

– لقد جاء ابى .

دخل قسطنطين اليكسييفيتش الغرفة وهو يواصل التمخط فى منديل كبير للانف . كان خداه متوردين من شدة البرد وقد كشـف

رباط عنقه المعقود بشكل سيئ عن زر نحاس كبير على ياقته المجعلكة وعيناه الصغيرتان القليلتا الانفتاح تنظران بسخرية وطيبة .

حيى الاولاد قائلا :

– ايه ايها الطلائع ! مرحبا بكم .

دخلت الغرفة الخادمة داشا وراء قسطنطين اليكسييفيتش واخذت تعد المائدة .

غسل قسطنطين اليكسييفيتش يديه ووضع المنشفة على ظهر الكرسى وجلس الى المائدة . اخذ سلافا المنشفة الى غرفة النوم ووضعها هناك ثم عاد .

– عم كنتم تتحدثون ؟ – ولاحظ قسطنطين اليكسييفيتش المغلف الملقى على المائدة فتناوله بيده وبدأ يتفحصه . – «بيتروغراد ، مكتب العناوين . . .» عمن تبحثون ؟

اخذ سلافا الرسالة من ابيه وخبأها فى جيبه قائلا :

– هكذا ، عن احد الناس .

ضحك قسطنطين اليكسييفيتش وقال وهو يقطع الخبز ويمضغه :

– هيا ، هيا ، قضايا سرية ! طيب ، عم كان الحديث ؟

اجاب سلافا :

– كنا نتحدث عن الاختصاصات المختلفة وعن المهنة التى سيختارها كل منا . .

– مممم ! واى مهنة ستختارون ؟

رش قسطنطين اليكسييفيتش الفلفل على الشوربة وبدأ يحتسيها .

– لقد قال غينكا ان الكومسومولى لا يمكن ان يكون موسيقيا .

احتج غينكا قائلا :

– انى لم اقل ذلك .

– كيف ، لم تقل ذلك ؟!

– وماذا قلت ؟ لقد قلت انه يجب تملك اختصاص آخر ايضا بالاضافة الى الموسيقى .

تحايل غينكا متروويا : لقد عرف موضوع الخلاف الرئيسى بين قسطنطين اليكسييفيتش وسلافا .

قال قسطنطين اليكسييفيتش :

– يا لك من حاذق يا غينكا ! يجب تملك اختصاص بالتأكيد . . يجب الوقوف على قدمين ثابتتين فى الحياة ، وعندئذ اصدح كالكنار اذا شئت .

قال سلافا :

– اريد ان اصبح موسيقيا رغم كل شىء .

– تفضل ، ان احدا لا يعيقك ! ان بورودين كان ملحنا ايضا ، ولكنه كيميائى . . . – وابعد قسطنطين اليكسييفيتش الصحن ومسح شفتيه بمنشفة المائدة . – ليس من الضرورى ان تصبح كيميائيا بالذات . يمكن اختيار اى اختصاص آخر على ان يكون مهنة حقيقية .

اعترض سلافا قائلا :

– أليست الموسيقى والرسم والفن بشكل عام مهنة اذن ؟

– ولكن هذه المهنة هى . . . كيف يمكننى ان اشرح لك ؟ هوائية . – وحرك قسطنطين اليكسييفيتش فى الهواء اصابعه السمينة .

قال سلافا الذى لم يستسلم :

– ولماذا هوائية ؟ او هل هم قليلون اناس الفن الذين جلبوا المجد لروسيا من امثال تشايكوفسكى وغلينكا وريبين وتولستوى ؟ . .

قال قسطنطين اليكسييفيتش وهو يمط بكلامه :

– ولكن يا اخى ، ان اولئك كانوا عمالقة ، جبابرة وليس ذلك فى قدرة اى كان .

قال ميشا :

– انى موافق مع سلافا . اذا كان يريد ان يصبح موسيقيا فان عليه ان يتعلم لكى يكون موسيقيا . انكم تقولون بان عليه ان يحصل على اختصاص . معنى ذلك انه سيلتحق بمعهد تعليمى عال ويصبح مهندسا ثم يهجر الامر بعد ذلك ويصبح موسيقيا . لماذا تعلم اذن حينذاك ، ولماذا انفقت الدولة عليه الاموال ؟ كان من

الممكن ان يتعلم احد آخر فى مكانه ، فليس لدينا قدر كبير من المؤسسات التعليمية .

— اى نعم ... — كان قسطنطين اليكسييفيتش يفتت الخبز باصابعه وهو مستغرق فى التفكير . — يبدو انى لن استطيع التفاهم معكم ...

ونهض وبدأ يسير فى الغرفة .

— انى افهم فلست منعزلا عن الناس . اشتركت فى شبابى فى التمثيليات وكدت اصير ممثلا ... وها هى زوجتى ممثلة . انى اعرف ان الشباب يضيق الخناق على الحياة ... — وتنهد بصوت مسموع . — وقد كان عمرى اربعة عشر عاما فى وقت من الاوقات اما الحياة من حولى فكانت غابة كثيفة عذراء . واذكر ان امى كانت تخاف علىّ دائما وتقول لى : كيف ستشق طريقك وحيدا ... «شق الطريق» ! واى كلمة اختارت ! — وهز قبصته فى الهواء بقوة . — شق الطريق !!! معاركة الحياة !!! هكذا اذن ... عندما كنت شابا كنت افكر : «اجل ، ها هو مكان جيد ، لو انى اظفر به» ، وميشا يقول : «لا تشغل عبثا يا سلافا مكانا فى المعهد اذ ان احدا آخر يستطيع تلقى العلم فى مكانك ...» آخر . ومن هو هذا الآخر ؟ أهو ايفانوف ؟ ام بيتروف ؟ ام لعله سيدوروف ؟ من هو ؟ أهو قريب لميشا ام صديق له ؟ حتى انه لم يره ! لا يهمه الا ان تحصل الدولة على المزيد من المهندسين . ان هذا ما يهمه فقط .

ابتسم سلافا قائلا :

— وهل هذا سيىء ؟

— انى لا اقول بانه سيىء . — قال قسطنطين اليكسييفيتش ذلك وتوقف امام غينكا واستطرد : — لقد تغلبا علينا يا غينكا .

فاعترض غينكا قائلا :

— ولماذا «علينا» ؟ «عليك» فقط وليس «علينا» .

اندهش قسطنطين اليكسييفيتش وقال :

— وكيف ذلك ؟ لقد كنت منذ قليل تؤيد وجهة نظرى .

فمط غينكا كلامه قائلا : — أووو ، لقد مضى وقت طويل على ذلك ! . — وابتعد جانبا .

فتح قسطنطين اليكسييفيتش يديه بأسف وقال :

– لقد فقدت حليفى الوحيد . . . حسنا ، وماذا تريد ان تكون انت ؟

فصرح غينكا قائلا :

– سوف اخدم فى الاسطول .

فقال سلافا :

– لقد كان يريد ان ينتسب الى المدرسة المهنية منذ نصف ساعة فقط اما الآن ففى الاسطول .

اجاب غينكا برباطة جأش :

– فى البداية فى المدرسة المهنية وبعد ذلك فى الاسطول .

– طيب ، طيب . . . وانت يا ميشا ؟

– انى لم اقرر بعد .

الا ان غينكا صاح :

– انه يريد فى المدرسة المهنية كذلك وبعدها ينتسب الى الجامعة الشيوعية .

فقاطعه ميشا قائلا :

– يكفى يا غينكا !

هز قسطنطين اليكسييفيتش رأسه وقال :

– انكم تنظرون الى بعيد . وكنت اظن يا ميشا انك ستستمر فى الدراسة حتى الصف التاسع .

اجاب ميشا دون رغبة :

– لا ادرى ، سيتعذر ذلك على امى . سأتعلم فى المساء . وعلى وجه العموم سيتضح كل شىء وقتذاك .

ونظر الى الساعة المحاطة بتماثيل من البرونز . والتقط نظره الحركة الخاطفة للعقرب الكبير الذى ارتعش وتوقف دون حراك على الرقم تسعة . الساعة الثانية عشرة الا ربعا . واستعد الولـــدان للذهاب الى البيت .

قال قسطنطين اليكسييفيتش بمرح وهو يهز يديهما :

– هيا ، هيا لا تزعلا منى ، اذ انى اتمنى لكما التوفيق من كل قلبى .

الفصل السادس والستون

مراسلات

جاء الرد من مكتب العناوين كما يلي : «نعلمكم انه للاجابة على سؤالكم عن الشخص الذى تستفسرون عنه يجب الاشارة الى تاريخ ومكان ولادته» .

قال غينكا :

– حاول ان تعرف متى واين ولدت ماريا غافريلوفنا هذه ! لا ، يجب الذهاب الى بيتروغراد وكفى .

قال ميشا :

– ما زال لدينا الوقت للذهاب الى بيتروغراد ، اما هذا الرد فهو بيروقراطية صرفة . فلنكتب الى امين خلية الكومسومول .

وكتبوا الرسالة التالية :

«بيتروغراد ، مكتب العناوين ، يصل ليد امين خلية اتحاد الشبيبة الشيوعى لعامة روسيا .

عزيزى الرفيق امين الخلية ! نأسف لازعاجك ، لكن القضية هامة جدا . كان يعيش قبل حرب عام ١٩١٤ المواطن فلاديمير فلاديميروفيتش تيرينتييف وزوجته كسينيا سيغيزموندوفنا وامه ماريا غافريلوفنا فى مدينة بيتروغراد شارع مويكا ، بناية فاسيلييفا . نرجوكم ان تخبرونا عما اذا كانوا يعيشون هناك او الى اين انتقلوا . وليس عن الجميع طبعا لان فلاديمير فلاديميروفيتش قد هلك فى انفجار البارجة ، الا انه من المحتمل ان تكون امه وزوجته ما زالتا على قيد الحياة . لقد سبق ان استعلمنا عنهم ، الا انهم طلبوا منا تاريخ ومكان الولادة ، الامر الذى يعتبر بيروقراطية صرفة ويجب عليك كأمين اتحاد الشبيبة الشيوعى لعامة روسيا ان تقضوا على البيروقراطية قضاء مبرما . تحية طلائعية من بولياكوف ، بيتروف ، ايلداروف» .

بعث الاولاد بالرسالة وراحوا يترقبون الجواب .

اقتربت نهاية النصف الاول من السنة الدراسية وتوجب على

الاولاد المطالعة كثيرا بالاضافة الى ان الاعمال فى فرقة الطلائع لم تكن قليلة .

وكان يجب التردد كذلك على ساحة التزلق على الجليد .

كانوا يذهبون الى ساحة التزلق فى المساء فيبدلوا ثيابهم بسرعة على مقاعد طويلة ضيقة ويحملوها الى غرفة الثياب وهم على قباقيب التزلج التى كانت تطرطق على الارض كالخشب . ويتردد وقع الطرقات بشكل القائى مع الضجيج العام فى مشلح الثياب الذى انتشرت فيه سحب الهواء المتجلد المندفع من ساحة التزلق عبر الباب الذى لا يبقى مغلقا دقيقة واحدة .

اما المتزلقون البالغون فقد كانوا يبدلون ثيابهم فى غرفة منفردة ، يخرجون منها وقد شدت على اجسامهم ملابس الرياضة السوداء ، ويهمس الاولاد فيما بينهم باحترام : «هذا هو ميلنيكوف . . . وهذا ايبوليتوف . . . وهذا كوشين . . .»

كانت المصابيح لا تضيء الا بقعا من خطوط الثلج على ساحة التزلق التى يتحرك فيها المتزلقون حركات غريبة لا هدف منها . كانوا يتحركون زرافات ووحدانا او ازواجا سابقين بعضهم بعضا . كان المستجدون يتزلقون بحذر رافعين اقدامهم عاليا يضربون جليد الساحة بشكل اخرق متحركين بقوة العطالة .

كان جميع الاولاد يتزلقون على قباقيب من نوع «سنيغوروتشكا» او «نورميس» ما عدا يورا الذى كان يتزلق على قبقاب من نوع نرويجى .

كان مرتديا بدلة محبوكة سوداء اللون ويتزلق على ممشى السباق فقط وهو منحن الى امام واضعا يديه خلف ظهره مبعدا ما بين قدميه بشكل مؤثر عند المنعطفات . وكان مظهره كأنه ينم عن احتقاره للاولاد .

لم يعر ميشا وسلافا اى انتباه ليورا ، غير ان غينكا لم يستطع تحمل عجرفة يورا فحاول مرة ان يتسابق واياه فى الحلقة . كان غينكا احسن المتزلقين فى المدرسة ، ولكن هل يستطيع بقبقاب «سنيغوروتشكا» ان يلحق القبقاب النرويجى ؟ وقد تخلف عن يورا بشكل مخز نصف دائرة كامل .

وصار الجميع يسخرون من غينكا بعد هذه الحادثة ، وكانوا يتزلقون خلفه وهم يصيحون :

– يا بطل ، سجل رقما قياسيا !

توقف غينكا باسف عن الذهاب الى ساحة التزلق ، كما لم يعد يجرى بقبقاب التزلج فى الشوارع .

الفصل السابع والستون

عيد ميلاد غينكا

اعلن غينكا مرة امام ميشا وسلافا بانه يدعوهما الى عيد ميلاده يوم السبت . اندهش الولدان قائلين :

– أهى دعوة خاصة ؟

– الدعوة من قبلى والهدايا منكما .

جاء الصديقان لعند غينكا يوم السبت مساء واستغربا من رؤية مائدة عامرة ترتدى حلة العيد وعلى طرفها سماور ينفث البخار وقد وضع فوقه ابريق مزخرف للشاى ، وامتلأت الصحون بقطع شحم الخنزير وفطائر القريشة واللحم والسكاكر ، وقد وقفت اغريبينا تيخونوفنا امام المائدة تعتنى بها .

قال ميشا وهو يمط بكلامه :

– يا للروعة ! يا لك من حاذق يا غينكا ! . .

ثم سأل :

– ومن اى رأسمال حضرت كل ذلك ؟

اجاب غينكا مبتسما :

– ان ذلك من شأنى . . .

قالت اغريبينا تيخونوفنا :

– ان الوالد قد ارسلها . قلت له : «سوف تكفيك هذه المأكولات لمدة شهر» . ولكنه لم يرغب حتى بالاستماع فقال : – هيا ضعى على المائدة وانتهى . انه كأبيه ! – اضافت ذلك بشكل لا يفهم منه اهو استنكار ام اعجاب .

قال ميشا :

– وحتى ارسل السكاكر اليكما .

اجابت اغريبينا تيخونوفنا :

– كلا ، ان غينكا هو الذى اشتراها ، فقد باع قبقاب التزلج .

بدأ غينكا يصيح :

– لقد رجوتك يا عمتى ألا تتحدثى بالموضوع !

تملصت اغريبينا تيخونوفنا قائلة :

– طبعا ان ذلك احسن . انك تستهلك الكثير من احذية اللباد اثناء ارتداء القبقاب .

قال له ميشا :

– لو كنت اعرف انك بعت القبقاب حبا بالظهور لما اتيت لعندك .

هز غينكا رأسه بلا مبالاة وهو يقول :

– بيمشى حالى بدون قبقاب . وماذا فى قبقاب «سنيغوروتشكا» ؟ سانتسب الى المدرسة المهنية وعند ذلك اشترى قبقابا نرويجيا . انك ايضا بعت مجموعة طوابعك . اليس كذلك ؟ لماذا ؟

اجاب ميشا بمراوغة :

– كان يجب ذلك .

قال غينكا :

– انى اعرف لماذا فعلت ذلك ، انك تجمع النقود لشراء سترة جلدية . تريد ان تكون شبيها بكومسوملى حقيقى .

اجاب ميشا دون تحديد :

– من المحتمل . ان سلافا قد باع الشطرنج ايضا .

قال غينكا بدهشة :

– حقا ؟ الشطرنج المصنوع من العظام ؟ ولماذا ؟

اجاب سلافا بمراوغة ايضا :

– كان يجب ذلك .

قرع الجرس فذهبت اغريبينا تيخونوفنا لفتح الباب .

دخل الغرفة بعد برهة ميشا كوروفين مرتديا معطف وسيدارة معسكرات العمل وحيا الاولاد وخلع ملابسه الخارجية ثم اخرج من جيبه علبة دخان «بوكس» واشعل سيجارة .

سأله ميشا :

– كيف الاحوال ؟

– تسير حثيثا . لقد اخبرونى امس بترفيعى الى الدرجة الرابعة .

– وكم سيبلغ الآن اجرك ؟

اجاب كوروفين بدون اكتراث :

– حوالى تسعين روبلا .

واخرج من جيبه ساعة حجمها كحجم ساعة منبه وقربها من اذنه وقال :

– لا اجد الوقت للذهاب الى الساعاتى يجب تنظيفها .

– ارنى ! – قال غينكا ذلك واخذ الساعة واستمع اليها ثم قال : – انها تسير كما يجب .

قال كوروفين :

– لا بأس بسيرها ، خمسة عشر حجرا ، – واعاد الساعة الى جيب سترته واستطرد : – لقد انشأوا لدينا خلية للكومسومول ، وقد قدمت طلبا .

لقد تحمل الاولاد نبأ التسعين روبلا فى الشهر والساعة ، الا ان تحمل الامر الاخير لم يكن فى طاقتهم . فهم ما زالوا طلائع يحلمون فقط بالكومسومول ، اما كوروفين فقد قدم الطلب .

قال ميشا وهو ينظر بطرف عينه الى غينكا وسلافا :

– سننقل نحن ايضا الى الكومسومول قريبا ، من الفرقة مباشرة .

وصمت الولدان وكأن ميشا لا يقول الا الحقيقة .

سألهم كوروفين :

– أتعرفون من بعثوا الى معسكرنا ؟

– من ؟

– بوركا البخيل .

– حقا ؟

– ايوه . لقد كاد أبوه ان يقتله بسبب الغمد فهرب من البيت ، وهو عندنا الآن .

قرع الجرس مرة اخرى فذهبت اغريبينـا تيخونوفنـا لفتح الباب .

دخلت زينا كروغلوفا الغرفة .

نهض غينكا واتخذ وضعا احتفاليا وقال :

– اعزائى الضيوف ، انى مستعد لتقبل التهانى والهدايا ! ارجو الا تتدافعوا وان تحافظوا على الدور .

اخذت زينا تضحك بلا توقف ، فقد كانت هذه طبيعتها !

اهدت غينكا مهرجا اشعث الشعر يشبه كثيرا شعر المحتفى به .

قال غينكا :

– رائع ! ان البنات يتميزن دائما بعنايتهن . ماذا يهدينى الصبيان ؟

تذكر ميشا فجأة وقال :

– آه ، لقد كدت انسى !

فتح شنطته واخرج منها رزمة ظل يفتحها مدة طويلـة ، كان الجميع فى اثنائها يتتبعون حركات يديه . واخيرا ازال ميشا الطبقـة الاخيرة . . .

فالتمعت شفرة فولاذية لفردة قبقاب للتزلج . . . من النوع النرويجى !

اخذ غينكا فردة القبقاب بيديه ومرر ظفره على شفرتها بحذر ووضعها على اذنه ثم نقرها باصبعه واخيرا قال :

– رائع . . . واين الفردة الثانية ؟

فتح ميشا يديه معبرا عن اسفه وقال :

– واحدة فقط . . . لم يكن هناك غيرها . لا بأس ستتزلق على فردة واحدة فى الوقت الحاضر ، وعندئذ سنرى .

كان وجه غينكا يعبر عن الاسف بشكل لم تستطع فيه حتى زينا ان تضحك . فلكم كان مضحكا تصور غينكا يركض فى ساحة التزلق بفردة قبقاب واحدة !

وضع غينكا فردة القبقاب على الكرسى وتنهد بعمق ثم قال بصوت منهار :

– ارجو ان تتفضلوا الى المائدة .

اوقفه سلافا قائلا :

– انتظر ، اذ انه يوجد عندى ايضا هدية لك .

ودس يده فى محفظته وعاث فيها طويـلا ثم . . . اخرج فردة القبقاب الثانية .

صرخ غينكا :

– لقد ضحكتما على !

ثم صمت ونظر الى الصديقين بامعان ثم قال :

– يعنى . . . مجموعة الطوابع ، الشطرنج ، السترة الجليدية .

فقاطعه ميشا :

– هيا ، دعك من ذلك . . .

الفصل الثامن والستون

بوشكينو

جاء الجواب اخيرا من بيتروغراد :

«تحية عاطرة ايها الاصدقاء ! لقد وصلتنى رسالتكم . يوجد الكثيرون ممن يحملون اسم تيرينتييف حسب السجلات ، ولكنهم جميعا ليسوا من تبحثون عنهم . ان فاسيلييفا مالكة البيوت السابقة والتى ذهبت لزيارتها خصيصا ، قالت ان تيرينتييف وزوجته قد سكنا لديها حقا قبل الحرب ، اما الام فقد كانت تسكن فى مكان ما من ضواحى موسكو . وهذا كل ما امكننى معرفته . اما فيما يتعلق بالبيروقراطية فلستم على حق لان بضعة آلاف يحملون اسم تيرينتييف يعيشون فى بيتروغراد ، ولا يمكن معرفة العنوان دون معلومات دقيقة . مع التحيات الكومسومولية من كوبريانوفا» .

قال ميشا :

– هاكما كيف يجب الاستفادة من منجزات العلم والتكنيك .
سأله غينكا :
– عن اى تكنيك تتحدث ؟
– او ليس الاتصال البريدى تكنيكا ؟ هاك كيف يعمل الناس المتبصرون ، اما الطائشون فانهم يسيرون على غير هدى .
اجاب غينكا بلهجة لاذعة :
– لقد اكلتها منها كما يجب انت ايضا فيما يخص البيروقراطية .
فقال ميشا :
– لا اكلتها ولا اى شىء ، ولكن الامر ليس فى هذا . سنذهب يوم الاحد الى بوشكينو وسنأخذ الاسكى معنا .
فقال سلافا مندهشا :
– ولماذا الاسكى ؟
– لمراعاة السرية .

غادر الاصدقاء القطار فى محطة بوشكينو يوم الاحد وفى يدى كل منهم اسكى وعصايته .

امتدت على طول رصيف المحطة الخشبى المرتفع اكشاك ذات سقوف مائلة غمرها الثلج . ومن خلف الاكشاك تشعبت دروب عريضة بحواجز سوداء مربعة الشكل تفصل بين قطع اراضى المنازل الصيفية . وكانت الدروب المطروحة فى الثلج تؤدى الى بيوت خشبية ذات فيراندات من الزجاج ، وكان يتصاعد من مداخنها دخان ازرق بعث الحياة فى القرية المقفرة .

قال ميشا :
– سيسير كل منا على جانب واحد عند الذهاب ، وعند العودة على الجانب الآخر . المهم الا ندع لوحة تفلت منا .
قال سلافا :
– أليس من الافضل ان نسأل فى سوفييت القرية ؟
اعترض ميشا قائلا :
– لا يمكن ذلك ، ان القرية صغيرة وهذا يدعو لاثارة الريبة .

فقال غينكا :

– لا يوجد احد نخافه ! والمرأة العجوز نفسها ستسر حين نجد الكنز .

قال له ميشا :

– انك تجادل مع انك لم ترها فى حياتك . هيا بنا .

بحث الاولاد طول النهار الانهم لم يجدوا بيت تيرينتييفا .

قال سلافا عندما اجتمع الاولاد فى المحطة من جديد :

– لن نستفيد شيئا بهذا الشكل ، فنصف البيوت لا تحمل لوحات باسماء اصحابها . يجب علينا ان نسأل فى سوفييت القرية .

غضب ميشا وقال :

– لقد قلت لك انه لا يمكن ذلك ! أنسيتما ما قاله سفيريدوف ؟ سنأتى يوم الاحد القادم مرة اخرى .

خلع الاولاد الاسكى وعندما اقتربوا من شباك التذاكر سمعوا احدا يناديهم : «مرحبا يا اولاد !» فالتفتوا فرأوا البهلوانين يلينا وايغور بوش .

ابتسمت لينا بترحيب . كانت خصلات شعرها الاشقر تتهدل من تحت قبعتها الفرائية لتستلقى على ياقة معطفها . اما ايغور فقد كان ينظر بجد كعادته وقال بصوت عميق وهو يهز ايدى الاولاد :

– لقد مر زمن طويل !

سألت لينا :

– أكنتم تتزلقون على الاسكى ؟ لماذا لم تأتوا لعندنا ؟

فسألها ميشا :

– او تسكنان هنا ؟

– نعم ، ان عندنا بيتا هنا . هيا معنا .

قال ميشا :

– ان الوقت متأخر ، سنأتى يوم الاحد القادم .

– سنأتى حتما ، – قال غينكا مؤكدا ثم اضاف بغموض : – ان لدينا امرا هنا .

فسألت لينا :

– واى امر ؟

نظر ميشا الى غينكا بشراسة وقال :

— لا شيء ، انه امر تافه .

غير ان لينا اصرت قائلة :

— هيا ، حدثونى .

قال غينكا فجأة :

— انى ابحث عن عمتى .

فقالت لينا مندهشة :

— ولكن عمتك فى موسكو !

— ان تلك هى واحدة اما هذه فواحدة اخرى .

— او لم تجدوها ؟

— كلا ، لقد فقدنا العنوان .

— وما كنيتها ؟

صمت الاولاد .

— ما هى كنيتها ؟ ام انكم فقدتم اسمها ايضا ؟

اجاب ميشا فجأة :

— ان كنيتها تيرينتييفا ، اما اسمها فهو ماريا غافريلوفنا . الا تعرفينها ؟

قالت لينا :

— تيرينتييفا ، ماريا غافريلوفنا ؟ اعرفها ، انها تقطن الى جانبنا . هيا معنا وسنريكم اين تسكن .

الفصل التاسع والستون

نيكيتسكى

قال ميشا فى الطريق :

— فليكن بعلمك انه لا يجب ان نقول لعمة غينكا بانه يبحث عنها .

— ولماذا ؟

— انها قصة طويلة . انها تعتقد ان غينكا ميت ، واذا قلنا لها رأسا فيمكن ان تصاب بالسكتة القلبية من الفرح .

قالت لينا :
– اننا لا نعرف بعضنا البعض تقريبا . انها شديدة الانغلاق على نفسها .
واستطرد ميشا :
– ولا تقولى لاحد على وجه العموم . ولا تتحدثى امام ابيك عن ذلك .
قالت لينا :
– ان ابى قد توفى .
ارتبك ميشا وقال :
– آسف .
وصمت برهة ثم سأل :
– كيف احوالكما الآن اذن ؟
– نعمل انا وايغور «اثنان – بوش – اثنان ، عرض هوائى» .
اقتربوا من بيت صغير .
اشارت لينا الى البيت المجاور وقالت :
– وهنا تقطن ماريا غافريلوفنا .
لم يكن يظهر خلف السياج المرتفع الا السطح الذى تغطت اطرافه بطبقة من الثلج .
سأل ميشا :
– ما اسم هذا الدرب ؟
قال ايغور :
– يامسكايا سلوبودا . ان رقم بيتنا هو ثمانية عشر اما رقم بيت تيرينتييفا فهو عشرون .
نظر ميشا الى غينكا بعتاب وقال :
– انك بحثت جيدا !
فتمتم غينكا وهو يشيح بعينه :
– لا افهم كيف افلت منى هذا .
قال سلافا :
– لا يوجد حتى اثر للاسكى على هذا الجانب .
تمتم غينكا وهو يتفحص الممر :

– كيف لا يوجـــد ؟ واين ذهبت الآثار ؟.. لقد انمحت ! انظروا ما اشد الحركة هنا ! – واشار الى الدرب المقفر .

عرضت عليهم لينا قائلة :

– تفضلوا بالدخول لعندنا . اننا والحق يقال لم نكن فى البيت مدة ثلاثة ايام الا اننا سنشعل النار الآن فيصبح دافئا جدا .

كان البيت صغيرا هادئا وقد تغطى زجاج النوافذ بجليد ازغب وساعة الحائط تدق بانتظام وخشب الارضية الجيد التنظيف يئز قليلا تحت الاقدام وقد علاه بساط مبرقش . اما فوق المائدة المغطاة بغطاء من المشمع الملون فقد علق مصباح كبير للكاز ، وعلى الحائط بروازان فيهما صورتان كبيرتان لرجل وامرأة . كان الرجل ذا شارب كث مصبوغ مفروق الشعر بعناية وذقن حليقة علت ياقة منشاة انثنى جانباها ، ففكر ميشا : –«تماما كصورة الجد فى ريفسك» .

غيرت لينا ثيابها وارتدت معطفا قديما وانتعلت حذاء لباديا وربطت رأسها بمنديل فاصبحت تشبه الآن فتاة قروية حقيقية .

قالت لايغور :

– هيا بنا نجلب الحطب .

فصاح الاولاد :

– سنجلبه نحن ! ارنا فقط اين هو .

فتحت لينا العنبر فراح ميشا وغينكا يكسران الحطب ، اما سلافا وايغور فكانا ينقلانه الى البيت .

تملك الحماس غينكا فراح يدمدم وهو يهوى بالفأس :

– سنكسر الحطب كله .

لم تستسلم قرمية الحطب فقال ميشا :

– خذ غيرها .

تورد وجه غينكا وانزاحت قبعته حتى وصلت الى هامته ولكنه قال :

– كلا ، ان القرمية عنيدة ولكننى اعند .

سرعان ما ارتفع من الموقد لهيب ساطع واتخذ الاولاد اماكنهم بالقرب منه ، حيث جلس سلافا ولينا على مقعدين اما الباقون فعلى الارض .

قالت لينا :
– هكذا نعيش . نأتى الى هنا فى ايام الفراغ عندما لا نقدم عروضنا .
فقال ايغور بصوته العميق :
– يجب علينا الانتقال الى موسكو .
اجابت لينا :
– يعز على مفارقة هذا المكان لان ابى وامى عاشا فيه .
عوت النيران فى مدخنة الموقد وتراقصت بقع حمراء على الارض .
قالت لينا :
– سنقضى الاسبوع كله هنا ، فتعالوا لعندنا .
اجاب ميشا :
– لا ادرى ، سنكون مشغولين جدا هذا الاسبوع .
وصمت برهة ثم سأل :
– أيوجد فى البيت سقيفة ؟
– يوجد .
– او يمكن رؤية فناء بيت تيرينتييفا منها ؟
– نعم . ولماذا تهتم بذلك ؟
– اريد ان القى نظرة .
– هيا بنا وسأريك .
خرج ميشا ولينا الى مدخل البيت البارد وصعدا سلما شديد الانحدار افضى بهما الى السقيفة .
قالت له لينا :
– اعطنى يدك حتى لا تقع .
وزحفا من خلال العارضة واقتربا من نافذة السقيفة .
استلقت القرية على شكل مربعات كبيرة . وقد اظلمت من خلفها الغابة المقسومة الى قسمين بواسطة خط السكة الحديدية البعيد . وتراءت على الثلج الظلال السوداء الطويلة للبيوت والعنابر والاسيجة ، وامتدت خطوط التلغراف من عمود الى عمود وقد ازدحمت مماسكها الخزفية على العوارض . وكان الضوء منتشرا كما لو ان الوقت كان نهارا .

وقفت لينا الى جانب ميشا ، وبدا وجهها الذى ينيره ضوء القمر شفافا . كانت تمسك بيده وقد وقفا صامتين ... تفحص ميشا البيت الحجرى القديم والملحقات المهملة الموجودة فى الحوش والتى تحطم جزء منها وجزوع الحطب المنتشرة على طول السياج . ودل الثلج الذى لم يمسه احد والنوافذ التى علاها الجليـــد فى الجانب الايمن من البيت على ان نصفه الايسر فقط يستعمـــل للسكن .

كان الحوش مقفرا .

علا صفير قاطرة من مكان ما وانقطع حالا .

فتح باب البيت وخرج منه رجل طويل القامة القى على كتفيه معطفا قصيرا من الفراء . توقف يدخن وظهره الى ميشا ، ثم القى عقب السجارة على الثلج واستدار ببطء . شد ميشا على يد لينا بكل قوته .

لقد كان نيكيتسكى .

الفصل السبعون

الاب

عاد الاولاد الى بيوتهم فى وقت متأخر من المساء .

كانت ماما تقرأ ، وعندما دخل ميشا التفتت اليـــه وهزت رأسها بعتاب .

– اعلمى يا امى اننا صادفنا معارف فى بوشكينو وتأخرنا عندهم . لقد تناولت عشائى هناك فلا تقلقى .

والقى على ما تقرأه نظرة عبر كتفها وقال :

– ماذا تقرئينه ؟ «انا كارينينا» ...

شعرت برنة اللامبالاة فى صوته فسألت :

– الا تعجبك ؟

اجاب ميشا وهو يجلس على السرير :

– ليس بوجه خاص . انى احب «الحرب والسلام» اكثر .

– ولماذا ؟

– لان جميع ابطال «الحرب والسلام» جديون : بولكونسكى

وبيزوخوف وروستوف ... اما هنا فلا يفهم المرء من هم هؤلاء الناس . ان ستيفا انسان متعطل . له من العمر اربعون عاما وما زال يسلك سلوك الاطفال .

فاعترضت الام قائلة :

– ليس جميع الابطال خفيفى العقل . خذ ليفين مثلا .

– ان ليفين اكثر جدية . الا انه لا يهتم سوى باملاكه .

قالت الام وهى تختار كلماتها ببطء :

– لقد كانوا اناسا يمثلون عصرهم .

قال ميشا الذى كان قد استلقى فى الفراش واضعا يديه تحت رأسه :

– انى افهم ذلك . لقد كان ذلك مجتمع طبقة النبلاء . ومع ان مجتمع طبقة النبلاء موصوف ايضا فى «الحرب والسلام» ولكن ان تنظرى الى الفرق . ان للناس هنا اهدافا ومطامح ، يعترفون بواجبهم نحو المجتمع ، اما هناك فلا يفهم المرء فى سبيل اى شىء يعيشون ، مثل فرونسكى وستيفا . يجب ان يكون للانسان هدف فى الحياة ، أليس كذلك ؟

قالت الام :

– طبعا يجب ان يكون ، ولكن لكل بطل من ابطال «آنا كارينينا» هدفا فى الحياة . والحق يقال انها اهداف شخصية بشكل خاص ، مثل السعادة الشخصية والحياة مع المحبوب . انها اهداف صغيرة ولكنها مع ذلك اهداف .

استوى ميشا على مرفقه وقال :

– واى هدف يا امى ! اذا جرى النقاش بهذا الشكل فينتج ان لدى السكير هدفا كذلك : ان يسكر . ولدى البرجوازيين ان يجمعوا الاموال . انى لا اتحدث ابدا عن مثل هذه الاهداف . يجب ان يكون الهدف ساميا ، نبيلا . لقد تحدثنا منذ ايام مع قسطنطين اليكسييفيتش . كان يعمل سابقا من اجل النقود فقط وذلك يعنى ان هدفه لم يكن ساميا . اما الآن فانه يعمل اياما متواصلة لاعادة بناء المصنع ، ومعنى ذلك ان هدفه سام . وابى مثلا . لقد قدم حياته من اجل الثورة . معنى ذلك ان هدفه كان اسمى الاهداف وانبلها .

وصمتا .
قال ميشا فجأة :
– انى اتصور ابى بشكل جيد جدا . يبدو انه لم يكن يهاب شيئا .
قالت الام :
– صحيح ، لقد كان رجلا جريئا .
وصمتا ، فقد كان ميشا يعرف ان من الصعب على امه ان تتذكر اباه .
ثم اغلقت الام الكتاب واطفأت المصباح واستلقت هى الاخرى فى الفراش ، اما ميشا فقد بقى مدة طويلة مفتوح العينين يتطلع الى نور القمر الزاحف فى الغرفة .
لقد اثاره الحديث مع امه . لعله شعر بوضوح الآن فقط عندما تحدث معها عن اهداف الحياة ان عهد الطفولة يولى وانه يبدأ الحياة .
ولم يكن يريد وهو يفكر فى مستقبله ، حياة الا كالحياة التى عاشها ابوه وامثاله من الناس الذين وهبوا حياتهم للقضية الكبرى – قضية الثورة .

الفصل الحادى والسبعون

غلطة غينكا

قص ميشا على سفيريدوف بانه رأى نيكيتسكى ، فامر سفيريدوف الاولاد بالانتظار وبعدم الذهاب الى بوشكينو مرة اخرى .
ومع ذلك تملكت الاولاد هموم اخرى الآن ، فقد قرر مجلس الفرقة احالة ميشا وغينكا وسلافا وشورا اغوربيف وزينا كروغلوفا الى الكومسومول . وقد قبلتهم خلية اتحاد الشبيبة الشيوعى لعامة روسيا واستعدوا لمقابلة لجنة الاختبار المنطقية .
كان ميشا قلقا جدا ولم يكن يصدق انه سيصبح عضوا فى

الكومسومول . أصحيح ان اعز احلامه سيتحقق ؟ كان يتطلـــع بحسد خفى الى اعضاء الكومسومول الذين يملأون ممرات اللجنة المنطقية . فتيان مرحون دون تكلف ! من الطرافة معرفة ما مروا به امام لجنة الاختبار ! من المرجح انهم كانوا قلقين ايضا . الا ان ذلك قد مضى بالنسبة لهم ، اما هو ، ميشا ، فقد كان يقف وجلا امام باب كبير علقت عليـــه الاعلانات . وخلف الباب اجتمعت اللجنة ، حيث سيتقرر مصيره قريبا .

دعوا غينكا الى الدخول اولا .

وعندما خرج من الغرفة اندفع نحوه الاولاد يسألون :

– كيف كان ذلك ؟

دفع غينكا قبعته الى طرف رأسه بعنطزة وقال :

– كل شيء على ما يرام ! لقد اجبت على جميع اسئلتهم .

وعدد لهم الاسئلة التى طرحت عليه ، وكان منها : ما هى فترة الترشيح المقررة للتلاميذ ؟

وقال غينكا :

– لقد اجبت بانها سته اشهر .

فقال ميشا :

– غير صحيح ، انها عام .

فاصر غينكا على قوله :

– لا ، انها ستة اشهر . لقد كان هذا جوابى فوافق رئيس اللجنة .

ارتبك ميشا وقال :

– وكيف ذلك ؟ لقد قرأت النظام الداخلى بنفسى .

دعى ميشا ، فدخل غرفة واسعة جلس اعضاء اللجنة الى احدى الطاولات الموجودة فيها ، وكان كوليا سيفوستيانوف يجلس الى جانب . جلس ميشا على احدى مقاعد مرتبكا ينتظر الاسئلة .

كان الرئيس فتى اشقر يرتدى قميصا روسيا ومن فوقه سترة جلدية . قرأ طلب ميشا سريعا وهو يضع كلمة «طيب» فى كل دقيقة : «بولياكوف – طيب ، ميخائيل غريغوريفيتش – طيب ، تلميذ – طيب . . .»

قدمه كوليا سيفوستيانوف :

– انه عضو نشيط لدينا ، وهو رئيس فريق وعضو لجنة التلاميذ .
فقال الرئيس بخشونة :
– لا تطرى جماعتك ، فاننا نستطيع تدبير الامر بانفسنا
اجاب ميشا على جميع الاسئلة .
كان آخر سؤال عن فترة الترشيح .
كان ميشا يعرف انها عام ، لكن غينكا ... واجاب بتردد :
– ستة اشهر ...
قال الرئيس :
خطأ ، انها عام . حسنا ، اذهب .
توجه الاولاد من لجنة المنطقة الى سفيريدوف الذى كان قد دعاهم للحضور فى العاشرة صباحا . وكان ميشا وسلافا يقرعان غينكا طوال الطريق ، فقد اخطأ سلافا كذلك .
قال ميشا :
– علينا الآن أن نبدأ كل شيء من البداية ، فسيقبل الجميع ما عدانا . سنكون عارا على المدرسة !
فقال سلافا :
– ان لديه بالمقابل نجاحات كبيرة على القبقاب . انه مختف طول النهار فى ساحة التزلق ، حتى انه لا يلمس الجرائد بيديه .
كان غينكا المكتئب مما حدث صامتا لا يصنع الا ان يتنفس بعنف على زجاج نافذة الترام التى علاها الجمد ، الا ان صمته لم ينفعه . فقد استمر الصديقان بشتمه ، والاسوأ من ذلك انهما كانا يتحدثا عنه بصيغة الغائب وكأنه لا وجود له .
قال ميشا مقلدا كلام غينكا :
– ها ... كل شيء على ما يرام ، فكم نحن قبضايات . نفعل كذا وكذا ...
واضاف سلافا :
– ولا نهاب احدا .
واستمر ميشا :
– انه لا يحلم الا بالكنز . الكنز ولا شيء الا الكنز ... يا له من امين للكنوز !

فاضاف سلافا :
– انه يطمح الى ان يكون مليونيرا .
ولكنه قال ذلك بلهجة اخف وقعا لانه اشفـــق على غينكا .
وصلوا الى ادارة المباحث الجنائيـة فى شارع بيتروفكا حيث كان بانتظارهم اذن للدخول الى غرفة رقم مئتين وثلاثة لعند الرفيق سفيريدوف .
سألهم سفيريدوف حال وصولهم :
– لماذا تأخرتم ايها الاصدقاء ؟
– لقد تأخرنا فى لجنة المنطقة امام لجنة الاختبار .
فرفع سفيريدوف حاجبيه قائلا :
– ياللعجب ! انى اهنىء الكومسومولين الفتيان .
تنهد الاولاد .
سأل سفيريدوف :
– ماذا حدث ؟
فقال ميشا :
– لقد سقطنا .
فقال سفيريدوف مندهشا :
– سقطتم ؟ وبماذا ؟
– بسؤال عن فترة الترشيح .
قال غينكا بتجهم :
– انا المذنب فى ذلك .
– وكيف اجبتم على بقية الاسئلة ؟
– اظن انه كما يجب .
ضحك سفيريدوف وقال :
– ولماذا انتم حزينون ؟ انهم لن يرفضوكم من اجل جواب واحد غير صحيح . لذلك لا تغتموا . . . والآن يا اولاد فلنبـــدأ بقضيتنا . استمعوا الى بانتباه . ان نيكيتسكى يصر بعناد على ان اسمه هو سيرغى ايفانوفيتش نيكولسكى . ويعتمد فى ذلك على بعض الشهـود ومن ضمنهـم فيلـين . – وضحـك سفيريدوف ضحكـة ساخرة . – وقد تشاجر فيلين وبائع الطوابع بعد فقدان الغمد حيث كان الاول يلقى التبعـة على الثانى وبالعكس . ومع ذلك ، – ونظر الى

الاولاد ، – لقد تخلصوا من مستودعهم مقدما ، ويظهر ان احدا قد ارعبهم .

نظر الاولاد الى الارض صامتين .

وكرر سفيريدوف :

– نعم ، ان احدا ما قد ارعبهم . اما الآن فستجرى مواجهة الشهود بين كل واحد منكم وبين نيكيتسكى . يجب عليكم ان تتحدثوا عن كل شيء تعرفونه . ردوا على جميع الاسئلة بصدق ، كما كان فى الواقع دون ان تخترعوا شيئا . والآن اذهبوا الى الغرفة المجاورة وانتظروا هناك . وعندما يحين الوقت سوف يدعونكم . آه لقد كدت انسى . . . – واخرج سفيريدوف المدية من الدرج وناولها لميشا واستطرد : – وعندما أسأل لماذا قتل نيكيتسكى تيرينتييف ، اظهر المدية يا بولياكوف .

الفصل الثانى والسبعون

مواجهة الشهود

دعى سلافا اولا ومن بعده غينكا واخيرا ميشا .

دخل ميشا الغرفة . كان يجلس خلف الطاولة ما عدا سفيريدوف رجل آخر متقدم فى العمر يرتدى بزة بحرية وفى فمه غليون . وكان سلافا وغينكا يجلسان بوقار عند الحائط وقد وضعا قبعتيهما على ركبتيهما .

وفى وسط الغرفة ، مقابل سفيريدوف ، جلس نيكيتسكى على مقعد . كان مرتديا سترة عسكرية من اللون الكاكى وبنطالا ازرق للفرسان وجزمة ، واتخذ وضعا يدل على عدم الاكتراث واضعا ساقا على ساق ، وكان شعره الاسود مسرحا بعناية الى وراء .

كانت بقع نور الشمس اللامعة تتحرك فى الغرفة .

عندما دخل ميشا الغرفة ، القى عليه نيكيتسكى نظرة حادة سريعة . ولكن هذا المكان لم يكن لا بلدة ريفسك ولا كوخ عامل الصيانة ، لذلك نظر ميشا مباشرة الى نيكيتسكى . نظر اليه ورأى بوليفوى المضروب ضربا مبرحا والدماء تسيل منه ، ورأى قضبان

السكة الحديدية المفككة ، ورأى الحقل الاخضر الذى كانت تجرى فيه الخيول وقد فقدت فرسانها .

سأل سفيريدوف وهو يشير الى نيكيتسكى :

– أتعرف هذا الرجل ؟

– نعم ،اعرفه .

– ومن هو ؟

فاجاب ميشا بقوة وهو يواصل النظر الى نيكيتسكى :

– انه نيكيتسكى فاليرى سيغيزموندوفيتش .

لم يبد نيكيتسكى اية حركة .

قال سفيريدوف :

– حدثنا بالتفصيل من اين تعرفه .

تحدث ميشا عن الاغارة على ريفسك وعن الهجوم على القطار وعن مستودع فيلين .

سأل سفيريدوف :

– ماذا تقول فى ذلك ايها المواطن نيكيتسكى ؟

فاجاب نيكيتسكى بهدوء :

– لقد سبق واجبت . ثم ان لديكم ادلة اكثر وثوقا مما يختلقه هذا الطفل .

– أتستمر فى التأكيد على انك سيرغى ايفانوفيتش نيكولسكى ؟

– نعم .

– وانك كنت تعيش فى بيت ماريا غافريلوفنا تيرينتييفا بصفة مرؤوس سابق لابنها فلاديمير فلاديميروفيتش تيرينتييف ؟

– نعم . انها تستطيع اثبات ذلك .

– أتستمر فى التأكيد على ان فلاديمير فلاديميروفيتش تيرينتييف قتل اثناء انفجار البارجة ؟

– نعم . ان الجميع يعرفون هذا . لقد حاولت انقاذه ، ولكن بلا فائدة ، فقد التقطنى زورق انا نفسى .

– يعنى انك حاولت انقاذه ؟

– نعم . . .

– والآن قل لى يا بولياكوف . . . – تمهل سفيريدوف

وسأل دون ان يحول نظرته الثاقبة عن نكيتسكى : — الا تعرف من اطلق النار على تيرينتييف ؟

اجاب ميشا بحزم وهو يشير الى نيكيتسكى :

— هو !

كان نيكيتسكى يجلس كالسابق دون ان يتحرك .

— لقد حدثنى بذلك بوليفوى فلقد رآه بنفسه .

فتوجه سفيريدوف الى نيكيتسكى وسأله :

— ماذا تقول فى ذلك ؟

ضحك نيكيتسكى ضحكة ساخرة مصطنعة وقال :

— انها لسخافة ... وبعد ذلك اعيش فى بيت امه ! اما اذا كنت تريد تصديق هذا الهراء ... .

— بولياكوف ! ما هى الاثباتات التى لديك ؟

اخرج ميشا المدية ، وكان نيكيتسكى ينظر اليه دون ان يحول بصره عنه .

اخرج سفيريدوف النصل من الغمد ونزع القبضة ثم سحب الشريحة . وبعد ذلك ركب المدية كما كانت ، ونيكيتسكى يتابع حركات يديه باستمرار .

—أتعرف هذا الشيء ايها المواطن نيكيتسكى ؟

استلقى نيكيتسكى على ظهر المقعد وقال :

— انى اراه لاول مرة .

— انك مستمر فى عنادك . — قال سفيريدوف ذلك ووضع المدية تحت الاوراق ثم نهض وفتح الباب الموجود فى آخر الغرفة وقال :

— ماريا غافريلوفنا ، تفضلى بالدخول !

دخلت الغرفة امرأة طويلة القامة ترتدى معطفا اسود ووشاحا من نفس اللون بان من تحته شعرها الشائب .

قال سفيريدوف مشيرا الى كرسى :

— ارجوك ان تجلسى .

جلست واغلقت عينيها تعبة .

قال سفيريدوف :

— قولى ما اسم هذا الشخص ايها المواطنة تيرينتييفا .

اجابت تيرينتييفا بصوت منخفض دون ان ترفع عينيها :
– سيرغى ايفانوفيتش نيكولسكى .
– متى واين وفى اية ظروف تعرفت عليه ؟
– لقد جاء لعندى اثناء الحرب يحمل رسالة من ابنى .
– ما هو اسم ابنك ؟
– فلاديمير فلاديميروفيتش .
– واين هو ؟
– قتل .
– متى ؟
– فى السابع من تشرين الاول عام الف وتسعمائة وستة عشر اثناء انفجار البارجة «الامبراطورة ماريا» .
– أواثقة انت من انه قتل اثناء الانفجار بالذات ؟
– طبعا ، – ورفعت عينيها ونظرت الى سفيريدوف بحيرة ، – طبعا لقد وصلتنى ورقة اشعار .
– وهل ارسلوا لك حاجياته ؟
– كلا . او هل كانوا يستطيعون ارسالها ؟ من كان يستطيع انقاذ حاجياته ؟
– ان ذلك يعنى بان جميع حاجيات ابنك قد فقدت ؟
– اظن ذلك .
– اقتربى من الطاولة .
نهضت تيرينتييفا بثقل واقتربت من الطاولة .
سحب سفيريدوف المدية من تحت الورق وناولها لتيرينتييفا وسألها بقساوة :
– أيمكنك التعرف على مدية ابنك ؟
قالت تيرينتييفا وهى تتأمل المدية :
– نعم . . . نعم . . . – ونظرت بحيرة الى نيكيتسكى الذى كان جالسا لا يتحرك . – نعم . . . انها مديتنا . . . انها مديته . . . مدية فلاديمير . . .
– الا يدهشك ان جميع حاجيات ابنك قد فقدت وان المدية بقيت سليمة ؟

لم ترد تيرينتييفا بشىء . كانت اصابعها ترتجف على حافة الطاولة .

قال سفيريدوف :

– انك لا تردين . اجيبينى اذن . . . انى اسألك للمرة الاخيرة : من هذا الشخص ؟ – واشار الى نيكيتسكى .

قالت تيرينتييفا بصوت لا يكاد يسمع :

– نيكولسكى .

– حسنا اذن ، – ونهض سفيريدوف ومد يده باتجاه نيكيتسكى وقال : – انه قاتل ابنك !

تمايلت تيرينتييفا وتعلقت اصابعها المرتجفة على حافة الطاولة ، وقالت بهمس :

– ماذا . . . ماذا قلت ؟

فتلا سفيريدوف بصوت جاف رسمى دون ان ينظر اليها :

– «فى السابع من تشرين الاول عام الف وتسعمائة وستة عشر قام الملازم نيكيتسكى بقتل المقدم فلاديمير فلاديميروفيتش تيرينتييف بطلقة من مسدسه . . . القصد من الجريمة هو سرقة المدية» .

ساد الغرفة هدوء تام . كان نيكيتسكى يجلس دون حراك مركزا نظره على مقدمة جزمته ، ووقفت تيرينتييفا جامدة لا تتحرك . ونظرت الى نيكيتسكى وضغطت باصابعها الطويلة الجافة على حافة الطاولة .

قالت همسا :

– فاليرى . . . فاليرى . . .

وظهر وجهها الجامد الممتقع شديد البياض امام لون جدران الغرفة الازرق . وقفز سفيريدوف والبحار ليرفعاها عن الارض .

الفصل الثالث والسبعون

آل تيرينتييف

كانت سيارة ركاب صغيرة تنهب الارض نهبا فى طريق ياروسلافل ، وقد جلس فيها سفيريدوف والبحار وتيرينتييفا

والاولاد . وخلف الافريز الواسع للطريق كانت تظهر من حين لآخر البيوت الصغيرة فى ضواحى موسكو واعمدة الكهرباء العالية التوتر والمنعطفات الفولاذية لخط السكـة الحديدية الدائرى . وامتدت بعد ذلـــك غابات الصنوبـــــر والمجارى على جانبـــى الطريق والتى امتلأت بالثلج الرمادى الهش والقرى المحيطة بموسكو.

بدأت ماريا غافريلوفنا الحديث :

– ان المدية كانت ملكا لبوليكارب تيرينتييف صانع الاسلحة المشهور الذى عاش منذ مئة وخمسين سنة . وتقول الاسطورة انه قد جلبها من الشرق .

دفع ميشا صديقيه ورفع اصبعه .

وواصلت ماريا غافريلوفنا الحديث :

– نقم على بوليكارب تيرينتييف فى عهد الامبراطورة يليزافيتا بيتروفنا فاعتزل فى ضياعه ، واقام هناك مخبأ . من المحتمل ان ما دفعه الى ذلك هو الظروف او لعله الولع بالميكانيك . وما زال لدينا فى البيت حتى الآن اشياء من صنعه : علبة سرية ورافعات خاصة وحتى ساعة صممها بنفسه . واكثر ما تولع به هو امور الغطس . ولكن كل تصاميمه لجهاز الغطس وانتشال سفينة غارقة كانت خيالية بالنسبة لذلك الوقت . ومع ذلك فان قضية الغطس وانتشال السفن اتخذت لها جذورا فى عائلتنا . فقد انشغل بها ابن بوليكارب تيرينتييف وحفيده وابنى فلاديمير . واشترك كثيرون منهم فى البعثات . وقد بقى جد فلاديمير عدة سنوات فى جزيرة سيلان وحاول انتشال سفينـة هناك الا انه لم ينجح . وجمع ابو فلاديمير معلومات عن سفينـــــة «الامير الاسود» الغارقة . ولكن كل هذه الاعمال كانت محاطة بسرية اصبحت تقليدية فى العائلة .

قال سفيريدوف :

– انه لامر عجيب !

استمرت ماريا غافريلوفنا فى الحديث :

– ان ميزة المخبأ هى ان احدا فى البيت لا يعرف شيئا عنه الا رب العائلة . ولم نكن نحن النساء نهتم بذلك . وقد اخفى العجوز الشيفرة التى تشير الى مكان المخبأ فى المدية . كان ابنى فلاديمير آخر ممثل لعشيرة تيرينتييف . وقد استلم المدية من زوجى فى شهر

كانون الاول عام الف وتسعمائة وخمسة عشر . لقد جاء فلاديمير الى بوشكينو خصيصا . وفى ذلك الوقت وقع الشجار بينه وبين زوجته كسينيا التى طلبت منه ان يبقى المدية عندها وان يريها المخبأ . وقد لعب دور اصبع القدر فى ذلك فاليرى نيكيتسكى شقيق كسينيا الذى كان على ما يبدو واثقا من انه يحتفظ فى المخبأ باشياء ثمينة . ولكن لو كان الامر على هذا الشكل لابقى فلاديمير المدية لدى عندما ذهب الى الحرب . وقد جاء فاليرى فى السنة الماضية واكد لى ان فى المخبأ وثائق تسئ الى سمعة فلاديمير . وقال لى ان فلاديمير قد لفظ انفاسه بين يديه وادعى انه طلب منه ابادة هذه الوثائق . كما ادعى فاليرى انه بقى فى روسيا لهذا الهدف وانه مضطر للاختفاء .

وصلت السيارة الى بوشكينو وسرعان ما توقفت امام بيت تيرينتييفا .

دخلوا غرفة الطعام حيث انتصبت مائدة طعام طويلة على قوائم من الخشب المحفور ، وقد طوى احد اطراف غطائها ، وعلى المشمع ثلاث كومات من الحنطة السوداء يظهر ان احدا قد فرز الاوساخ عنها.

قالت ماريا غافريلوفنا :

– يوجد فى البيت كثير من الساعات ولكنى لا اعرف المطلوبة منها .

قال سفيريدوف :

– ان الساعة التى ذكرتها هى المطلوبة على الارجح .

– هيا بنا الى المكتب اذن .

انتصبت فى فجوة عميقة من احد جدران المكتب ساعة فى بيت خشبى اصفر ميناؤها خلف الزجاج . والى جانب الثقب الذى تشغل منه الساعة لاح شق ضيق لا يكاد يلاحظ . فتح سفيريدوف باب الساعة فاخذ الرقاص يهتز بشكل مائل ثم بدأ يصلصل .

ادار سفيريدوف عقربى الساعة حتى وصلا الى الثانية عشرة الا دقيقة فوضع فى الشق افعى المدية وشغل الساعة وهو يدير الافعى بحذر الى اليمين .

اهتز عقرب الدقائق وتحرك فانفتح باب صغير فوق الميناء خرج منه عصفور خشبى صاح اثنتى عشرة مرة وبعد ذلك خرخرت الساعة وتقدم العصفور الى الامام واستدار وراءه البرج فاتحا الجزء الاعلى

من بيت الساعه . كان البيت ذا جدار مزدوج . كان السر فى ان برج الساعة وبيتها يبدوان من الخارج وكأنهما صنعا من قطعة واحدة من الخشب . وفقط بعد تشغيل الساعة يدفع لولب داخلى برج الساعة الى فوق ويفتح المخبأ الذى كان عبارة عن صندوق عميق مربع الشكل ملىء بالاوراق .

كان هناك لفة من الرسومات بالية الاطراف مغضنة مربوطة بخيط واضبارات امتلأت باوراق اصفر لونهـا مـع الزمن ودفاتر ومذكرة كبيرة ذات غلاف من الجلد .

اخرج سفيريدوف والبحار الوثائق بحذر ووضعاها على الطاولة وبدآ يتفحصانها باهتمام ملقين بجمل قصيرة بين الفينة والفينة . والتصق الاولاد بالطاولة كذلك ، محاولين رؤية شيء ما .

قال البحار :

– كل شيء مرتب حسب البحار ، وحتى المحيط الهندى موجود.

– وقرأ على غلاف احدى الاضبارات : –«سفينة «غروسوينـــور» الانكليزية» . غرقت فى عام الف وسبعمائة واثنين وثمانين بالقرب من جزيرة سيلان . الحمولـة : ذهب واحجـار كريمـة» . سفينـة «بيتسى» . . .»

فقاطعه سفيريدوف:

– فلنلق نظرة على بحارنا احسن .

– حسنا . – واختار من بين الاضبارات واحدة وقرأ فيها :– البحر الاسود . ها هو الفهرس : «ترابيزوند» ، سفينة يملكها خان القرم دولت غيرى . . . «الامير الاسود» – غرقت فى الرابع والعشرين من تشرين الثانى عـام الف وثمانمئـة واربعـة وخمسين فى خليج بالاكلافا ، تحطمت اثناء العاصفة على صخرة قرب الشاطئ ، الحمولة – خمسة ملايين روبل ذهبى . . .» – وتصفح الاوراق وهز برأسه .

– يا لها من معلومات ! احداثيات دقيقة لامكنة مصرع السفن ، شهادات شهود العيان ،مواد استعلامية ضخمة . . .

قال سفيريدوف :

– حسنا جدا ! ان كل ذلك يفيد مصلحة «انتشال السفن» .

فأكد البحار على كلامه قائلا :

– نعم ، انها مواد لا تقدر بثمن .

الفصل الرابع والسبعون

الالتحاق

كانت السيارة تنهب طريق ياروسلافل نهبا متجهة الى موسكو ، وقد استلقى ميشا وغينكا وسلافا على مقعدها الخلفى . كان الاولاد مسرعين لحضور الاجتماع الاحتفالى فى المدرسة بمناسبة الذكرى الخامسة للجيش الاحمر . اما سفيريدوف والبحار فقد بقيا عند تيرينتييفا .

قال غينكا :

– انه حيزبون مقيت رغم كل شيء .

– من؟

– بوليكارب تيرينتييف .

– ولماذا ؟

– كأن به لم يستطع دس قليل من النقود فى المخبأ .

ضحك ميشا قائلا :

– هيا ، هيا . تحدث كذلك عن الخيطان .

– وما شأن الخيطان فى ذلك ؟ اتظن انى لم اكن اعرف ان لديهم اسلحة فى المستودع ؟ لقد كنت اعرف ذلك جيدا . لقد تحدثت عمدا فقط عن الخيطان ، للتمويه . سوف تريان كيف سيعترف نيكيتسكى فى نهاية الامر انه فجر «الامبراطورة ماريا» .

قال سلافا :

–الرسالة يا ميشا ؟

– آه لقد نسيت !

اخرج ميشا من جيبه الرسالة التى اعطاهم اياها سفيريدوف منذ قليل . كتب على المغلف بخط كبير واضح : «الى ميخائيل بولياكوف وغينادى بيتروف . خاص» .

فتح ميشا الرسالة وقرأ بصوت مسموع :

« – مرحبا بكما صديقى العزيزين ميشا وغينكا !

احزرا ممن هذه الرسالة . احزرتما ؟ هيا ، طبعا حزرتما .

تماما ! انها منى انا ، بوليفوى ، سيرغى ايفانوفيتش .

لقد كتب لى الرفيق سفيريدوف عن قضاياكما . لم اكن اظن ابدا انكما ستصفيان الحساب مع نيكيتسكى ! بل ان الخجل ينتابنى قليلا فى انه ضربنى فى ريفسك وقتذاك .

اقدم لكما المدية هدية ، وعندما تكبران ، انظرا اليها وتذكرا حداثتكما .

اما عن احوالى فاخبركما انى عدت للخدمة فى الاسطول . ننتشل السفن من القاع ونصلحها ونطلقها لتمخر عباب البحار والمحيطات .

وبذلك اختتم رسالتى . احييكما تحية شيوعية .

بوليفوى» .

وصلت السيارة الى المدينة ، ولاح برج سوخاريف من خلال زجاجها الامامى .

قال ميشا :

– لقد تأخرنا عن الاجتماع .

فاقترح عليه سلافا بقوله :

– لعلنا لا نذهب مطلقا ؟ ليس طريفا ان نرى كيفية تسليم بطاقات الكومسومول للاخرين .

– من اجل ذلك بالذات علينا ان نذهب ، والا ضحكوا منا اكثر .

ها هو شارع الاربات .

قال السائق :

– لقد وصلنا .

خرج الاولاد من السيارة ودخلوا المدرسة . كان الدرج مقفرا هادئا ، ما عدا الخالة بروشا التى جلست امام غرفة خلع الثياب تحيك جوربا . كان الاجتماع قد بدأ .

قالت :

– ممنوع الدخول ، لكى لا تتأخروا مرة اخرى .

فرجاها ميشا :

– ولكن يا خالتي بروشا ، من اجل العيد .
– من اجل العيد فقط ، – قالت الخالة بروشا ذلك واخذت منهم معاطفهم .
صعد الاولاد الدرج ودخلوا القاعة الملأى دون ضجة ووقفوا امام الباب .
كانت طاولة الرئاسة مغطاة بقماش احمر ، وعلق فوقها قطعة من النسيج الاحمر كذلك ، كتب عليها : «فلترتجف الطبقات الحاكمة خوفا من الثورة الشيوعية . ليس للبروليتاريين ما يفقدونه في الثورة الا سلاسلهم ، ولكنهم يحصلون على عالم بكامله» .
ميز ميشا هذه الكلمات بصعوبة لان قرص الشمس العديم اللون في شهر شباط كان يبرق النافذة بشكل لا يطاق وتخطف اشعته الساطعة الابصار .
انهى كوليا سيفوستيانوف كلمته ، واغلق مذكرته وقال :
– ايها الرفاق ! ان هذا اليوم بالنسبة لنا احتفالي بشكل خاص لان مكتب لجنة منطقة خاموفنيكي لاتحاد الشبيبة الشيوعي لعامة روسيا قرر ان يقبل المجموعة الاولى في الكومسومول من احسن الطلائع في فرقتنا وهم ...
احمرت وجوه الاصدقاء . وقف غينكا وسلافا مطرقين برأسيهما ، اما ميشا فقد كان ينظر الى الشمس عبر النافذة دون ان يحول بصره عنها حتى آلمته عيناه ورأى الافق كله مغطى بآلاف الاقراص اللامعة الصغيرة .
واستمر كوليا يتحدث بعد ان فتح مذكرته مرة اخرى :
– ... وهم فورونينا مرغريتا وكروغلوفا زينائيدا واوغوربيف الكسندر وايلداروف سفياتوسلاف وبولياكوف ميخائيل وبيتروف غينادي ...
ما معنى ذلك ؟ ألعله خيل اليهم ؟ نظر الاصدقاء الى بعضهم البعض . دفع غينكا في سورة الانفعال سلافا في ظهره ، واراد سلافا ان يكيل له الصاع صاعين الا ان الكساندرة سيرغييفنا التي جلست غير بعيد رفعت اصبعها مهددة ، فاكتفى سلافا بانه دفع غينكا بقدمه .
ثم نهض الجميع وادوا نشيد «الاممية» . اداه ميشا بصوت رنان تهدج فجأة على غير انتظار .

ازداد التهاب القرص اللامع خلف النافذة ، واتسعت هالتــه وشملت الافق كلــه واشباح البيوت والسطوح والاجراس وابراج الكريملين .

استمر ميشا يتطلع الى هذا القرص ، ولاح لناظريــه القطار وجنود الجيش الاحمر وبوليفوى فى معطفه العسكرى الرمادى والعامل المفتول العضلات يحطم بمطرقتــه الثقيلــة سلاسل تحيط بالكرة الارضية .

موسكو . ١٩٤٦ — ١٩٤٨



الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب ، وترجمته ، وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ٢١
موسكو – الاتحاد السوفييتي

دار التقدم

يوشك ان يصدر :

غارشين . الضفدعة السائحة

رغبت الضفدعة الخضراء ان تزور الاقطار الدافئة ، وان تسافر اليها مع البط . واستعملت اسلوبا غير اعتيادى فى رحلتها : تشبثت بعود ، امسكت به بطتان ، وبدأت الرحلة . كان على الضفدعة ان تصمت كى لا يفلت العود من فمها ، لكنها رغبت جدا ان تقص للجميع بان فكرة استعمال العود ابتكرتها هى بنفسها . وعندما كانت البطتان تطيران فوق القرية نقت الضفدعة . . .

ان قصة الكاتب الروسى الرائع فسيفولود غارشين «الضفدعة السائحة» واسعة الانتشار . والرسوم الملونة فى الكتاب رسمها الرسام تشاروشين .

دار التقدم

يوشك ان يصدر :

سخرنوف . سكان البحر الدافئ

فى اعماق البحار المظلمة تجرى مطاردة الاخطبوط وحوت العنبر ذي الاسنان الكبيرة . وتشع السميكات الصغيرة بنور مختلف الالوان فيما بين الشعب المرجانية . . . ان الحيوانات والاسماك المتعددة الانواع تقطن فى البحار الدافئة . ولكل منها عاداته الخاصة .

لقد كتب سفياتسلاف سخرنوف كتابه «سكان البحر الدافئ» للاطفال والكاتب معروف من قبل القراء فى الخارج عن طريق كتابه الذى اصدرته دار التقدم قبل فترة وجيزة ، «السفن المدهشة» . وهذه الطبعة مزينة بصور ملونة رسمها الرسام اوستينوف .

دار التقدم

يوشك ان يصدر :

نوسوف . القبعة الحية

نيكولاى نوسوف يكتب للاطفال وعن الاطفال . الا ان كتبه يحبها ويقرأها الناس في مختلف الاعمار لانها شيقة ومرحة دائما ومليئة بالنكات الذكية .

«القبعة الحية» كتاب للاطفال الصغار وهو قصة عن صديقين تخاصما . . . مع القبعة التى اخذت فجأة تمشى فى الغرفة . الصبيان فزعا ولم يحزرا فى الحال ان تحت «القبعة الحية» اختفى قط صغير .

الكتاب مزود برسوم ملونة للرسام سيمينوف .

